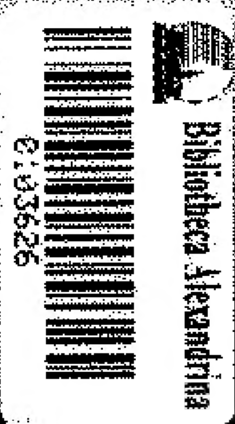
الشيخ محمد الخضري بك

إتمام الوفاء

في سيرة الخلفاء

تعليق

الشيخ زهير الكبي



دار الفكر العربي
بيروت

إتمام الوفاء

في سيرة الخلفاء

تعليق

الشيخ زهير الكبي



دار الفكر العربي

المقدمة

قال ابن خلدون في مقدمة كتابه: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر»: «إعلم أن فن التأريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه من أحوال الدين والدنيا، فهو يحتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر، وتثبت يفيضان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط»[1].

هذا الكلام يختصر في أسطره دوافع كبار مؤرخي هذه الأمة عندما نظموا تاريخهم. فالتاريخ ليس قصصاً يمضي بها الإنسان وقت فراغه، وإنما هو: «الاقتداء» و«حسن نظر وتثبت يفيضان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط».

وكتاب إتمام الوفاء الذي يعالج فيه محمد الخضري بك أهم وأخطر مرحلة من مراحل تاريخ الأمة الإسلامية، مرحلة الخلافة الراشدة، إنما أراد بذلك تنبيه المسلمين إلى أهمية وحدتهم واجتماعهم حول الخليفة الواحد، فقد توفي النبي ﷺ وكادت الأمة أن تختلف على إمامها في حراسة الدين وسياسة الدنيا، لولا أن ألهم الله الخليفة الأول الصواب بمؤازرة كبار المهاجرين ثم بمساندة الأنصار، فاجتمعت الأمة على مبايعته، فلم يكن منه إلا أن تابع ما انتهى منه رسول الله ﷺ بإنفاذ حملة أسامة رضي الله عنه، ثم جاهد مع أصحابه حتى أعاد الأمة إلى وحدتها بعد أن ارتدت بعض قبائل العرب.

---

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون ص ٩.

وتابع الخليفة الثاني الفتوحات فتوسعت أرض الخلافة، ونعمت المدينة، مركز الخلافة، بسعة من العيش من كثرة الأموال التي وردت إثر الفتوحات في العراق والشام. ولا شك أن عهد الخليفة عمر رضي الله عنه كان من أكثر العهود تماسكاً في التاريخ الإسلامي.

ثم اختير الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه والسلطة والقرار بيد الخليفة، والبلاد تزداد اتساعاً، وأموال الفتوحات تأتي بلا حسبان، والأمراء والولاة يقدمون ولاءهم للخليفة دون منازع إلى أن ظهرت الفتنة، ومؤججها الأساسي ذلك الرجل اليهودي المسمى عبد الله بن سبأ ومن تبعه من أهل الأهواء، ولم يشأ الخليفة التعامل مع الفتنة بالقوة لما عهد عنه من رقة ولين، فكان ما كان من قتله، ولم تنته الفتنة بقتله بل كانت البداية. وكان قتل عثمان رضي الله عنه باباً عريضاً للدخلاء لإيقاد نار هذهْ الفتنة، فلم يستقر الأمر للخليفة الرابع بل كثرت الحروب بين المسلمين كما سيذكر المصنف.

والأستاذ الشيخ محمد الخضرمي بما عرف عنه من موضوعية ومنهجية التزم القواعد التي رسمها ابن خلدون حيث قال: «... وكثيراً ما وقع للمؤرخين والفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة... فضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط...»[1] فلم يعمل على مجرد النقل بل أخذ بالراجحة القوية المعول عليها والتي وزنها بميزان العقل.

هذا وقد قمت بما توفر لدي من جهد بالتعليق على بعض مسائل الكتاب مما اعتقدت أنه يسهل للقارىء فهم المسألة أو يزيد من معلوماته. وقد ذيلت لبعض الكلمات والأسماء التي تحتاج إلى شرح وإيضاح مما وجدت له ضرورة للشرح والإيضاح، وقد أضفت إلى بعض الأحاديث التي خرجتها على أمهات الكتب بعض الكلمات التي وجدتها في تلك الكتب وبدونها يختل النص أو لا يتحقق

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون ص ٩ ـ ١٠.

المقصود منه. وقد فصلت بعض تعليقات المصنف التي ذكرها ضمن نص الكتاب فوضعتها في الهامش وأشرت إليها بحرف «م». هذا واسأل الله أن أكون قد وفقت في عملي هذا خدمة لهذا العلم الشريف.

بيروت في ٢٩ ـ ١١ ـ ١٩٩١

زهير شفيق الكبي

ترجمة المؤلف(1)

ولد الشيخ محمد الخضري سنة ١٨٧٢ م بمصر وكانت إقامته في محلة الزيتونة من ضواحي القاهرة. درس في مدرسة دار العلوم وعين قاضياً شرعياً في الخرطوم. ثم مدرساً في مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة، ثم عين وكيلاً لمدرسة القضاء الشرعي وأستاذ الشريعة الإسلامية، وفي آخر عمره كان مفتشاً للعربية في وزارة المعارف العمومية بمصر.

كان شيخاً من جملة شيوخ العصر وعالماً من العلماء بالشريعة والتاريخ والأدب، وهذا واضح من مؤلفاته. وكان أيضاً كاتباً من أفراد الكتاب معروفاً بالمتانة والرقة وجمال الأسلوب وقوة الحجة.

من آثاره المهمة:

١ ـ إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، وهو الكتاب الذي بين أيدينا وقد ألفه سنة ١٣١٦ هـ.
٢ ـ تاريخ الأمم الإسلامية: وهو من محاضرات الجامعة المصرية.
٣ ـ تاريخ التشريع الإسلامي.
٤ ـ الدروس التاريخية الإسلامية.
٥ ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين.
٦ ـ الغزالي وتعاليمه وآراؤه.
٧ ـ مهذب الأغاني في تسعة مجلدات.
٨ ـ أصول الفقه.

وقد توفي رحمه الله سنة ١٩٢٧.

---

(١) أنظر معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف إليان سركيس، مطبعة سركيس بمصر ١٩٢٨، ص ٨٢٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله حق حمده. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أوضح السبل، وبلغ الرسالة كما حمل؛ والرضاء عن أصحابه الكرام البررة الذين اتبعوا نهجه القويم فدانت لهم الملوك وذلت لهيبتهم الأمم.

أما بعد، فيقول المرحوم محمد الخضري بن المرحوم الشيخ عفيفي الباجوري: سألتني وفقني الله وإياك أن أردف لك كتابي في سيرة النبي ﷺ الذي سميته «نور اليقين» بكتاب في تاريخ خلفائه الراشدين. إذ هم الذين ظهر الدين الإسلامي بأسمي مظاهره في أيامهم وتجلى في أجمل حليته بأقوالهم وأفعالهم طالباً مني أن أنهج على سنن الكتاب الأول في سهولة التعبير والإجتهاد في جمع ما تشتت من تاريخ هؤلاء السادة في مطولات الكتب التي يمل القاريء منها، ذاكراً أن من أعظم ما يبث في الأمة روح النشاط والإجتهاد في أن تعكف على دراسة تاريخ كبارها حتى تعريف كيف تغلبوا على المصاعب الجمة التي كادت تحول بينهم وبين أمانيهم العظيمة، وتعرف النتيجة التي تعود من أتباع الدين والسير على نظاماته. فعلمت حسن قصدك وصحة إيمانك وغيرتك على أمتك، ورأيت أن أساعدك على مقصدك وأتغلب على المصاعب التي تحول بيني وبين هذا العمل الجسيم مستعيناً بالله سبحانه وتعالى وهو نعم العون.

وقد جعلت الكتاب قسمين: القسم الأول: في اتحاد الكلمة وفيه الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر وزمن غير قليل من زمن عثمان ابن عفان رضي الله عنهم أجمعين. وأتبعت هذا القسم بنبذة في نظامات الأمة الإسلامية إذ ذاك وسير المسلمين مع بعضهم من حسن الإخاء والسعي وراء تتميم

ما أنبأ به رسول الله من تعميم الدين الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها. والقسم الثاني في عصر الإختلاف والفتن وهو من أواخر مدة عثمان إلى أن قتل علي بن أبي طالب وسلم ابنه الحسن الخلافة إلى معاوية رضي الله عنهم أجمعين وأتبعه بنبذة تظهر للمسلمين نتائج الإختلاف والفرقة ليكون الكتاب بعون الله درساً مفيداً لعامة المسلمين. وقدمت أمام القسمين مقدمة صغيرة في الخلافة وما يتعلق بها ولعل كتابي هذا يحل عند إخواني المسلمين محل القبول فيقبلون عليه كما أقبلوا على سابقه، وأني بحمد الله واثق بحسن مسعاي لأني قصدت به وجه الله سبحانه، أسأل به حسن الذخر في الأخرى وتوفيقاً للمسلمين حتى تقوى شوكتهم وينزل الله النصر عليهم.

وهذه هي الكتب التي استقيت منها في جمع كتابي هذا: (١) صحيح أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي في كثير من المواضع التي عني فيها بأخبار الصحابة رضي الله عنهم، (٢) صحيح أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري كذلك، (٣) تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري إلا ما كان من أمر صفين فإني لم أعثر على الجزء الذي يحتوي عليها، (٤) تاريخ أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد المعروف بابن الأثير الجزري، (٥) تاريخ عبد الرحمن بن خلدون المغربي، (٦) تاريخ علي بن الحسين المسعودي من ولد عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ، (٧) إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، (٨) سراج الملوك لأبي بكر محمد بن محمد الفهري الطرطوشي. وقد التزمت أن أنص لك على موضع النقل عندما أرى ذلك لازماً لما رأيت من حرصك على ذلك والله الموفق.

المقدمة في الخلافة

معنى الخلافة

أرسل الله سبحانه محمداً ﷺ بدين قويم وصراط مستقيم: من اتبعه نجا، ومن حاد عنه هلك وقد اشتمل هذا الدين على قوانين بها صلاح المجتمع الإنساني في الدنيا والآخرة، فبلغ عليه الصلاة والسلام الرسالة كما حمل، ثم لحق بربه راضياً مرضياً فكان لا بد للناس من إمام يخلفه في حمل الكافة على اتباع هذا الدين ليقف كل إنسان عند حده فيتساوى القوي والضعيف والشريف والوضيع أمام الحق، فهو خليفة رسول الله ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا.

وجوب إقامة الخليفة.

وقد أجمعت الأمة الإسلامية بعد وفاة رسول الله ﷺ على وجوب إقامة هذا الخليفة وتابعهم على ذلك من بعدهم من المسلمين ولم يشذ عن هذا الإجماع أحد[1]، اللهم إلا بعضاً من الخوارج والأصم من المعتزلة قالوا بالإستغناء عنه إذا صلحت الأمة بأن اتبعت الدين القويم فعملت بالكتاب والسنة، والذي حملهم على ذلك إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الإستطالة والتغلب والإستمتاع بالدنيا، لما رأوا الشريعة ممتلئة بذم ذلك والنعي على أهله ومرغبة في رفضه.

عدم تعدد الإمام.

وكذلك أجمع المسلمون على أنه لا يصح أن يكون لهم في عصر واحد

---

(١) ينظر في ذلك كتاب مراتب الإجماع ص ١٤٤، وموسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي ١/ ٣٨٥.

خليفتان[1] لما يجره ذلك من التنافس والتباغض اللذين هما سبب الخسران والوبال وكفى بما حصل للمسلمين منذ تفرقت كلمتهم وتعدد سلطانهم مانعاً من ذلك، فإن عدوهم تمكن من أن يتصنع لأحدهم ليستعين به على الآخر، فكان ملوك الروم يتقربون من ملوك الأندلس ليكونوا لهم ردءاً مانعاً من تعدي العباسيين عليهم، وصارت الحال تتقهقر من سيء إلى أسوأ حتى زمننا الذي نجتهد فيه للتقرب ممن يتمنون لنا الفناء والزوال، ولو عرف ملوك الإسلام مصلحتهم وأزالوا الكبرياء من نفوسهم فتمسكوا بالدين ما وصلوا إلى هذا الدرك الأسفل ﴿**إنَّ في ذلكَ لعبرةً لأولي الألبابِ**﴾[2].

صاحب الخلافة.

منصب عظيم كمنصب الخلافة لا يستغرب تشعب الأفكار فيه واختلاف الأمة في الأحق به فقد مضت القرون والأحقاب وهذه المسألة شاغلة أفكار العلماء من أكابر المسلمين وأول خلاف ظهر فيها كان عقب وفاة رسول الله ﷺ وآله فإن الأصحاب كانوا في ذلك على ثلاثة مذاهب:

قوم قالوا إنها ترجع لرأي الأمة تختار من تشاء ليكون إماماً لها متى رأوا فيه القدرة على حراسة الدين وسياسة الدنيا لا فرق في ذلك بين القرشي وغيره وكان هذا رأي أغلب الأنصار من سكان المدينة رضوان الله عليهم، ولذلك طلبوها لأنفسهم وأرادوا أن يبايعوا سعد بن عبادة سيد الخزرج. وأخذ برأيهم من بعدهم عامة المعتزلة وأكثر الخوارج والحجة في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «**إسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة**»[3]

---

(١) ينظر كتاب مراتب الإجماع ص ١٤٤، وموسوعة الإجماع ٣٨٧/١. وفيه نقلاً عن ابن تيمية حيث قال: «النزاع في ذلك معروف بين المتكلمين في هذه المسألة كأهل الكلام والنظر. فمذهب الكرامية وغيرهم جواز ذلك. وأن علياً كان إماماً، ومعاوية كان إماماً، وأما أئمة الفقهاء فمذهبهم أن كلاً منهما ينفذ حكمه في أهل ولايته، كما ينفذ حكم الإمام الواحد. وأما جواز العقد لهما ابتداء، فهذا لا يفعل مع اتفاق الأمة. وأما مع تفرقتها فلم يعد كل من الطائفتين لإمامين، ولكن كل طائفة إما أن تسالم الأخرى. وإما أن تحاربها، والمسألة خير من محاربة يزيد ضررها على ضرر المسالمة. وهذا مما تختلف فيه الآراء والأهواء».

(٢) سورة آل عمران آية ١٣.

(٣) رواه البخاري في الأذان والأحكام، وابن ماجة في الجهاد، وأحمد بن حنبل ١٤٤/٣، ١٧١.

وقوم قالوا هي باختيار الأمة أيضاً ولكن لا تكون إلا في قريش. وكان هذا رأي أغلب المهاجرين رضوان الله عليهم. وأخذ برأيهم من بعدهم عامة أهل السنة، والحجة في ذلك ما رواه أبو بكر رضي الله عنه من قوله عليه الصلاة والسلام: **«الأئمة من قريش»**[1]

وقوم رأوا أن الأولى بها قرابة رسول الله ﷺ والمقدم فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه لسابقته بالإسلام، وحسن بلائه فيه، وقوله عليه السلام له حينما خلفه على أهله في غزوة تبوك: **«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي»**[2] وكان هذا رأي أغلب بني هاشم ومن شايعهم. وأخذ برأيهم من بعدهم عامة الشيعة والدليل على أن ذلك كان رأياً لعلي قوله لأبي بكر في حديث مسلم الآتي: «وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله ﷺ» فلم يكن رضي الله عنه يرى لنفسه مرجحاً سوى هذه القرابة ولو كان هناك وصاية له أو لغيره لما خفيت عن أصحاب رسول الله ﷺ.

وقد تغلب الرأي الأوسط على ما سواه عقب وفاة رسول الله ﷺ ولكن ظهر لهذا الإختلاف في مستقبل الأمة آثار لا تحمد من الشقاق العظيم والمصائب التي توالت على الأمة حتى فرقت كلمتها وأضعفت أمرها ولو روعي السر الذي من أجله خصصت قريش بالخلافة لما كان هناك خلاف ولا فرقة.

السر في تخصيص قريش بالخلافة.

وإنما خص رسول الله ﷺ قريشاً بخلافته اعتباراً للعصبية التي تكون بها الحماية ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب، فتسكن إليه الملة وأهلها وينتظم حبل الألفة فيها ولا شك أن قريشاً كان لهم العز والشرف على سائر مضر، يعترف لهم بذلك سائر العرب. فلو جعل الأمر في سواهم لتوقيع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة وهذا ما حذره الشرع. أما إذا جعل فيهم فلا يحصل شيء من ذلك لأنهم قادرون على سوق

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٣/١٢٩، ١٨٣ و ٤/٤٢١.

(٢) رواه ابن ماجة إلى قوله «موسى» ١/٤٣، ورواه أيضاً البخاري في الفضائل، والترمذي في المناقب، وأحمد ١/١٧٠ ـ ١٨٢، و٣/٣٢.

الناس بعصا الغلب لما يراد منهم، فلا يخشى من أحد اختلاف عليهم ولا فرقة لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها. قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه بعد كلام لا يخرج عما ذكرناه: «فإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية، فرددناه إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهو وجود العصبية، فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة، وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة، وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا، لأنه سبحانه وتعالى إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه»ا. هـ.

أقول ولا نعلم الآن عصبية كافية لحماية الأمة أقوى من عصبية القائمين بأمور المسلمين الآن وهم بنو عثمان بالقسطنطينية وفقهم الله العمل بدينه القويم والسير بسيرة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

شروط الخليفة.

لا بد لمن يتولى هذا المنصب العظيم أن يكون جامعاً لشروط أربعة:

(١) **العلم**: لأنه منفذ لأحكام الله تعالى ومتى كان جاهلاً بها لا يمكنه تنفيذها.

(٢) **العدالة**: لأن الإمامة منصب ديني ينظر في سائر الأحكام التي تشترط فيها العدالة فكانت أولى باشتراطها.

(٣) **الكفاية**: بأن يكون جريئاً على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيراً بها، كفيلاً بحمل الناس عليها عالماً بأحوال الدهاء قوياً على معاندة السياسة ليصلح له بذلك ما أسند إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدبير المصالح.

(٤) أن يكون سليم الحواس والأعضاء: مما يؤثر فقدانه في الرأي والعمل ويلحق بذلك العجز عن التصرف لصغر أو أسر أو غيرهما.[١]

انتخاب الخليفة.

قال الله تعالى في سورة آل عمران مخاطباً لنبيه الكريم ﴿وشاورهم في الأمر﴾[٢]. وهذا خطاب للأمة كلها فكانت الشورى بذلك أساساً للأعمال العظيمة التي يعملها المسلمون وأجلها تنصيب الخليفة فلا تنعقد إلا بشورى المسلمين ورضاهم والمعتبر في ذلك أهل الحل والعقد منهم وهم كبار الصحابة رضوان الله عليهم الذين امتازوا بكثرة الصحبة فاستنارت بصائرهم وعرفوا من يصلح للأمة وهذا في العصر الأول وينزل منزلتهم فيما بعده من العصور من له خير في الإسلام. ولا يلزم إجماع ذوي الحل والعقد على المنتخب بل المعتبر الأغلبية وهي ما زاد على نصف المجتمعين. والحجة في ذلك عهد عمر، فمتى تم الرضا على واحد بايعوه على السمع والطاعة وعلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبهذه البيعة تجب على المسلمين طاعته وتنفيذ أوامره ما وافق منها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وليست الطاعة للإمام في حياته فقط بل وبعد وفاته، فإذا عهد لأحد من المؤمنين بالخلافة انعقدت له ووجبت مبايعته فصار واجب الطاعة وقد فعل ذلك أبو بكر لعمر رضي الله عنهما فأجازه المسلمون وإذا حصر الشورى في عدد مخصوص من ذوي الحل والعقد أجيز ذلك وصح انتخابهم كما فعل عمر مع عثمان رضي الله عنهما، وهذه الكيفيات الثلاث في انتخاب الإمام، وهي: انتخابه بالشورى العامة أو الخاصة التي يختارها الإمام السابق، أو ولاية العهد، هي الكيفيات التي عمل بها في العصر الأول وبقيت كيفية رابعة أقر العلماء بعد العصر الأول على انعقاد الإمامة بها وهي كيفية التغلب وتكون حينما لا يكون للمسلمين إمام واختلفوا فيما بينهم فلم يرضوا واحداً فيجوز لمن يعرف من نفسه القدرة على سياسة الأمة بدرايته وعصبيته أن يطلب هذا الأمر فيدخل الناس في طاعته إما طوعاً وإما كرهاً، ومتى هدأت الأحوال وأجيب نداؤه صارت خلافته معمولاً بها وصار واجب الطاعة.

---

(١) زاد الماوردي على هذه الشروط «١ ـ الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح ـ ٢ ـ أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه» (الأحكام السلطانية ص ٦).

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩.

طاعة الإمام.

قال الله تعالى في سورة النساء: **﴿يا أيّها الّذينَ آمَنوا أطيعُوا الله وأطيعُوا الرسُولَ وأُولي الأمرِ منكم﴾**(١) وقال رسول الله ﷺ: **«اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»**(٢) وقال عليه السلام: **«من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني»**(٣) وقال عليه السلام لأبي هريرة: **«عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك»**(٤) والأثرة هي استئثار الحقوق، وقال عليه السلام: **«لو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاستمعوا له وأطيعوا له»**(٥) وقال أبو ذر رضي الله عنه: **«أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع وإن كان مجدّع الأطراف»**.

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كان لا نخاف في الله لومة لائم»(٦) وفي رواية: «بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ولا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بوحاً»(٧) والبواح الظاهر المكشوف الذي لا تأويل فيه.

مخالفة الإمام.

وهذه الطاعة محدودة بما حده الشرع فإذا أمر بما يطبق على قواعد الدين ولا يخالف صريح القرآن ولا السنة الظاهرة المكشوفة فأمره مطاع واجب التنفيذ.

---

(١) سورة النساء آية ٥٩.

(٢) مر تحقيقه.

(٣) رواه البخاري في الأحكام والجهاد، ومسلم في الإمارة، والنسائي في البيعة، وابن ماجة في الجهاد وأحمد بن حنبل ٢/٢٥٣، ٢٧٠، ٣١٣.

(٤) رواه مسلم في الإمارة، والنسائي في البيعة، وأحمد بن حنبل ٢/٣٨١ و ٥/٣٢١.

(٥) رواه مسلم في الإمارة، والنسائي في البيعة، وأحمد ٤/٦٩ و ٥/٣٨١ و ٦/٤٠٢.

(٦) رواه مسلم في الإمارة والنسائي في البيعة.

(٧) رواه البخاري في الفتن ومسلم في الإمارة.

وكذلك إذا كان باجتهاد من عنده استند فيه لكتاب أو سنة، أما إذا أمر بما خالف صريح القرآن أو السنة فلا طاعة له قال رسول الله ﷺ: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»(١) وقال عليه السلام: «**فإذا أمرت بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»(٢) كما إذا أمر بشرب خمر أو ترك صلاة مثلاً فيجب على المرء المسلم أن لا ينفذ أمره بل ينفذ أمر الله ولا يخاف فيه لومة لائم.

منابذة الإمام

أما إذا خرج هو في أعماله عن حد الشرع بأن ظلم أو استأثر بالحقوق أو فسق بشرب خمر أو ترك صلاة مثلاً، فالواجب على المسلمين القيام بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، لا تأخذهم في ذلك لومة لائم عملاً بحديث عبادة «وعلى أن نقول الحق أينما كان لا نخاف في الله لومة لائم» بشرط ألا يؤثر ذلك في طاعته شيئاً فلا يجوز الخروج عليه وإشهار السلاح في وجهه أبداً مهما استأثر أو فعل إلا إذا ظهر منه كفر صريح لا تأويل فيه، ففي حديث عبادة: «ولا ننازع الأمر أهله إلا أن يروا كفراً بواحاً» وهنا لا إمامة له ولا طاعة بل يجب على كل مسلم القيام ضده حتى يبوء بالخزي والنكال. وقد كان أكثر الصحابة الذين في عهد يزيد على هذا المبدأ، فلما شهر يزيد بما شهر به لم يجرؤ أحد منهم الخروج عليه إلا الحسين بن علي رضي الله عنه فإنه رأى لنفسه ذلك لأهليته التي لا يمارى فيها، وشوكته التي لم تكن بالحادة، فلم يتمكن مما أراد رحمه الله وقد عذله على خروجه أخوه محمد بن الحنفية وابن عمه عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير فلم يرض لنصحهم لأمر أراده الله. وقد كان في ذلك العصر كثير من الصحابة بالحجاز والشام والبصرة والكوفة ومصر، وكلهم لم يخرج على يزيد لا وحده ولا مع الحسين، ولم يقاتلوا مع يزيد أيضاً بل اعتزلوا هذه الفتنة. ولعل الحسين رضي الله عنه تأول قوله تعالى: ﴿**ولتكنْ منكمُ أمة يدعونَ إلىَ الخيرِ ويأمرونَ بالمعروف**

---

(١) رواه البخاري في الأحاد، ومسلم في الإمارة، وأبو داود في الجهاد، والنسائي في البيعة، وابن ماجة في الجهاد، وأحمد بن حنبل ١/٩٤، ٤٠٩ و٤/٤٢٦، ٤٣٢.

(٢) هو جزء من حديث رواه البخاري في الأحكام والجهاد، ومسلم في الإمارة، وأبو داود في الجهاد، والترمذي في الجهاد، والنسائي في البيعة، وابن ماجة في الجهاد، وأحمد ٢/١٧، ١٤٢.

وينهونَ عَنِ المنكر﴾[1] وساعد على ذلك أن أرسل له سراة أهل العراق يطلبونه لمبايعته فرأى ذلك له مع قرابته من رسول الله ﷺ فكان ما كان.

جزاء المحاربين

الإمام خليفة رسول الله ﷺ فمن عصاه فقد عصى الرسول ومن عصى الرسول فقد عصى الله ومن حارب الإمام فقد حاربهما وأجدر بمن حارب الله ورسوله أن يبوء بإثم عظيم، وقد بين الله سبحانه وتعالى جزاء المحاربين في سورة المائدة قال تعالى: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقَطَّع أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلهِمْ من خلاف أو يُنفوا من الأرضِ ذلك لهم خِزي في الدّنيا ولهم في الآخِرة عذابٌ عظيم. إلاّ الّذِينَ تابوا من قبلِ أنْ تقدِرُوا عليهم فاعْلَمُوا أن الله غفور رحيم﴾[2] فجعل المحارب أربعة أنواع: محارب قتل فجزاؤه القتل، ومحارب قتل وسرق فجزاؤه الصلب، ومحارب سرق فجزاؤه القطع، ومحارب أخاف السبيل فجزاؤه النفي. والذي حدد هذه الأنواع السنة المطهرة. وقال بعض الفقهاء إنه لا توزيع في هذه العقوبات وللإمام الخيار في الحكم بأي واحدة منها حسبما يراه من المصلحة، وإن كانت لهم فئة يرجعون إليها كانوا بغاة ولهم أحكام تذكر في كتب الفقه[2]، ثم ذكر سبحانه أن من تاب من قبل القدرة عليه فقد عفا الله عنه ولذلك يلزم الإمام أن يدعوهم إلى طاعته قبل أن يبدأهم بالقتال، وقد فعل ذلك علي بن أبي طالب مع من خرج عليه من الحروريين، ورأى أن قليلاً ممن خرج على الأئمة في العصور السابقة لهم مقاصد دينية والغالب عليهم المقاصد الذاتية النفسانية ولذلك قلما رأينا منهم من نجح لأن سنة المصطفى ﷺ هي النور الذي يستضيء به كل مسلم وهي قد حرمت الخروج تحريماً شديداً مخافة تفريق المسلمين وتشتيت كلمتهم.

واجبات الإمام

قد علمنا أن وظيفة الإمام هي حراسة الدين وكفاية الأمة، فالواجب عليه إذاً أن يكون الشرع قائده لا ينحرف يمنة ولا يسرة عما جاء في كتاب الله الذي لا يأتيه

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤.

(٢) يراجع في ذلك تفسير الفخر الرازي ١١/٢٢٠ - ٢٢٣.

الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسنة رسوله ﷺ العادلة الصحيحة وإجماع أئمة المسلمين في العصر الأول، فإن فعل ذلك واهتدى بهدى من هو خليفة عنه وهدى خلفائه الراشدين كانت مرتبته مرتبة الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وكان من الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله. وأما إن انحرف وحاد واتبع شهواته النفسية فهناك يكون الوعيد الشديد والعقاب الأليم، قال عليه الصلاة والسلام: **«ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة»**[1] وقال عليه السلام: **«ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يجد رائحة الجنة»**[2] وقال عليه السلام: **«من ولي من أمر المسلمين شيئاً ثم لم يحطهم بنصحه كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار»** إلى غير ذلك من الأحاديث التي كلها تحذير للأئمة كيلا تهوى بهم أعمالهم في الدرك الأسفل من النار نعوذ بالله من ذلك. اللهم ألهم ولاة أمورنا الرشد وبين لهم السداد ليقتدوا بسيرة نبيك ﷺ سيد الأنبياء وسيرة خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان والإمارة.

(٢) روي بغير هذه الرواية في البخاري كتاب الأحكام، وفي مسلم كتاب الإيمان والإمارة.

القسم الأول من الكتاب

خلافة أبي بكر

لما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى اجتمع أصحابه من مهاجرين وأنصار في سقيفة بني ساعدة لإقامة خليفة له وكان الأنصار أهل المدينة يريدونها لأنفسهم لما لهم من نصرة رسول الله ﷺ وإيوائه بطيبتهم ولا يرون اختصاص قريش بالخلافة، فلما حجهم أبو بكر رضي الله عنه بقوله عليه الصلاة والسلام: «**الأئمة من قريش**» أصاخوا له وتركوا ما ذهبوا إليه من أحقيتهم بالخلافة لأن المخالف ما دام حائداً عن الهوى سهل إرجاعه إلى الحق، وهؤلاء كانوا أجلة أصحاب رسول الله ﷺ فلا يهمهم إلا ضم كلمة المسلمين ولم شعثهم غير ناظرين إلى الدنيا وزخارفها. وكان بنو هاشم يريدونها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لما يرون من أحقيته بالخلافة لقرابته من رسول الله ﷺ ولكن الرأي الغالب كان مع أبي بكر رضوان الله عليه، لأن رسول الله ﷺ خلفه في الصلاة وقت مرضه فقال المؤمنون قد رضيه ﷺ لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؟ فبويع بها لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة وأول من بايعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم يبايع علي بن أبي طالب إلا بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها.

وفي مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك (قرية بخيبر) وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر إن رسول الله ﷺ قال: «**لا نورث ما تركناه صدقة**»[1] إنما يأكل آل محمد من هذا المال، وإني والله لا أغير شيئاً من

(١) روي بروايات متعددة، فأخرجه البخاري في الخمس وفضائل أصحاب النبي والمغازي والنفقات، ومسلم في الجهاد، وأبو داود في الإمارة، والترمذي في السير، والنسائي في الفيء، ومالك في الكلام، وأحمد ١/٤، ٦، ٤٧، و٢/٤٦٣ و٦/١٤٥، ٢٦٢.

صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كانت في عهد رسول الله ﷺ ولا أعمل فيها إلا بما عمل رسول الله ﷺ، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك، قال، فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت وعاشت بعد رسول الله ﷺ ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها علي بن أبي طالب ليلاً ولم يؤذِن بها أبا بكر وصلى عليها وكانت لعلي من الناس وجهة حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر علي وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته، ولم يكن بايع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبي بكر والله لا تدخل عليهم وحدك، فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بي والله لآتينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد علي بن أبي طالب، ثم قال إنا قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ولكنك استبددت علينا بالأمر، وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله ﷺ فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عينا أبي بكر، فلما بكى أبو بكر قال لقرابة رسول الله ﷺ أحب أن أصل من قرابتي، وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال فإني لم آل فيها عن الحق ولم أترك أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته فقال لأبي بكر موعدك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقى على المنبر فتشهد وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر إليه، ثم استغفر وتشهد علي بن أبي طالب فعظم شأن أبي بكر، إنه لم يحمله على صنع نفاسة على أبي بكر ولا إنكار للذي فضله الله به، ولكنا كنا نرى لنا في الأمر نصيباً فاستبد به، فوجدنا في أنفسنا، فسرّ بذلك المسلمون وقالوا أصبت، وكان المسلمون إلى علي قريباً حين راجع الأمر بالمعروف. ولما قضي الأمر ببيعة أبي بكر صعد المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

ترجمة أبي بكر

هو أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر التيمي القرشي يجتمع مع النبيّ ﷺ في مرة بن كعب وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ولد رضي الله عنه لسنتين من ميلاد رسول الله ﷺ وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة، وكان ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم، وكان مصاحباً لرسول الله ﷺ قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالته كان أبو بكر أول رجل أجابه حتى قال عليه السلام: «**ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر**». ثم قام بدعوة إخوانه وأصدقائه من قريش إلى هذا الدين. فأجابه جمع منهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وغيرهم، ولما آذى المشركون من أسلم من عبيدهم كان لأبي بكر اليد الطولى في شرائهم وعتقهم ابتغاء وجه ربه الأعلى منهم بلال بن رباح وعامر بن فهيرة وغيرهما. وقد أراد الهجرة إلى الحبشة مع من هاجر فمنعه من ذلك ابن الدغنة[1] سيد القارة وقال: «مثل أبي بكر لا يخرج»، وجعله في حمايته، فأقام أبو بكر على ذلك زمناً، ثم ترك هذه الحماية راضياً بحماية الله سبحانه وتعالى إذ لا يليق بالمسلم القوي الإيمان أن يرضى بحماية غير الله جل جلاله. ولما أذن الله لنبيه ﷺ في الهجرة إلى المدينة كان له شرف الصحبة بنص القرآن الشريف. قال تعالى في سورة التوبة: ﴿**إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**﴾[2].

وزوج رسول الله ﷺ بنته عائشة وسنها إذ ذاك سبع سنوات وبنى بها وهو في المدينة وسنها تسع سنوات. وشهد أبو بكر مع رسول الله ﷺ مشاهده كلها وكان يحمل رايته العظمى في آخر غزواته وهي غزوة تبوك، وأمره عليه السلام أن يحج بالمسلمين في السنة التاسعة، ولما مرض عليه الصلاة والسلام أمره أن يصلي بالناس، وهذه أعظم إشارة لإستحقاقه بالخلافة من بعده.

---

(١) هو مالك بن الدغنة: بفتح دال وكسر معجمة وخفة نون. وقيل بفتح غين وبسكونها. ويقال بضم دال وغين وشدة نون. (انظر المغني في ضبط أسماء الرجال ص ١٠١ ـ ١٠٢).

(٢) سورة التوبة آية ٤٠.

وكان له من الولد عبد الله الذي جرح بالطائف، وتوفي في أول خلافة أبيه، وأسماء زوج الزبير بن العوام، وأم عبد الله بن الزبير، وله عبد الرحمن، وأم المؤمنين عائشة، ومحمد الذي ولي مصر في مدة علي بن أبي طالب، وقتل بها، وأم كلثوم التي ولدت بعد وفاته.

وكان رضي الله عنه أبيض خفيف العارضين أحنى لا يتمسك إزاره، معروق الوجه «قليل لحمه» نحيفاً أقنى غائر العينين يخضب بالحناء والكتم، ولما تولى الخلافة كان منزله بالسنح (وهي محلة خارج المدينة) فكان يأتيها كل يوم ماشياً وربما ركب فرسه، ثم انتقل إلى المدينة بعياله بعد ستة أشهر من خلافته وترك تجارته التي كان ينفق منها على عياله وقال: «ما تصلح الناس أمور التجارة، وما يصلح لهم إلا التفرغ والنظر في شأنهم». وأنفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوماً بيوم، وكان يحج ويعتمر، ثم فرضت له الأمة شيئاً معلوماً يقوم بكفايته وقدره ستة آلاف درهم سنوياً.

ومن مآثره رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ في حقه: «**إن من آمن الناس عليَّ في صحبته أو ماله أبا بكر ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد باباً إلا سد إلا باب أبي بكر**»(١). وجاءت امرأة إلى النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه قالت أرأيت إن جئت ولم أجدك - كأنها تقول الموت -. قال ﷺ: «**إن لم تجديني فائتي أبا بكر**». وحدث أبو الدرداء قال كنت جالساً عند النبيّ ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه فقال النبي ﷺ: «**أما صاحبكم فقد غامر**» (ألقى بنفسه في الشدة) فسلم وقال يا رسول الله إنه كان بيني وبين ابن خطاب شيء فأسرعت في الحال إليه، ثم ندمت فسألته أن يغفر لي، فأبى عليَّ فأقبلت إليك فقال: «**يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثاً**» ثم إن عمر قدم فأتى منزل أبي بكر، فسأل أثم أبو بكر؟ فقالوا: لا فأتى النبي ﷺ فسلم عليه، فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر «يتغير غيظاً» حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال يارسول الله أنا كنت أظلم مرتين، فقال النبي ﷺ: «**إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق وواساني بنفسه وماله، فهل**

(١) أخرجه البخاري في الصلاة والفضائل ومناقب الأنصار، والترمذي في المناقب، وأحمد ٣/١٨.

أنتم تاركو لي صاحبي؟ مرتين»[1] فما أوذي بعدها.

أعماله في خلافته

أول عمل بدأ به أبو بكر تسيير جيش أسامة بن زيد الذي كان النبيّ ﷺ جهزه إلى أبنى[2] ولم يثنه عن ذلك ما حصل من الإضطرابات في بلاد العرب عقب وفاة رسول الله ﷺ وقد طلب بعض كبار الأنصار على لسان عمر بن الخطاب من أبي بكر أن يولي إمارة الجيش رجلاً أسن من أسامة، فغضب أبو بكر حتى قام وقعد، وقال يا عمر استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله؟ ثم خرج رضي الله عنه وشيع الجيش بنفسه ماشياً وأسامة راكب، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن فقال والله ما نزلت ولا ركبت وما عليَّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له وستمائة سيئة تمحى عنه، ثم وصاه هو وأصحابه فقال: «لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً، ولا تعزقوا نخلاً، ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وإذا لقيتم قوماً فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه فإذا قرب عليكم الطعام فاذكروا اسم الله. يا أسامة اصنع ما أمرك نبي الله ببلاد قضاعة، ثم أنت قافل ولا تقصر من أمر رسول الله ﷺ»، ثم ودعه من الجرف ورجع (الجرف موضع قرب المدينة)

ورغب أسامة من عمر بن الخطاب التخلف عن هذا البعث والمقام مع أبي بكر شفقة من أن يدهمه أمر، فأذن أبو بكر لعمر في ذلك، وسار أسامة حتى انتهى لما أمره به رسول الله ﷺ، فبعث الجنود إلى بلاد قضاعة (وكان لبني قضاعة ملك ما بين الشام والحجاز إلى العراق في أيلة، وجبال الكرك إلى مشارف الشام واستعملهم الروم على بادية العرب هنالك وكان أول الملك فيهم في تنوخ منهم،

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي.

(٢) بالضم ثم السكون وفتح النون والقصر بوزن حبلى: موضع بالشام من جهة البلقاء. (انظر: معجم البلدان ١ / ٧٩).

ثم غلبهم عليه بنو سليح، وكانت رياستهم في ضجعم بن سعد منهم، ثم غلبهم على هذا الملك بنو غسان الذين جاءوهم من اليمن، فصار ملك العرب بالشام لبني جفنة الذين مدحهم حسان بن ثابت) وأغار أسامة على أبنى فسبى وغنم ورجع إلى المدينة ظافراً بعد أن غاب عنها بعد أربعين يوماً، وكان إنفاذ هذا الجيش من أعظم الأمور نفعاً للمسلمين، فإن العرب قالوا لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش. فكفوا عن كثير مما كانوا عزموا عليه.

أخبار الردة

مني الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ بمصيبة عظمى لو لم تتداركها حكمة أبي بكر رضي الله عنه لضعف الدين وتشتت شمل المسلمين فإن العرب ما لبثت بعد أن علمت بموت رسول الله ﷺ حتى ارتدت ولم يبق أحد متمسكاً بدينه منهم إلا قريشاً بمكة وثقيفاً بالطائف وقليلاً من غيرهم. وكان الناس في ذلك على قسمين فمنهم التارك للدين بالمرة وهم بنو طيىء وأسد ومن تبعهم من غطفان الذين اتبعوا طليحة بن خويلد الأسدي، وبنو حنيفة الذين اتبعوا مسيلمة، وأهل اليمن الذين اتبعوا الأسود العنسي وكثير غيرهم. ومنهم المعطل للزكاة وهم بعض بني تميم الذين يرأسهم مالك بن نويرة وبنو هوازن وغيرهم. وكان من رأي أبي بكر رضي الله عنه قتال مانعي الزكاة لكما يقاتل المرتدون لأن تعطيل الزكاة طعن على الصلاة بل على جميع منازل الدين، فقال له عمر بن الخطاب: يا أبا بكر كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»**[1]، قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعلمت أنه الحق (رواه البخاري)، فشمر رضي الله عنه عن ساعد الجد غير مبال بهذه الأهوال الجسام مع قلة جيشه وكثرة عدوه واثقاً بوعده سبحانه وتعالى في

---

(١) أخرجه مسلم والبخاري في الإيمان، وأبو داود في الجهاد، والترمذي في تفسير سورة ٨٨، والنسائي في الزكاة، وابن ماجة في الفتن، والدارمي في السير، وأحمد ٤/٨.

قوله: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[1]. وها نحن نسوق لك حروب الردة لتعرف كيف ينجح الإنسان إذا اعتمد على ربه واستسهل المصاعب وليعلم المسلمون كافة فعل خليفتهم الأول عندما كان المسلمون كالغنم في الليلة الممطرة ولقلتهم وكثرة عدوهم وإظلام الجو بفقد نبيهم.

خبر عبس وذبيان

أقام أبو بكر ينتظر جيش أسامة فعاجلته عبس وذبيان ومنازلهم بنجد مما يلي وادي القرى وجبل طيء فنزل بعضهم بالأبرق، ونزل آخرون بذي القصة (موضعان شمال المدينة الغربي جهة نجد) واجتمع معهم جماعة من بني أسد، ومن انتسب إليهم من كنانة وقد بعثوا وفداً لأبي بكر يطلبون الإقتصار على الصلاة دون الزكاة، فأبى أبو بكر، وردهم خائبين وخشي على المدينة من البيات، فجعل على أنقابها علياً وطلحة والزبير وعبد الله بن مسعود، وأمر أهل المدينة بلزوم المسجد. فلما رجع وفد مانعي الزكاة إلى قومهم أطمعوهم في المدينة لقلة من فيها، فأغاروا عليها، فأرسل من الأنقاب إلى أبي بكر، فخرج بالمسلمين على النواضح (الإبل التي يسقى عليها) فهرب العدو، وتبعهم المسلمون إلى ذي خشب (وادي بقرب المدينة) فخرج عليهم ردء للعدو بقرب، فقد نفخوها وفيها الحبال، ثم دهدهوها (دحرجوها) على الأرض، فنفرت إبل المسلمين ورجعت بهم إلى المدينة، ولم يصرع أحد منهم بفضل الله، ثم خرج أبو بكر ليلاً على بقية بيت الأعداء، فلم يشعروا إلا والمسلمون على رؤوسهم، ولم تطلع الشمس إلا وقد ولوا الأدبار، فاتبعهم أبو بكر حتى وصل ذا القصة، فترك بها النعمان بن مقرن، ورجع إلى المدينة. حينذاك قدم أسامة بن زيد من غزوته، فاستخلفه أبو بكر على المدينة وترك معه جنده ليستريحوا، وخرج هو قاصداً ذا خشب وذا القصة، ثم سار حتى نزل على أهل الربذة، فقاتل من هناك من المرتدين وهزمهم، ثم غلب على بلاد ذبيان وجعلها حمى لدواب المسلمين، ثم رجع إلى المدينة حتى إذا استراح جيش أسامة وثاب من حوالي المدينة خرج إلى ذي القصة فعسكر بها وعقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائداً.

---

(١) سورة محمد آية ٧.

تسيير الجيوش إلى أهل الردة

(١) سيف الله خالد بن الوليد ووجهه إلى طليحة بن خويلد الأسدي. فإذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح. (٢)عكرمة بن أبي جهل ووجهه إلى مسيلمة باليمامة. (٣) شرحبيل بن حسنة ووجهه في أثر عكرمة. (٤) المهاجر بن أبي أمية ووجهه إلى جنود العنسي ومعاونة الأبناء (قوم من الفرس سكنوا اليمن) ثم يمضي إلى كندة. (٥) حذيفة بن محصن الغطفاني ووجهه إلى أهل دبا. (٦) عرفجة بن هرثمة ووجهه إلى أهل مهرة، وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعا وكل واحد أمير على صاحبه في عمله. (٧) سويد بن مقرن، ووجهه إلى تهامة اليمن. (٨) العلاء بن الحضرمي ووجهه إلى البحرين. (٩) طريفة بن حاجز، ووجهه إلى بني سليم، ومن معهم من هوازن. (١٠) عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة. (١١) خالد بن سعيد بن العاص ووجهه إلى مشارف الشام.

كتاب أبي بكر للأمراء

وكتب للأمراء عهداً هذه صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره، وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم، فيدعوهم بدعاية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرروا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم، فمن أجاب إلى أمر الله، وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ومن لم يجب إلى داعية الله قتل وقوتل حيث كان، وحيث بلغ مرغمة لا يقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى إلا الإسلام، فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانه، ومن قاتله فإن أظهره الله عليه عز وجل قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسّم ما أفاء الله إلا الخمس فإنه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد، وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى

يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيوناً، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين، ويرفق بهم في السير والمنزل، ويتفقدهم، ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول».

وكتب إلى المرتدين جميعهم كتباً صورتها واحدة وهذا نصها:

كتاب أبي بكر إلى المرتدين

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة أقام على الإسلام أو رجع عنه. سلامٌ على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والهوى. فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله، وأؤمن بما جاء به.

أما بعد.. فإن الله أرسل محمداً ﷺ بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين يهدي الله للحق من أجاب إليه، وضرب رسول الله ﷺ بإذنه من أدبر عنه حتى صار إلى الإسلام طوعاً أو كرهاً، ثم توفي رسول الله ﷺ وقد نفذ لأمر الله، ونصح لأمته وقضى الذي عليه، وكان الله قد بيّن ذلك لأهل الإسلام فقال: ﴿**إنّكَ ميتٌ وإنّهم ميتون**﴾[1] وقال: ﴿**وما جَعلنا لبشرٍ من قبلك الخلدَ أفإن متّ فهمُ الخالدون**﴾[2] وقال للمؤمنين: ﴿**وما محمدٌ إلاّ رسولٌ قد خَلَتْ من قبلِهِ الرُّسُل أفإنْ ماتَ أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابِكُم ومَنْ ينقلِبُ على عَقبيه فلن يَضُرّ اللّهَ شيئاً وسيجزي اللّهُ الشاكرين**﴾[3] فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله بالمرصاد حي قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه بحزبه وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله وما جاء به نبيكم، وأن تهتدوا بهديه، وأن تعتصموا بدين الله عز وجل فإن من لم يهده الله ضل وكل من لم يعرفه مبتلى، وكل من لم ينصره مخذول فمن هداه الله كان

---

(١) سورة الزمر آية ٣٠.

(٢) سورة الأنبياء.

(٣) سورة آل عمران آية ١٤٤.

مهدياً، ومن أضله كان ضالاً: ﴿مَنْ يهدِ اللَّهُ فهوَ المهتدِ ومَنْ يُضْلِلْ فلن تجدَ له وليّاً مرشداً﴾[1]، ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقربه ولم يقبل له في الآخرة صرف ولا عدل، وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر الإسلام وعمل به اغتراراً بالله عز وجل وجهالة لأمره، وإجابة للشيطان. وقال جل ثناؤه: ﴿وإذْ قُلنا للملائكةِ اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلاّ إبليسَ كانَ من الجنِّ ففسقَ عَنْ أمر ربه أفتتخذونهُ وذريتهُ أولياء منْ دوني وهم لكم عدو بئسَ للظالمين بدلاً﴾[2] وقال جل ذكره: ﴿إنّ الشّيطَانَ لكم عدوٌ فاتخذوه عدوّاً إنما يدعو حزبهُ ليكونوا من أصحاب السعير﴾[3]، وإني قد أنفذت لكم خالد بن الوليد في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه. ومن أبى أن يقاتله على ذلك ولا يبقي على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنيران، ويقتلهم كل قتلة، ويسبي النساء والذراري، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام. فمن آمن فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله. وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الأذان، فإن أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا فسألوهم بما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم»[4]. وسير هذه الكتب قبل مسير الأمراء ثم خرجت الأمراء معهم العهود كل إلى وجهته والله ناصره.

خبر طليحة

كان طليحة بن خويلد الأسدي رجلاً كاهناً ادعى النبوة في حياة رسول الله ﷺ فتبعه أفاريق من بني إسرائيل، ونزل سميراء من بلاد بني أسد شرقي نجد مما يلي العراق، فبعث رسول الله ﷺ ضرار بن الأزور الأسدي لمقاتلته، فسار إليه، ولما همّ لمناجزته جاءت الأخبار بوفاة رسول الله ﷺ، فاستطار أمر طليحة واجتمعت إليه غطفان وهوازن وطيىء، فرجع ضرار إلى المدينة، وحينئذ

---

(١) سورة الكهف آية ١٧.

(٢) سورة الكهف آية ٥٠.

(٣) سورة فاطر آية ٦.

(٤) ذكر هذا الكتاب الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٦/٣١٧ - ٣١٨، مع اختلاف كثير بالألفاظ.

سيّر أبو بكر خالد بن الوليد لقتال طليحة ومن معه وكان في جيش خالد عدي بن حاتم الطائي، فاستأذن خالداً في أن يتعجل حتى يدعو قومه بني طيء إلى الرجوع لدين الله، فسار إليهم، ودعاهم فأجابوه لذلك، وتركوا طليحة، وانضموا إلى جيش المسلمين ودعا عدي أيضاً من مع طليحة من بني جديلة، فأجابوه، ثم سار خالد حتى التقى بالمرتدين ببزاخة، فقاتلهم قتالاً شديداً ولما رأى طليحة أن لا قبل له بالحرب هرب هو وزوجته على فرسين كان قد أعدهما لذلك ولحق بالشام، فانهزم جيشه. وقد أسلم طليحة بعد ذلك حينما علم بإسلام بني أسد وغطفان، وله ذكر جميل في فتح العراق، ثم اجتمعت قبائل غطفان إلى سلمى بنت مالك بن حذيفة بالحوأب[1]، وكانت سلمى هذه قد سبيت في مدة رسول الله ﷺ وأعتقتها أم المؤمنين عائشة، وقال لها عليه السلام يوماً، وقد دخل عليها وهي في نسوة في بيت عائشة: «**إن إحداكن تستنبح كلاب الحوأب**»[2] فكان فعلها هذا مصداقاً لقوله عليه الصلاة والسلام (عن ابن خلدون) ولما علم بذلك خالد سار إليها وقاتل جيشها، وهي راكبة على جمل قتل دونه نحو مائة رجل ثم قتلت هي أيضاً فانهزم جيشها.

أما بنو عامر فإنهم لما رأوا ما حل بأسد وغطفان أتوا خالداً وقالوا ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله فقبل منهم وبايعهم على أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ويبايعوا على ذلك أبناءهم ونساءهم. ثم طلب من أحدثوا حدثاً في الإسلام، فأتى بهم وجازاهم بمثل ما فعلوا.

أما بنو سليم، فقد كان الفجاءة بن عبديا ليل سار إلى أبي بكر، وطلب منه المعونه ليقاتل أهل الردة، فأعطاه أبو بكر، وأمّره، فلما رجع إلى قومه ارتد وأرسل نجبة بن المثنى ليشن الغارة على المسلمين، فسار إليه طريفة بن حاجز أحد أمراء جيوش الردة وقاتله فقتل نجبة وهرب الفجاءة، فأدرك وأرسل إلى أبي بكر فقتله، ورجعت بني سليم للإسلام.

خبرة مالك بن طليحة

كان رسول الله ﷺ قد أمر على بني تميم ستة أمراء وهم: الزبرقان ابن بدر،

(١) موضع في طريق البصرة (معجم البلدان ٢/٣١٤).

(٢) أخرجه بلفظ قريب أحمد بن حنبل ٦/٥٢، ٩٧.

وقيس بن عاصم، وصفوان بن صفوان، وسبرة بن عمرو، ووكيع بن مالك، ومالك بن نويرة، فلما توفي عليه السلام سير الزكاة إلى أبي بكر صفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر، ومنعها قيس بن عاصم، ومالك بن نويرة، فقام من بقي على إسلامه في وجه من ارتد ومنع الزكاة، وبينما هم على اختلافهم إذ جاءتهم امرأة اسمها سجاح من أرض الجزيرة ثم من بني تغلب، وكانت نصرانية فلما توفي رسول الله ﷺ ادعت النبوة فتبعها كثير من أوباش العرب فقصدت بهم غزو أبي بكر، فلما وصلت بلاد تميم (وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة) أرسلت إلى مالك بن نويرة تطلب موادعته فوادعها وردها عن غزو المدينة، وأغراها على المسلمين من تميم ففروا أمامها أما هي فسارت تريد المدينة حتى بلغت النباج (قرية بالبادية) فاعترضها قوم من تميم فحاربوها وأسروا بعض رجالها ثم تحاجزوا على أن تطلق أسراهم ويطلقوا أسراها، وترجع فلا تجتاز عليهم، فيئست بذلك من الذهاب إلى المدينة وانقلبت تريد اليمامة.

أما بنو تميم، فإنهم راجعوا الإسلام وندموا على ما فعلوا إلا مالك بن نويرة، فإنه ظل متحيراً، واجتمع إليه قومه بالبطاح، فسار إليه خالد بعد أن انتهى من أمر طليحة، فلما علم مالك بمسيره أمر قومه فتفرقوا في المياه، فبعث خالد السرايا في أثرهم، فأتى بكثير منهم أسرى، وبينهم مالك بن نويرة فأمر بقتلهم[1]، وتزوج امرأة مالك، وقد نقم عليه عمر بن الخطاب قتل مالك وتزوج امرأته لأن جماعة شهدوا عنده أن مالكاً كان قد راجع الإسلام، فطلب من أبي بكر أن يقتص منه، فقال أبو بكر: تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد، فإني لا أشيم[2] سيفاً سله الله على الكافرين

خبر مسيلمة

كان بنو حنيفة ممن وفدوا على رسول الله ﷺ في حياته، وفيهم مسيلمة بن

---

(١) إنما لم يأمر خالد بقتلهم، ولكن كانت الليلة باردة فأمر خالد منادياً فنادى دافئوا أسراكم، وهي في لغة كنانة القتل، فظن القوم أنه أراد القتل ولم يرد إلا الدفء فقتلوهم فقتل ضرار بن الأزور مالكاً. وسمع خالد الواعية فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه. (انظر: الكامل في التاريخ ٢/٢٤٢).

(٢) أشيم: أي أغمد.

ثمامة أحد بني عدي بن حنيفة، فلما ورد المدينة جعل يقول إن جُعل لي الأمر من بعده تبعته، فأقبل إليه النبي ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد النبي ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه وقال: **«لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن أتعدى أمر الله فيك، وإن أبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيك ما أريت وهذا ثابت يجيبك عني»**، ثم انصرف، فسأل ابن عباس أبا هريرة عما رآه النبي ﷺ، فقال إن النبي ﷺ قال: **«بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما فأوحى إليَّ في المنام أن انفخهما، فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي، فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة»** (رواه مسلم)[1].

فلما رجع مسيلمة ومن معه إلى منازلهم (وهي اليمامة بين نجد والبحرين كالحجاز بين نجد وتهامة) ادعى مسيلمة النبوة، وأنه أشرك مع محمد في الأمر فاتبعه قومه وكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك، فإني قد أُشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريش قوم لا يعدلون. فكتب إليه رسول الله ﷺ: **«من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى أما بعد.. فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»**. قال الطبري، وذلك بعد منصرف رسول الله ﷺ من حجة الوداع، فلما توفي عليه السلام عقد أبو بكر لواء لعكرمة بن أبي جهل وسيره لقتال مسيلمة وسير على أثره شرحبيل بن حسنة مدداً له، فلم ينتظر عكرمة مدده حتى يكون اجتماعهما أشد على عدوهما بل تعجل ليكون له الفضل خاصة، فتقدم ولاقى جيش مسيلمة، فنكب، ولما علم بذلك أبو بكر غضب عليه ونهاه عن العودة إلى المدينة، وأمره باللحاق إلى اليمن ليكون مع حذيفة وعرفجة على قتال أهل مهرة، فإذا انتهوا ساروا إلى المهاجر بن أبي أمية لقتال جنود الأسود العنسي. وبعث أبو بكر لخالد بن الوليد يأمره بالمسير إلى مسيلمة وأمده بجيش كثيف من المهاجرين والأنصار وأرسل إلى شرحبيل يأمره

---

(١) ورواه أيضاً البخاري في المناقب والمغازي والتعبير، وابن ماجة في الرؤيا، وأحمد ٢٦٣/١ و ٣١٩/٢ و ٨٦/٣.

بانتظار خالد حتى يجتمعا على جنود مسيلمة التي تبلغ عدتها أربعين ألفاً، فلما علم مسيلمة وبنو حنيفة بدنو خالد خرجوا فعسكروا في منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس، فنفر إليهم عدد كثير فتقدم خالد وعلى مقدمته شرحبيل، ولما كان على ليلة من معسكر بني حنيفة التقى بسرية منهم راجعة من بلاد بني تميم وعامر لإدراك ثأر لهم، وعليهم مجاعة بن مرارة من سادات بني حنيفة، فأمر بهم خالد فقتلوا إلا مجاعة فإنه استبقاه لشرفه، ثم سار خالد حتى التقى بجيش المرتدين فتقاتل الفريقان قتالاً شديداً ولما حمي القتال انكشف المسلمون بادىء الأمر حتى وصل المرتدون إلى فسطاط خالد وأرادوا أخذ زوجته، فمنعهم من ذلك مجاعة وقال نعم الحرة هي. ثم تداعى المسلمون وأنزل عليهم سكينته فحمل خالد في الناس حتى رد المشركين إلى أبعد ما كانوا، وتذامر بنو حنيفة وقاتلوا قتالاً شديداً، فعلم خالد أن رحى الحرب تدور على مسيلمة، فطلبه للبراز، فبرز إليه، فلما اشتد عليه الأمر أدبر، وزال أصحابه، فنادى خالد في المسلمين، فحملوا حتى هزموا المرتدين شر هزيمة، فتحصنوا في بستان لمسيلمة كان يسمى حديقة الرحمن، فقال البراء بن مالك أحد شجعان الأنصار ألقوني عليهم في الحديقة، فألقوه عليهم، فقاتل عن الباب حتى فتحه، فدخله المسلمون وأكثروا القتل من بني حنيفة حتى قتل مسيلمة، واشترك في قتله وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب ورجل من الأنصار، فانهزم بنو حنيفة وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

فقال مجاعة لخالد: والله ما جاءك إلا سرعان الناس وإن جماهيرهم لفي الحصون، فهلم أصالحك على قومي، وقد كان خالد التقط من دون الحصون من نساء وصبيان ومال، فقال مجاعة: أصالحك على ما دون النفوس، وانطلق كأنه يشاورهم، فأفرغ السلاح على النساء ووقفهن بالأسوار ثم رجع إليه، وقال أبوا أن يجيزوا ذلك، فنظر خالد إلى الحصون فوجدها ممتلئة بالجيوش والمسلمون قد نهكتهم الحرب وقتل من الأنصار ما ينيف على ثلاثمائة وستين ومن المهاجرين مثلهم ومن التابعين لهم مثلهم أو يزيدون، وقد فشت الجراحات فيمن بقي، فجنح للسلم، فصالحه على الصفراء والبيضاء[1] ونصف السبي والسلاح، وحائط

---

(١) الصفراء الدينار، والبيضاء الدرهم.

ومزرعة من كل قرية، فأبوا، فصالحهم على الربع فصالحوه، وفتحت الحصون فلم يجد بها خالد إلا النساء والمستضعفين فقال لمجاعة خدعتني، فقال قومي، ولم أستطعْ إلا ما صنعت، وبعد هذا الصلح جاءه كتاب من أبي بكر بأمره فيه بقتل كل محتلم، فوفى لهم بصلحه ولم يغدر، ثم أرسل وفداً منهم لأبي بكر بإسلامهم، فلقيهم وسألهم عن أسجاع مسيلمة فقصوها عليه، فقال سبحان الله هذا الكلام ما خرج من إل ولا بسر فأين يذهب بكم عن أحلامكم وردهم إلى قومهم.

خبر البحرين

كانت أرض البحرين مقراً لكثير من قبائل ربيعة منهم عبد القيس ابن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة، ومنهم بنو بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى. وكان أهل البحرين قد وفدوا على رسول الله ﷺ في حياته وأسلموا، فأمّر عليهم المنذر بن ساوى، فلما توفي عليه السلام توفي عقبه المنذر بن ساوى، فارتد أهل البحرين، فأما بكر فتمت على ردتها، وأما عبد القيس فراجعت الإسلام بهمة الجارود بن المعلى العبدي، فإنه جمعهم حينما قالوا لو كان محمد نبياً لم يمت، فقال لهم: أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا. قال: فإن محمداً قد مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأسلموا، وثبتوا على إسلامهم.

فاجتمعت ربيعة بالبحرين على الردة إلا الجارود ومن تبعه، وخرج الحطم بن ضبيعة من بكر بن وائل، فاجتمع إليه كثير من المشركين والمرتدين حتى نزل القطيف وهجر وحصر أصحاب الجارود، فأرسل أبو بكر العلاء بن الحضرمي لأهل البحرين، فلما كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال الحنفي في مسلمة بن حنيفة، وقيس بن عاصم المنقري في قومه، وأتاه كثير من أهل اليمن، فسلك بهم الدهناء حتى إذا كانوا في بحبوحتها «وسطها» نزل وأمرهم بالنزول، فنفرت إبلهم بأصحابها فغموا لذلك غماً شديداً، فقال لهم العلاء: ماذا حل بكم؟ فقالوا: كيف نلام ونحن إن بلغنا غداً لم تحم الشمس حتى نهلك، فقال لن

تراعوا، أنتم المسلمون وفي سبيل الله وأنصار الله، فأبشروا، فوالله لن تخذلوا فلما صلوا الصبح دعا العلاء ودعوا، فلمع الماء فمشوا إليه، فشربوا واغتسلوا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تجمع من كل وجه، فأناخوها وسقوها، ثم أرسل العلاء إلى الجارود يأمره أن ينزل بالحطم مما يليه، وسار وهو فيمن معه حتى نزل عليه مما يلي هجر فاجتمع المشركون إلى الحطم واجتمع المسلمون إلى العلاء، وخندق كل على نفسه، وكانوا يتراوحون القتال فإذا أمسوا رجع كل إلى خندقه حتى إذا كانت ليلة سمع المسلمون فيها ضوضاء في عسكر المشركين، فأرسل العلاء من يستعلم الخبر، فجاء بأنهم سكارى، فبيتهم المسلمون شر بيات حتى هربوا، فمن بين مقتول ومأسور، وقتل الحطم، ثم قصد فللهم دارين (جزيرة في الخليج الفارسي قريبة من سواحل البحرين) فعبر خلفهم المسلمون خوضاً وقاتلوهم هناك فظفروا بهم وأكثروا فيهم القتل، ثم أرسل المسلمون العلاء إلى أبي بكر بهذا الفتح المبين.

خبر عمان

لما أسلم أهل عمان في حياة رسول الله ﷺ ولي عليهم الأخوين جيفر وعبد ابني الجلندي، وكان يسمى الجلندي في الجاهلية: ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي من رؤساء عمان، فلما توفي رسول الله ﷺ ادعى لقيط النبوة، فتبعه كثير من أهل عمان، فخافه ابنا الجلندي، فالتجأ إلى الجبال، وكاتب جيفر أبا بكر، فبعث إليه حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة الأول إلى عمان والثاني إلى مهرة، وكل منهما أمير على صاحبه في عمله، فإذا قاربا عمان كاتبا جيفراً، وأرسل في أثرهما عكرمة بن أبي جهل بعد هزيمته في اليمامة، فلحقهما قبل أن يصلا عمان فلما قاربوها كاتبوا جيفراً، فأتاهم وعسكروا بصحار (عاصمة عمان). أما لقيط فإنه جمع جموعه وعسكر بدبا، فالتقى الفريقان، واقتتلا قتالاً شديداً كاد المسلمون ينهزمون فيه لولا أن منّ الله عليهم بمدد عظيم من بني ناجية، فاستظهروا بهم وهزموا المشركين بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة ثم سبوا الذرية وقسموا الغنيمة وبعثوا إلى أبي بكر بالخمس مع عرفجة، وأقام حذيفة بعمان يسكن الناس. أما عكرمة فسار ومعه جمع من بني ناجية إلى مهرة، ولما وصلها وجد أهلها قسمين مختلفين ولكل قسم رئيس، فكاتب رئيس أحد القسمين فأجابه، وراجع الإسلام، ولم يجب الآخر، فقاتله حتى هزمه.

أخبار الأسود

لما فتحت اليمن في عهد رسول الله ﷺ ولي عليها بازان الفارسي الذي كان عاملاً للأكاسرة على اليمن، ثم دان بالإسلام، وكان مركزه صنعاء، فلما مات قسم عليه السلام عمله، فولى على صنعاء ابنه شهر بن باذان، وعلى مأرب أبا موسى الأشعري. وعلى همدان ـ وكانوا يقيمون شرقي اليمن ـ عامر بن شهر الهمداني وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبي هالة. بنو عك كانوا يقيمون بين زبيد ورمع، وعك وهو ابن عدنان والأشعريون كانوا يقيمون شمالي زبيد وينسبون إلى أشعر بن أدد بن زيد ابن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، وعلى ما بين نجران ورمع وزبيد خالد بن سعيد بن العاص، وعلى نجران عمرو بن حزم، وعلى حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وعلى السكاسك والسكون (وهما قبيلتان من كندة كانا شمالي حضرموت) عكاشة بن ثور، وعلى بني معاوية من كندة المهاجر بن أبي أمية أخا أم المؤمنين أم سلمة، ولم يذهب إلى عمله حتى توفي رسول الله ﷺ لمرض كان به، وكان زياد بن لبيد يقوم بعمله، وعلى الجند يعلى بن أمية، وكان معاذ بن جبل معلماً ينتقل في كل بلد، فقبل وفاة رسول الله ﷺ ثار باليمن رجل من عنس اسمه عبهلة، ولقبه ذو الخمار، وشهرته الأسود، فادعى النبوة، فأجابته مذحج ووثبوا على نجران، فأخرجوا منها عاملها عمرو بن حزم، وأخرجوا عمرو بن سعيد بن العاص، فلحقا بالمدينة، ثم توجه الأسود في سبعمائة من قومه إلى صنعاء، فقتل شهر بن باذان واستولى على المدينة، وتزوج إمرأة شهر، ثم استولى على ما بين صنعاء وحضرموت من الجنوب إلى أعمال الطائف من الشمال إلى البحرين من الشرق، واستفحل أمره، فخرج معاذ بن جبل هارباً، ومرّ بأبي موسى، وهو بمأرب، فخرج معه ولحقا بحضرموت، فنزل معاذ في قبيلة السكاسك، ونزل أبو موسى في قبيلة السكون، وأقام الطاهر بن أبي هالة ببلاد عك، فلما بلغ خبر ذلك إلى رسول الله ﷺ أرسل إلى من باليمن من الأبناء وأبي موسى ومعاذ والطاهر أن يقوموا بقتال الأسود، وقتله إما غيلة أو مصادمة، فقام بذلك من الأبناء فيروز وداذويه واهتموا بقتله وساعدتهم زوجه التي كانت تحت شهر ابن باذان، فقتلوه ليلاً، قتله فيروز، فلما أصبح الصبح نادوا بشعائر

المسلمين، وهو الأذان، فماج الناس بعضهم في بعض، واختطف بعض أصحاب الأسود صبياناً من أبناء المسلمين، وخرجوا من المدينة تاركين فيها كثيراً من صبيانهم، ثم تراسل الفريقان في أن يرد كل ما بيده، وأقام أصحاب الأسود يترددون بين صنعاء وعدن لا يأوون إلى أحد، وتراجع عمال رسول الله ﷺ إلى أعمالهم واتفقوا على أن يصلي معاذ بالناس في صنعاء لقتل عاملها شهر حتى يأتيهم أمر رسول الله ﷺ وبعثوا إلى المدينة بالخبر فوصل البريد وقد توفي رسول الله ﷺ، فكانت هذه أول بشارة أتت أبا بكر.

فلما شاع خبر الوفاة ارتد قيس بن عبد يغوث وكاتب المنهزمين من جنود الأسود، فاجتمعوا إليه وأراد أن يتحيل في قتل كبار الأبناء، وهم فيروز وداذويه وجشنس، فهيأ لهم طعاماً وجمعهم ليغدر بهم، فظفر بداذويه ونجا الآخران، فخرج في أثرهما، فامتنعا بقبيلة خولان، فرجع قيس إلى صنعاء، فاستأثر بها، وعمد إلى عيالات الأبناء فغربهم، وأخرجهم من اليمن في البر والبحر وعرضهم للنهب، فلما علم بذلك فيروز هم بحربه، واستعد بني عقيل بن ربيعة وعك، فساروا إليه، وستخلصوا عيالات الأبناء التي سيرها قيس، وقتلوا من معها من الرجال، ثم توجهوا إلى فيروز، فقاتل بهم قيساً ورجاله حتى هزموهم وحينذاك أتاهم المهاجر بن أبي أمية الذي عقد له أبو بكر لواء وسيره لقتال جنود الأسود ومعاونة الأبناء، وجاء على أثره عكرمة بن أبي جهل بعد أن انتهى من عمان ومهرة، فساعدا الأبناء على قتال جنود قيس بن عبد يغوث حتى انهزموا وأسروا قيساً وعمرو بن معد يكرب الزبيدي الذي كان ارتد وتبع الأسود، فسيراهما إلى أبي بكر، فقال أبو بكر: يا قيس قتلت عباد الله واتخذت المرتدين وليجة من دون المؤمنين، فأنكر قيس أن يكون قارف من أمر داذويه شيئاً، ولم يكن هناك دليل ظاهر على قتله لأن القتل كان خلسة فتجافى عن دمه، وقال لعمرو بن معد يكرب أما تستحي أنك كل مهزوم أو مأسور لو نصرت هذا الدين لرفعك الله، فقال لا جرم لأقبلن ولا أعود. ورجعا إلى عشائرهما مؤمنين، ثم تتبع المهاجر بن أبي أمية بقية جنود الأسود بكل مكان وقتلهم بكل سبيل حتى لم تعد لهم قائمة، وكانت مدة الأسود إلى أن هلك قريباً من أربعة أشهر.

أخبار كندة

كانت كندة قد ارتدت في عهد الأسود بسبب ما وقع بينهم وبين زياد في أمر فريضة من فرائض الصدقة أطلقها بعض بني عمرو بن معاوية من كندة بعد أن وقع عليهم ميسم الصدقة غلطاً فقاتلهم زياد وهزمهم فاتقف بنو معاوية من كندة على منع الصدقة إلا شرحبيل بن السمط وابنه فإنهما قالا لبني معاوية إنه لقبيح بالأحرار التنقل. إن الكرام ليلزمون الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا إلى أوضح منها مخافة العار، فكيف الإنتقال من الأمر الحسن الجميل والحق إلى الباطل القبيح اللهم إنا لا نمالىء قومنا على ذلك وانتقلا ونزلا مع زياد، وقالا له: بيِّت القوم فإن لم تفعل خشينا أن يتفرق القوم عنا فطرقهم في محاجرهم فأصاب ملوكهم فقتلهم وهرب من قومهم من أطاق الهرب، وعاد المسلمون بالغنائم والسبي، فمروا على بني الحارث بن معاوية في محاجرهم، وفيهم الأشعث بن قيس، فنزل واستخلص السبي منهم، فكتب زياد إن المهاجر يستحثه، فاستخلف على جنده عكرمة وتعجل هو في سرعان الناس وقدم على زياد، فالتقوا بالأعداء، فانهزم بنو الحارث وتحصنوا بالنجير (وهو حصن لهم)، فحصرهم المسلمون، ولما اشتد عليهم الحصار خرجوا فقاتلوا قتالاً لم يغنهم شيئاً، فعادوا إلى الحصن، ثم أرسل الأشعث في طلب الصلح على تسليم الحصن بمن فيه مشترطاً الأمان لتسعة نفر من الرؤساء، وكتب بذلك كتاباً ولكنه نسي نفسه، فدخل المسلمون الحصن، وقتلوا المقاتلة وسبوا وغنموا، ثم عرضوا من أمنوا فإذا الأشعث ليس فيهم، فأراد المهاجر قتله، ولكن أشار عليه أصحابه أن يرسله إلى أبي بكر ليرى فيه رأيه، فأرسله إليه، فعفا عنه أبو بكر رضي الله عنه، وهو ممن أبلى بلاء حسناً في فتح العراق.

[الخلاصة]

وإلى هنا انتهت أخبار أهل الردة، ومنها يفهم المسلمون الذين يريدون الإقتداء بسلفهم الصالح أن المؤمن لا ينبغي أن يهن مهما كثرت أعداؤه لأن المسلمين لا يغلبون من قلة ولا يخذلون إلا من اتباعهم الهوى وحيادهم عن الصراط السوي. هذا أبو بكر أول خليفة للمسلمين كان العرب كلهم أعداؤه،

فصار هو ومن معه كالشعرة البيضاء في الثور الأدهم، فلم يعقه ذلك من إعزاز دين الله وقتاله من كفر بالله بمن معه من المسلمين بل وثق بوعد الله حيث قال: ﴿إِنْ تنصروا اللَّهَ ينصركُم ويثبِّتْ أقدامَكُمْ﴾[1] فجازاه الله على ذلك بالنصر العظيم والفتح المبين، ودانت له أمم العرب، فهكذا يكون الإسلام والإيمان.

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

(١) سورة محمد آية ٧.

الفتوحات الإسلامية

أمر العراق

لما انتهى أبو بكر رضي الله عنه من حروب أهل الردة جمع العرب كلها للإسلام وألف الله الكلمة، وجه همته لتعميم عدل الإسلام ومساواته بين الأمم الأخرى التي كان ملوكها يعتقدون في أنفسهم أنهم أرقى درجة من رعيتهم، فتصوروهم عبيداً لهم ليس لهم في نفسهم شيء فيسومونهم الخسف ويعاملونهم بالجور والظلم، وكانت الممالك العظمى المجاورة للإسلام إذ ذاك مملكة الفرس في الشرق، ومملكة الروم في الشمال، فابتدأ بأمر الفرس وأول ما حصل بين المسلمين وبين هذه الدولة العظمى كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز يدعوه إلى الإسلام، فمزقه كسرى استكباراً، وهذا يدلك على مقدار الجبروت والكبرياء اللذين كانا شعاراً للملوك إذا ذاك، وجاء الدين الحنيفي يهدمهما، وبلغ من استعظام أبرويز لهذا الكتاب أن أرسل لعامله باذان على اليمن أن يبعث إلى رسول الله ﷺ برجلين جلدين يأتيان به، فتوجها كما أمر، فلما وصل الرجلان إلى المدينة كلمهما رسول الله ﷺ وقال لهما في هذا اليوم قتل أبرويز قتله إبنه وكان الأمر كما أخبر عليه السلام فإن ابنه شيرويه ثار به بمساعدة كبار الفرس، فقتله واستولى على ملك فارس، فلما علم الرجلان صدق رسول الله ﷺ أسلما وبعث شيرويه إلى باذان أن لا يتعرض للنبي عليه الصلاة والسلام، وفي عهده عليه السلام فتحت اليمن، وأسلم باذان فولاه عليه السلام عليها، فكانت أول بلاد تحت حماية الفرس انضمت للإسلام، ثم انضم إليه أيضاً البحرين وعمان وكانتا تحت حماية الفرس أيضاً، فلما توفي رسول الله ﷺ، وانتهى أبو بكر من حروب أهل الردة انتدب سيف الله خالد بن الوليد ليكون أول من يضع أساس الدين القويم

بالبلاد الفارسية، وذلك في بدء المحرم من السنة الثانية عشرة من الهجرة وأمره أن يبدأ بالأبلة[1] وأمده بالقعقاع بن عمرو، وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس من شمال العراق، وأمره أن يبدأ بالمضيح[2] وأمده بعبد يغوث الحميري، وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة أن لا يغزون معهما مرتد لأن رأيه رضي الله عنه كان لا يستعان بمن ارتد على غزو أبداً.

وقعة الأبلة.

فسار خالد بن الوليد حتى قارب الأبلة فقسم جيشه ثلاث فرق على الأولى المثنى بن حارثة الشيباني، وعلى الثانية عدي بن حاتم الطائي، وجعل الثالثة تحت إمرته، وسير الفريقين قبله وواعدهما الحفير[3] وكان صاحب هذا الثغر عظيماً من عظماء الفرس إسمه هرمز، وكان مبغضاً عند العرب لكثرة غزوه لهم، فكلهم ناقم عليه، ولما سمع بخبر خالد، وأنه وعد طلائعه الحفير سبقه إليه، فمال خالد بالناس إلى كاظمة، فسبقه هرمز إليها، فنزل جيش المسلمين على غير الماء، فقال خالد جالدوهم على الماء، فإن الله جاعله لأصبر الفريقين، وتقدم هو وسط الصف يطلب البراز راجلاً فبرز إليه هرمز، ونزل عن فرسه، فاحتضنه خالد، فلما رأى ذلك الفرس أرادوا الغدر بخالد وهجموا عليه فلم يمنعه ذلك عن قتله، ولما رأى ذلك القعقاع حمل بجيش المسلمين، فأزال الفرس عن خالد وحمي القتال، فانهزم المشركون، وهذه أول موقعة بين المسلمين والفرس ثم أرسل خالد البشارة، وخمس الغنيمة إلى أبي بكر بعد أن قسّم أربعة أخماسها على المقاتلين للراجل ثلث الفارس، وأرسل المثنى بن حارثة في أثر المنهزمين، ولم يتعرضوا للفلاحين بأذى، كما أوصاهم بذلك أبو بكر، ولما وصل خبر هذه الهزيمة إلى ملك الفرس واسمه أزدشير ومقامه بالمدائن[4] أرسل إلى المسلمين جيشاً آخر

---

(١) الأبلة: ثغر من ثغور الفرس على الخليج الفارسي عند مصب دجلة، «م».

(٢) المضيح: قرية على الفرات شمال العراق، «م».

(٣) الحفير: موضع على طريق السائر من مكة إلى البصرة وهو قريب من الأبلة، «م».

(٤) المدائن، هي مدائن كانت للأكاسرة على نهر دجلة جنوبي بغداد، وهي شرقية وغربية، وكان في الشرقية إيوان كسرى الشهير «م».

يقوده عظيم من عظماء الفرس إسمه قارن فجمع المنهزمين، ورجع بهم حتى وصل الثني[1].

وقعة الثني

فنزل به فسار إليه خالد، ولما التقى الجيشان خرج قارن يطلب البراز ليدرك ثأر هرمز، فبرز إليه فارس مسلم فقتله، وعندئذ حمل جمع المسلمين على جمع المشركين، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة سوى من غرق منهم في النهر، ثم أخذ خالد الجزية من الفلاحين وصيرهم ذمة وأرسل بالفتح والخمس إلى أبي بكر.

أما ملك الفرس فإنه سير إلى المسلمين جيشاً آخر يقوده الأندر زغز وفي أثره آخر يقوده جاذويه، فعسكر الجيشان كلاهما في الولجة.

وقعة الولجة

فسار خالد إليهما وقاتلهما المسلمون قتالاً شديداً حتى هزم عسكر المشركين، ومات القائد الأندر زغز في هزيمته وأصاب خالد أبناء من بكر ابن وائل فقتلهم، فغضب لهم قومهم من نصارى بكر، فاجتمعوا بالليس، وكاتبوا ملك الفرس ليمدهم بجيش يساعدهم على قتال المسلمين، فكتب أزدشير إلى بهمن جاذويه المنهزم من الولجة يأمره بأن يسير إلى نصارى بكر ليكون معهم على قتال المسلمين، فلما جاءته الرسالة سير أمامه جابان، وذهب هو إلى أزدشير ليعلم الأخبار ويستشيره، فوجده مريضاً فتوقف هناك.

وقعة الليس

وأما جابان فإنه وصل إلى جيش البكريين وعسكر معهم بالليس[2]، فأقبل إليهم خالد بكتيبة وتوسط الميدان طالباً البراز فبرز إليه رئيس من رؤساء بكر، فقتله ثم حمل المسلمون على الأعاجم، فثبت هؤلاء كثيراً لتوقعهم قدوم بهمن، وثبت المسلمون لتكون كلمة الله هي العليا، فما كان إلا ضحوة نهار حتى ولى الفرس الأدبار بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة، فقسم خالد الغنائم وأرسل بالفتح والخمس

---

(١) الثني: منعطف النهر قرب البصرة، «م».

(٢) الليس: موضع على الفرات من قرى الأنبار، «م».

إلى أبي بكر، وكانت هذه الموقعة في صفر من السنة الثانية عشرة.

فتح الحيرة

ثم سار قاصداً الحيرة[1]، وكان خالد يسير بحراً في الفرات فخرج إليه مرزبان الحيرة وهو الأزاذبة، وعسكر بظاهرها، وأرسل ابنه فقطع الماء عن سفن المسلمين، فبقيت على الأرض[2]، فسار خالد على خيل نحو ابن الأزاذبة فقتله على فرات بادقلي، ثم سار نحو الحيرة، فهرب مرزبانها الأزاذبة، فحاصر خالد قصورها وهي القصر الأبيض وقصر الغريين وقصر بن مازن، وقصر بن بقيلة ودعا أمراءها إلى الإسلام، وأجلهم يوماً وليلة، فأبوا، وافتتح المسلمون الديور، فصاح القسيسون والرهبان بأهل القصور يطلبون منهم مصالحة المسلمين، فنادى أمراء القصور قد قبلنا واحدة من ثلاث الإسلام أو الجزية أو المحاربة، فكف عنهم المسلمون ثم جاء الأمراء إلى خالد يتقدمهم ويتكلم عنهم عمر بن عبد المسيح، فقال له خالد: أسِلْمٌ أنت أم حرب؟ قال: بل سلم، فقال خالد: ما هذه القصور؟ قال: بنيناها للسفيه نحبسه فيها حتى ينهاه الحليم، فصالحهم خالد على الجزية، وقدرت بمائة ألف وتسعين ألفاً، وأهدوا له هدايا على عادتهم مع ملوك الفرس، فأرسل خالد بالفتح والهدايا إلى أبي بكر فقبل الهدايا وعدها من الجزية، وأمر خالداً أن يعدها منها، فهكذا الدين دين الإسلام لم يرض خليفتنا الأول أن يأخذ شيئاً كانت الرعية تدفعه لملوكها ملاطفة بل لا يؤخذ منهم إلا ما فرض عليهم.

ما بعد الحيرة

فلما رأى دهاقين ما بعد الحيرة فعل خالد صالحوه على ما يلي: الحيرة من الفيلاليج إلى هرمز جرد على ألف ألف سوى جباية كسرى ثم أرسل خالد أمراءه فمخروا ما وراء ذلك إلى شاطيء دجلة، ثم كتب إلى ملوك الفرس كتاباً هذه صورته:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أما بعد.. فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم، ولو لم نفعل ذلك كان شراً لكم، فادخلوا في أمرنا ندعكم

(١) الحيرة: هي عاصمة ملوك العرب من قبل الفرس وهي غربي الفرات على قرب من الكوفة، «م».
(٢) كانوا يقطعون الماء عن الفرات بإرساله في الترع المتفرعة منه، «م».

وأرضكم ونجزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

وكتب إلى المرازبة كتاباً هذه صورته:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ «أما بعد.. فالحمد لله الذي فض حدتكم وفرق كلمتكم وجفل حرمكم وكسر شوكتكم، فأسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا في الذمة وأدوا الجزية، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر» وفي ذلك الوقت دهى الفرس أمر عظيم لا يزيدهم إلا وهناً ولا يزيد المسلمين إلا قوة وهو اختلافاتهم الداخلية بعد موت ملكهم أزدشير وعدم وجود من يولى من بيت كسرى، فلما وصلتهم كتب خالد اتفق نساء كسرى على تولية أحد أمراء فارس وهو الفرخزاد بن البندوان حتى يعثروا على صالح للملك من بيت كسرى.

فتح الأنبار

أما خالد فإنه سار من الحيرة قاصداً الأنبار[1] وكان على جيشها شيرزاد صاحب ساباط فأنشب معهم المسلمون القتال، ولما رأى شيرزاد ما لا قبل له به طلب الصلح على أمر لم يرضَه خالد، فرد رسوله ونحر الضعاف من إبل الجيش ورماها في خندق المشركين، وعدى إليهم، فلما رأى ذلك شيرزاد صالح خالداً على ما أراد فقبل منه خالد وسيره إلى مأمنه فلحق ببهمن.

فتح عين التمر

ثم سافر خالد قاصداً عين التمر[2] بعد أن استخلف عن الأنبار الزبرقان بن بدر، فوصل إلى عين التمر وبها جمع عظيم من الفرس عليهم بهرام بن بهرام جوبين، ومعهم عدد عظيم من العرب من التمر وتغلب الذين يقيمون بتلك الجهات تحت حكم الأكاسرة، فجعل الفرس في مقدمة العرب لأنهم أدرى بقتال العرب، فحمل خالد على رئيسهم وهو يسوي صفوفه فأسره، فانهزم قومه من غير قتال، ولما رأى ذلك بهرام هرب هو وجيشه أيضاً وترك الحصن، فتحصن به المنهزمون واستأمنوا لخالد، فلم يؤمنهم ثم بعث بالخمس والبشارة إلى أبي بكر.

(١) الأنبار: مدينة على شاطىء الفرات شمال الكوفة، «م».

(٢) عين التمر: بلد في برية العراق على ثلاثة مراحل من الأنبار، «م».

فتح دومة الجندل

ثم سار من عين التمر قاصداً دومة الجندل ليعين عياض بن غنم على فتحها وكان رسول الله ﷺ وآله قد أرسل خالد بن الوليد إلى دومة الجندل في حياته وكان بها أكيدر بن عبد الملك، فأصابه خالد في ليلة مقمرة، فأسره وجاء به إلى رسول الله ﷺ فحقن دمه وصالحه على الجزية ورده إلى قريته، فلما كان في عهد أبي بكر أرسل عياض ابن غنم لفتح العراق من أعلاه، فاجتمع عليه وهو بناحية دومة الجندل كثير من نصارى العرب، فأرسل إليه خالد بن الوليد كتاباً يستحثه فيه لمساعدته، فصادفه الكتاب وهو بعين التمر، فأقبل حتى جعل دومة بينه وبين عياض، فخرج الجودي الذي كان يشارك أكيدرا في إمارة دومة إلى حرب خالد، وأرسل فرقة تقاتل عياضاً، فهزم كل من القائدين من يليه وفتح الحصن عنوة وأقام به خالد. أما أكيدرا فإنه قد فارق الجودي لأنه لم يتبع ما أشار عليه به من عدم قتال خالد، فأرسل خالد وراءه من قبض عليه وقتله لأنه كان نقض ما عاهد عنه رسول الله ﷺ من إعطاء الجزية.

وقعة الحصيد والخنافس

أما عرب الجزيرة فإنهم ثارت حميتهم لمن قتل من العرب بعين التمر، فكاتبوا الفرس يطلبون منهم إرسال الجيوش لتكون لهم عوناً، فخرج من الفرس عظيمان يريدان الأنبار وانتهيا إلى الحصيد والخنافس[1]، فسمع بالخبر القعقاع خليفة خالد على الحيرة فأرسل إليهما سريتين حالتا بينهما وبين الريف، ثم قدم خالد راجعاً إلى الحيرة عندما بلغه الخبر، فسير القعقاع وأبا ليلى بن فدكي إلى لقاء جمع الفرس فسارا حتى التقيا بهم، فقتل من الفرس مقتلة عظيمة وقتل القائدان وغنم المسلمون ما في الحصيد، وانهزمت الأعاجم إلى الخنافس وبها المهبوذان من الأساورة، فسار أبو ليلى مقتفياً آثارهم حتى هزم المهبوذان إلى المضيح، وكان به بعض عرب الجزيرة، فكتب خالد إلى القعقاع وأبي ليلى أن يوافياه على المضيح في ساعة عينها لهما لقتال من به من عرب الجزيرة، ووافاها

---

(١) موضعان قرب الأنبار «م».

هو في جيشه، فلقاه بها وقاتلوا العرب وهزموهم شر هزيمة، ثم توجه خالد إلى بجير التغلبي وهو متجمع في جيشه بالثني، فبيته وهزمه ثم سار إلى البشر وقد تجمع به عسكر عربي ضخم فبيتهم خالد بغارة شعواء حتى لم يفلت منهم أحداً.

ثم أرسل بالفتح والأخماس إلى أبي بكر.

وقعة الفراض

وسار إلى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة، وكان الحر شديداً والشهر رمضان من السنة الثانية عشرة، فأفطر بها هو والمسلمون وكان بها جمع عظيم من الفرس والروم والعرب اتفقوا جميعاً على حرب المسلمين، وعبروا نهر الفرات فقاتلهم خالد، وقاتل المشركون قتالاً شديداً لكنهم لم يلبثوا أن انهزموا: ﴿أولئك حِزْبُ الشيطان ألا إنَّ حِزْب الشيطانِ هُمُ الخاسِرُونَ﴾[1]، ثم أمر خالد بالرجوع إلى الحيرة، وتخلف هو مظهراً أنه في الساقة، ويقال إنه توجه إلى مكة، فحج ولحق ساقة الجيش قبل أن تدخل الحيرة وهذا غريب جداً لبعد المسافة.

صرف خالد إلى الشام

وفي ذلك الوقت صرف أبو بكر خالد بن الوليد عن حرب العراق وسيره إلى الشام مدداً لجيوش المسلمين هناك، فاستخلف على جيش العراق المثنى بن حارثة الشيباني، فأقام بالحيرة وأذكى العيون ووضع المسلحة وكان ملك فارس بعد رحيل خالد شهريريان بن أزدشير، فوجه إلى المثنى جيشاً عظيماً يقوده هرمز.

وقعة بابل

فخرج إليه المثنى من الحيرة حتى أتى بابل[2] فأقام بها وهناك لاقاه هرمز في جيش الفرس فقاتله جيش المسلمين قتالاً شديداً، حتى هزم وبعد هذه الهزيمة مات شهريران، وكثرت الإختلافات الداخلية في مملكة الفرس، فشغلوا عن المسلمين، وأبطأ خبر أبي بكر على المثنى، فاستخلف على جيشه بشير بن الخصاصية وتوجه إلى المدينة ليستأذن أبا بكر في الإستعانة بمن حسنت توبته من

---

(١) سورة المجادلة آية ١٩.

(٢) بابل: بلدة قديمة شرقي الفرات أمامها مدينة الحلة الآن، «م».

المرتدين، فوجده مريضاً، فاستحضر أبو بكر عمر بن الخطاب، وقال له إني لأرجو أن أموت يومي هذا، فإن مت فلا تمشين حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم، فقد رأيتني وقت وفاة رسول الله ﷺ وما صنعته، وما أصيب الخلق بمثله وإذا فتح الله على أهل الشام فاردد أهل العراق إلى عراقهم، فإنهم أهله وولاة أمره وأهل الجرأة عليهم.

هذا ما انتهى إليه أمر فارس في عهد الصديق رضي الله عنه، تقلص ظل ملك الفرس عن كل الأراضي الخصبة التي في غربي الفرات، وهو ما يعبر عنه بريف العراق، فصار حد مملكة فارس هو نهر الفرات.

بدء أمر الروم

مملكة الروم هي المملكة الثانية العظمى التي كانت تحد البلاد العربية من الشمال وأول ما كان بينها وبين المسلمين كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام (والكتاب وحديث أبي سفيان عنه مذكوران في كتاب نور اليقين صفحة ٢١١ وما بعدها من الطبعة الثانية)، ثم كتب ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان بالبلقاء من أرض الشام، وعامل قيصر على العرب يدعوه إلى الإسلام، فأدركته العزة بالإثم، فأراد أن يغزو رسول الله ﷺ فأتاه أمر من قيصر ينهاه عن ذلك. وفي السنة الثامنة من الهجرة جهز عليه السلام جيشاً إلى الشام تحت إمرة زيد بن حارثة وهي غزوة مؤتة، فجمع لهم الروم جمعاً كثيراً مائة ألف أو يزيدون، فاستشهد زيد وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، واستلم سيف الله خالد إمرة الجيش، فخلصه من الهلاك. والكلام في هذه الغزوة مستوفى في نور اليقين.

وفي السنة التاسعة تجهز رسول الله ﷺ لغزو الروم، فبلغ تبوك، وأتاه صاحب أيلة يوحنا ابن رؤبة، وصاحب جرباء وأذرح، وأعطوا الجزية، فلما بلغ هرقل ما فعله يوحنا أمر بقتله وصلبه عند قريته. وفي السنة التي توفي بها رسول الله ﷺ جهز سرية تحت إمرة أسامة بن زيد بن حارثة لتتوجه إلى أبنى وقضاعة للقصاص من قتلة أبيه، فتوفي عليه السلام، ولم يخرج أسامة، فلما استخلف أبو بكر جهز السرية، فسار أسامة حتى وصل أبنى وأوقع بقبائل من

قضاعة، ثم رجع فائزاً: فلما عقد أبو بكر الألوية في ذي القصة عقد منها لـواء خـالد بن سعيـد بن العاص ووجهـه إلى مشارف الشـام ثم أمره أن يكـون ردءاً للمسلمين بتيماء لا يفارقها إلا بأمره، ولا يقاتل إلا من قاتله، فبلغ خبره هرقل ملك الروم، فجهز إليه جيشاً من العرب التابعين للروم من بهراء وسليح وكلب ولخم وجذام وغسان، فسار إليهم خالد بن سعيد بن العاص فلقيهم على منازلهم فافترقوا وأرسل هو لأبي بكر بالخبر، فكتب إليه يأمره بالإقدام فتقدم ولقيه بطريق رومي إسمه ماهان فهزمه خالد، وكتب إلى أبي بكر يستمده فعند ذلك اهتم رضي الله عنه بأمر الشام، وكان قد ورد إليه أوائل مستنفري اليمن وقدم عكرمة بن أبي جهل فيمن معه من تهامة والبحرين وأرسل إلى عمرو بن العاص، وكان والياً على صدقات سعد وهذيم من قضاعة كان أبو بكر سيره إليها يوم عقد الألوية في ذي القصة، وقد كان رسول الله ﷺ وعده ولايتها، فكتب إليه أبو بكر: «إني كنت رددتك إلى العمل الذي ولاك رسول الله ﷺ مرة ووعدك به أخرى إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ وقد وليته وقد أحببت أن أفرغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك»، فكتب إليه عمرو: «إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد رسول الله الرامي بها والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به». فأمره فقدم عليه، فجهز أبو بكر أربعة جيوش على أحدها عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين (كورة بالشام في جنوبه)، وعلى ثانيهما شرحبيل بن حسنة، وكان قدم عليه من العراق ووجهه إلى الأردن (كورة بالشام سميت باسم نهر هناك يبتدىء من بحيرة طبرية وينتهي بالبحيرة الميتة)، وعلى الثالث يزيد بن أبي سفيان ووجهه إلى البلقاء[1] وأتبعه بأخيه معاوية وعلى الرابع أمين هـذه الأمة أبـو عبيدة عـامر بن الجراح، ووجهه إلى حمص، فسارت الأمراء على بركة الله، وكان أبو بكر يودعهم ماشياً ويوصيهم بما فيه صلاح دنياهم وأخراهم. ومما يؤثر عنه رضي الله عنه وصيته العظيمة ليزيد، وقد أحببت أيرادها برمتها لما فيها من النصائح التي يلزم كل أمير جيش اتباعها وها هي:

«إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك فعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل ما يرى من

(١) البلقاء: بلد بالشام.

ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله، وقد وليتك عمل خالد[1] فإياك وعيبة الجاهلية، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصل الصلاة لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون، ولا تريهم فيروا خللك ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك كعلانيتك، فيختلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبلك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار، وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل والنهار، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلحن فيها، ولا تسرع إليها، ولا تخذلها مدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكرك، فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العباثين، وجالس أهل الصدق والوفاء وأصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم، وما حبسوا أنفسهم له».

ولم تزل الجيوش سائرة حتى وصلت الشام ،فنزل عمرو بن العاص العربة من فلسطين، ونزل شرحبيل الأردن، ونزل يزيد البلقاء، ونزل أبو عبيدة الجابية، فلما بلغ ذلك هرقل ملك الروم قال لقومه: أرى أن تصالحوا المسلمين، فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب إليكم من أن يغلبوكم على بلاد الشام ونصف بلاد الروم، فرفضوا رأيه حتى نزل حمص[2] وأمر بجمع الجيوش فاجتمع من الروم عدد عظيم فوجه لكل أمير جيشاً

(١) هو ابن سعيد بن العاص الذي كان أبو بكر سيره إلى الشام أولاً، «م».

(٢) حمص: مدينة شامية في الشرق من نهر العاصي وعلى بعد قليل منه، «م».

يفوق عدة من معه، فأشار عمرو بن العاص على الأمراء بالإجتماع فأرسلوا إلى أبي بكر في ذلك فأشار عليهم بمثل رأي عمرو قال: «إن مثلكم لا يؤتى من قلة وإنما يؤتون من الذنوب، فاحترسوا منها»

وقعة اليرموك

فاجتمعوا باليرموك[1] وكل واحد من الأمراء أمير على جيشه والروم أمامهم وبين الفريقين خندق فكان الروم يقاتلون باختيارهم، وإن شاءوا احتجزوا بخنادقهم. وأقام الفريقان على ذلك صفراً والربيعين من السنة الثالثة عشرة من الهجرة، فأرسل الأمراء إلى أبي بكر يستمدونه، فكتب إلى خالد بن الوليد أمير جند العراق يأمره أن يستخلف على جنده بعد أن يأخذ معه نصفه ويتوجه إلى الشام مدداً لأمرائه، فسار خالد ينسف الأرض نسفاً حتى وصل إلى المسلمين في ربيع الآخر، وصادف وصوله ماهان بجيش مدداً للروم، فتولى خالد قتاله وقاتل كل أمير من بإزائه متساندين، فرأى خالد أن هذا القتال لا يجدي نفعاً ما دامت كل فرقة من الجيش لها أمير فجمع الأمراء وخطبهم، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه البغي ولا الفخر، اخلصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية، وأنتم متساندون فإن هذا لا يحل ولا ينبغي، وإن من ورائكم من لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا بما لم تؤمروا فيه بما ترون أنه رأي من واليكم ومحبته»

قالوا: هات فما الرأي؟ فأشار بأن يؤمر على الجيش كله أمير واحد، ويتناوبوا الإمارة حتى يؤمر هو في اليوم الأول، فقبلوا مشورته، وأمروه، فخرج رضي الله عنه في تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك، وليس تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس[2]، فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وأقام فيها عمراً وشرحبيلاً، وجعل الميسرة كراديس وأقام فيها يزيد، وجعل على كل كردوس رجلاً من الشجعان، وكان عدد الكراديس ستة وثلاثين،

---

(١) اليرموك: هو واد في الجنوب الشرقي من الشام، «م».

(٢) الكراديس: الفرق.

كل كردوس ألف رجل، ثم أمر القعقاع بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل أن ينشبا القتال، فأنشباه، والتحم الناس وتطارد الفرسان وأظهر خالد عجائب الشجاعة والحمية الإسلامية، ثم إن الروم حملوا حملة أزالوا بها المسلمين عن مواقفهم، فنهض خالد بالقلب حتى حال بين خيل المشركين، ورجلهم، فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة، فأفرج لهم المسلمون واشتدوا على الرجالة فهزموهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً لا سيما أناساً منهم قد اقترنوا في السلاسل لئلا يفروا، وقاتل نساء المسلمين في ذلك اليوم قتالاً شديداً، وأبلين بلاء حسناً، وممن أبلى في ذلك اليوم بلاء حسناً أبو سفيان بن حرب بسعيه وتحريضه، وانتهت هذه الموقعة بهزيمة الروم شر هزيمة وفي أثنائها جاء بريد المدينة بموت الصديق وخلافة عمر بن الخطاب، وتولية أبي عبيدة رئاسة الجيوش، فلم يبلغ هذا الخبر الجيش إلا بعد أن انقضت الموقعة.

وفاة الصديق

لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة حُمّ أبو بكر، فلما اشتد عليه المرض جمع كبار الصحابة، فاستشارهم في العهد لعمر بن الخطاب، فكلهم قال خيراً، فدعا عثمان بن عفان وأملى عليه:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ «هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد ﷺ عند آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويوقن فيها الفاجر، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً، فإن صبر وعدل، فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت لكل امرىء ما اكتسب، ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[1]»[2]، ثم أمر بالعهد فقرىء على المسلمين، وقد أطل عليهم، فقال لهم: أترضون من

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٢٧.

(٢) أورد ابن قتيبة الكتاب الذي أملاه أبو بكر على عثمان بن عفان رضي الله عنهما كالتالي «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة آخر عهده في الدنيا نازحاً عنها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن تروه عدل فيكم، فذلك ظني به ورجائي فيه، وإن بدل وغير فالخير أردت، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» (الإمامة والسياسية ١/ ٢٤).

استخلفت عليكم، فإني ما استخلفت عليكم ذا قربة، وإني قد استخلفت عليكم عمر، فاسمعوا له وأطيعوا فإني والله ما آلوت من جهد الرأي، فقالوا سمعنا وأطعنا.

ثم نادى عمر، فقال له: «إني قد استخلفتك على أصحاب رسول الله ﷺ يا عمر إن لله حقاً بالليل، ولا يقبله في النهار، وحقاً في النهار لا يقبله في الليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة. ألم تر يا عمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا حق أن يكون ثقيلاً؟ ألم تر يا عمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل، وخفته عليهم. وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا باطل أن يكون خفيفاً؟ ألم تر يا عمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغباً راهباً لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه؟ ألم تر يا عمر إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم، فإذا ذكرتها قلت إني لأرجو أن لا أكون منهم، وإنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من سيء، فإذا ذكرتها قلت أين عملي من أعمالهم فإن حفظت وصيتي فلا يكون غائب أحب إليك من حاضر من الموت ولست بمعجزة».

ثم توفي رضي الله عنه لثمان بقين من جمادى الآخرة فكانت خلافته رضي الله عنه سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال توجت بأعماله الجليلة وسيرته الحميدة، فبه كان لمُّ شعث المسلمين بعد فرقتهم برده الكثير من العرب وهو الذي ابتدأ تجريد الجيوش على الدولتين العظيمتين المجاورتين لبلاد الإسلام لدعوتها إلى الدين القويم أو الدخول تحت حكمه، حتى يكون عدله ومساواته عامين لجميع الأمم الذين رزئوا بملوك يعدون أنفسهم آلهة ويعدون رعيتهم عبيداً ويسيرون وراء لذاتهم وشهواتهم مهما عاد من ضررها على الرعية ففازت جيوشه بالنصر في جميع مواقعها وكان يقضي له عمر بن الخطاب وأمينه أبو عبيدة، ويكتب له عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت.

وكانت ولايات الإسلام في عهده (مكة) وواليها عتاب بن أسيد الذي ولاه رسول الله ﷺ عليها عقب الفتح. (والطائف) وعليها عثمان بن أبي الثقفي. (وصنعاء) وعليها المهاجر بن أبي أمية. (وحضرموت) وعليها زياد بن لبيد.

(وخولان) وهي قبيلة عظيمة باليمن كانت تسكن في جباله الشرقية، وكان عليهم يعلى بن أمية. (وزبيد) وعليها أبو موسى الأشعري، (ونجران) وهو موضع شمال اليمن يقيم به قبائل من بني الحارث بن كعب بن علة من مذحج، وبني ذهل بن مزيقيا من الأزد، وكانت رياسة نجران حين النبوة في بني الحارث بن كعب ليزيد بن عبد المدان بن الديان، ووفد أخوه حجر ابن عبد المدان على النبي ﷺ على يد خالد بن الوليد. ووالي نجران في عهد أبي بكر جرير بن عبد الله البجلي. (والبحرين) وهي شواطيء بلاد العرب المطلة على الخليج الفارسي وواليها العلاء بن الحضرمي. (وجرش) وهو مخلاف باليمن. والمخلاف الكورة وواليها عبد الله بن ثور. (ودومة الجندل) وعليها عياض بن غنم، وأمير جند العراق المثنى ابن حارثة الشيباني، وقاعدة أعماله الحيرة، وأمير جند الشام خالد بن الوليد القرشي المخزومي. وكان آخر ما تكلم به أبو بكر: «توفني مسلماً وألحقني بالصالحين»، وغسلته زوجته أسماء بنت عميس وابنه عبد الرحمن وكفن في ثوبيه كما أوصى وصلى عليه خليفته من بعده عمر بن الخطاب ودفن ليلاً في حجرة عائشة، وجعل رأسه عند كتفي رسول الله ﷺ، ودخل قبره إبنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبد الله.

ترجمة
عمر بن الخطاب

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر العدوي القرشي يجتمع مع رسول الله ﷺ في كعب بن لؤي، وكنيته أبو حفص ولقبه الفاروق، وأمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة المخزومية بنت عم خالد بن الوليد: ولد رضي الله عنه في السنة الثالثة عشرة من ميلاد رسول الله ﷺ وتربى على الشهامة والنجدة والحمية الجاهلية، ولما جاء الإسلام كان من أكثر المعارضين له، فلما هاجر المسلمون إلى أرض الحبشة خوف الفتنة منّ الله عليه بالإسلام ببركة دعوة رسول الله ﷺ: **«اللهم أعز الإسلام بعمر»**[1]، فأتى دار الأرقم بن أبي أرقم عبد مناف ابن أبي جند أسد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم التي كان رسول الله ﷺ مستخفياً فيها، ودان بالإسلام، وأشار على رسول الله ﷺ بترك الإختفاء وإظهار الدين، فخرج عليه السلام، ومعه المسلمون صفين يقدم أحدهما عمر بن الخطاب، ويقدم الآخر حمزة بن عبد المطلب، ولا تسل عما نال مشركي قريش من الكآبة إذ ذاك حتى تعصبوا على عمر وأرادوا قتله، فحماه العاصي بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم والد عمرو بن العاص، وصار بعد ذلك عمر ينصر هذا الدين بما أتاه الله من قوة البطش حتى قال عبد الله بن مسعود: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر» رواه البخاري، فلما أذن الله بالهجرة إلى المدينة كان المسلمون يتسللون إلى الهجرة خفية إلا عمر رضي الله عنه، فإنه لما عزم عليها جاء قريشاً في ناديهم وأخبرهم بعزمه، وقال من أراد أن تثكله (تفقده) أمه، فليلقني وراء هذا الوادي، فلم يجسر أحد على اتباعه،

---

(١) رواه الترمذي في المناقب وابن ماجة في المقدمة.

وحضر مع رسول الله ﷺ مشاهده كلها من بدر إلى تبوك، وزوجه ابنته أم المؤمنين حفصة بعد أن توفي عنها زوجها خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي بن سهم من جراحة أصابته بأحد، ومن مآثره قول رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم شربت - يعني اللبن - حتى أنظر إلى الري يجري في ظفري أو أظفاري - ثم ناولته عمر. قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم»[1]، وقوله عليه السلام: «رأيت في المنام كأني أنزع بدلو بكرة على قليب (بئر) فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً (دلواً) أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، والله يغفر له، ثم جاء عمر فاستحالت غرباً (دلواً عظيمة) فلم أر عبقرياً (سيداً) يفري فريه (يأتي بالعجب في عمله مثله) حتى روى الناس بعطن»[2] (أي أناخوا حول الماء بعد السقي). وفي هذا الحديث إشارة إلى مدة خلافة الشيخين إبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال عليه السلام مخاطباً لعمر: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك غير فجك»[3]. وقال عليه السلام: «لقد كان فيما قبلكم محدثون ملهمون فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر»[4]، وقال عليه السلام: «بينا أنا نائم رأيت الناس عرضوا عليَّ وعليهم قمص فمنها من يبلغ الثدي ومنها ما يبلغ دون ذلك وعرض عليَّ عمر وعليه قميص اجتره قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: «الدين»[5].

وكان عمر كثيراً ما يشير على رسول الله ﷺ بأشياء ينزل بها القرآن كمسألة أسرى بدر، ومسألة الحجاب، ولما مات رسول الله ﷺ جزع عمر جزعاً شديداً على صلابته وشدته حتى قال: والله ما مات رسول الله ﷺ وآله. قالت أم المؤمنين

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي والعلم والتعبير، ومسلم في فضائل الصحابة، والدارمي في الرؤيا.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب وفضائل أصحاب النبي وتعبير الرؤيا، ومسلم في فضائل الصحابة، وأحمد ٢/ ٢٨، ٣٩، ٨٩، ١٠٤، ١٠٧، ٤٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي والأدب وبدء الخلق، ومسلم في فضائل الصحابة، وأحمد ١/ ١٧١، ١٨٢، ١٨٧.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة والأنبياء، ومسلم في فضائل الصحابة، والترمذي في المناقب وأحمد ٦/ ٥٥.

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان والتعبير، ومسلم في فضائل الصحابة، والدارمي والترمذي في الرؤيا، وأحمد ٣/ ٨٦ و ٥/ ٣٧٤.

عائشة قال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثه الله فليقطعَنَّ أيدي رجال وأرجلهم، فلما جاء الصديق وذكرهم خشع ورجع إلى الصواب، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد ألا يكون من أصحاب رسول الله ﷺ شيء ليس فيه فائدة، فلقد خوف عمر الناس، وإن فيهم لنفاقاً فردهم الله بذلك، ثم لقد بصر أبو بكر الناس الهدى وعرفهم الحق الذي عليهم. هكذا قالت أم المؤمنين من رواية البخاري.

وكان لعمر فضل عظيم يوم السقيفة حيث سارع إلى بيعة الصديق قبل أن تحدث فرقة، ولما ولي الصديق كان له عمر أعظم مشير، حتى أن أبا بكر لم ير غيره أهلاً للخلافة بعده، فعهد له بها، ونعماً فعل.

وكان رضي الله عنه طويلاً أصلع أعسر أيسر يعمل بيديه كلتيهما، وكان لطوله كأنه راكب شديد البياض تعلوه حمرة، وكان أشيب يصفر لحيته ويرجل رأسه، وكان له من الأولاد عبد الله، وعبد الرحمن الأكبر، وأم المؤمنين حفصة، وعبيد الله قتل بصفين مع معاوية، ومن ولده فاطمة وعاصم ورقية وزيد، وعبد الرحمن الأوسط، وكان عمر رضي الله عنه يلقب بالفاروق: بويع بالخلافة صبيحة وفاة أبي بكر رضي الله عنه، ولما بويع صعد المنبر، وقال: إنما مثل السرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق.

أمر العراق في عهد عمر

توفي الصديق رضي الله عنه، والمثنى بن حارثة أمير جيش العراق مقيم بالمدينة يطلب المدد، فلما ولي عمر ندب الناس مع المثنى، فكان أول منتدب لذلك أبو عبيد بن مسعود الثقفي، وسعد بن عبيد الأنصاري وسليط بن قيس، فأمّر عليهم أسبقهم انتداباً أبا عبيد بن مسعود وقال له: «إسمع من أصحاب رسول الله ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً بل اتئد، فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة، ولا يمنعني أن أؤمر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب، والسرعة إلى الحرب إلا عن بيان ضياع والله لولا سرعته لأمرته»، ثم قال: «إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية، تقدم

على قوم تجرؤوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون، وأحرز لسانك ولا تفشين سرك، فإن صاحب السر ما يضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكره، وإذا لم يضبطه كان بمضيعة»، ثم أمر المثنى أن يتقدم إلى أن يلحقه الجيش، وأمره أن يستنفر من حسنت توبته من المرتدين فسار مسرعاً حتى وصل الحيرة في عشر[1]، وكان الفرس قد شغلوا عن المسلمين باختلافاتهم الداخلية على من يلي ملكهم، ثم اتفقوا أخيراً على ولاية بوران بنت كسرى وأن يقوم بأمرها رستم حتى يجدوا رجلاً من بيت كسرى يصلح للملك، فاستعد رستم لقتال المسلمين، وجهز لذلك الجيوش، فأرسل جيشاً إلى فرات بادقلي وقائده جابان، وجيشاً آخر إلى كسكر[2] وقائده ترسي، وجيشاً آخر لمصادمة المثنى، وأرسل إلى الفلاحين أن ينتفضوا على المسلمين، ففعلوا، ولما بلغت هذه الأخبار المثنى خرج من الحيرة حتى نزل خفان[3] وانتظر أبا عبيد حتى وصل بعد شهر من مقدم المثنى، وكان قد اجتمع من الفرس جمع عظيم وعسكروا بالنمارق[4] والزاب[5] فهزمت السرايا من تجمع في هذه الجهات من الفرس، وطلب أمراؤها الصلح فأجيبوا ودفعوا الجزاء معجلاً. ثم جاءوا إلى أبي عبيد بأنواع الأطعمة المحبوبة عند الفرس، فقال لهم: هل أكرمتم الجند بمثلها، فقلوا لم يتيسر ونحن فاعلون فقال أبو عبيد: «لا حاجة لنا فيه، بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم استأثر عليهم بشيء، ولا والله لا آكل ما أتيتم به ولا مما أفاء الله إلا مثل ما يأكل أوساطهم» فليتأمل المسلمون كيف كان سفلهم رضي الله عنهم.

ثم سار حتى لقي الجالينوس بباقشياثا من باروسما فقاتله حتى هرب وانهزم جيشه فأرسل أبو عبيد إلى عمر بالبشارة والأخماس، وفيها تمر كان لترسي لا يأكله إلا ملوك الأعاجم أو من أكرموه بشيء منه أو لا يغرسه غيرهم، وكتب إلى عمر:

---

(١) أراد بذلك عدد المسلمين حيث صار عدد الجيش عشرة آلاف.

(٢) كسكر: بلد على الشاطىء الغربي لدجلة بين بغداد والبصرة على آثارها الآن مدينة واسط، «م».

(٣) خفان: مأسدة قرب الكوفة، «م» والمأسدة: هو المكان الذي تكثر فيه الأسود وتألفه.

(٤) النمارق: بلد شمالي واسط.

(٥) الزاب: نهر بين سوراء وواسط، ونهر آخر يقربه وعلى كل منهما كورة وهما الزابان ويجمع بما حواليه من الأنهار فيقال الزوابي: ونهر جور كذلك من الأنهر المتشعبة في جنوبي الجزيرة.

«إن الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة تحميها أحببنا أن تروها لتشكروا إنعام الله وإفضاله»، ولما رجع الجالينوس إلى رستم منهزماً جهز جيشاً عظيماً تحت قيادة بهمن جاذويه المعروف بذي الحاجب ومعه الراية العظمى لفارس واسمها (درفش كابيان) عرضها ثمانية أذرع في طول إثني عشر من جلود النمر، فلما بلغ ذلك أبا عبيد رجع إلى الحيرة، وأقبل الجالينوس حتى نزل قس الناطف على الفرات وأقبل أبو عبيد فنزل عدوته مقابلاً لجيش الفرس بين الفريقين نهر الفرات، فنصب الفرس جسراً عليه.

وقعة الجسر

وخير بهمن المسلمين في أن يعبروا هم أو يعبر الفرس إليهم، فاختار أبو عبيد العبور فنهاه ذوو الرأي منهم فلم يقبل وقال لا يكون الفرس أجرأ على الموت منا، فعبروا واشتد القتال، وكانت الفيلة كثيرة في جيش الفرس فهابتها خيل المسلمين، واشتد الأمر عليهم، فقال أبو عبيد احتوشوا الفيلة واقطعوا بطانها واقلبوا عنها أهلها ووثب هو على الفيل الأبيض ففعل به ذلك، ولكن الفيل خبطه بيده فوقع فوطئه الفيل حتى مات فأخذ الرية بعده ثنية، فقاتل عن جثته حتى تمكن من أخذها، ثم قتل فتتابع الراية سبعة نفر من ثقيف كلهم يأخذ الراية ويقتل، ثم أخذ الراية المثنى، فرأى أن الأمر اشتد على المسلمين، وابتدأ بعضهم بالهزيمة، فرأوا الجسر مقطوعاً قطعه أحد المسلمين لئلا يفروا، فلم يعيقهم ذلك بل نزلوا في الفرات، فغرق بعضهم، ونجا آخرون، فنادى المثنى من عبر وأمرهم بعقد الجسر فعقدوه، وأمر المسلمين بالعبور، وقال: اعبروا على هينتكم، فإنا دونكم ولا تدهشوا ولا تغرقوا نفوسكم وبقي هو حتى عبر من عبر، ثم عبر آخرهم، وكان آخر من قتل على الجسر سليط بن قيس، ومات من المسلمين في هذه الوقعة ما ينيف على أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وقد ذهب كثير ممن عبر عن المثنى استحياء مما فعلوه من الهزيمة، فبقي المثنى جريحاً في قلة من جيشه، ومنع الله بهمن عن العبور خلف المسلمين بما بلغه من اختلاف الفرس وانقسامهم قسمين قسم يريد رستم، وقسم يريد الفيرزان، فرجع عن قصده، ولما بلغ عمر خبر هذه الهزيمة، وأن كثيراً من الناس ذهبوا في البلاد استحياء قال: «اللهم إن كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبو عبيد لو كان انحاز إليَّ لكنت له فئة»، ثم امدّ

المثنى بجيوش كثيره فيهم جرير بن عبد الله البجلي وقومه ، وعصمة بن عبد الله الضبي وقومه، واستنفر من حسنت توبته من المرتدين فكلما أتاه أحد منهم وجهه إلى المثنى.

أما رستم والفيرزان اللذان يتنازعان إمرة الفرس فإنهما لما علما بذلك وجها جيشاً بقيادة مهران الفارسي إلى الحيرة، فكتب المثنى إلى جرير وعصمة ومن معهما أن يوافوه بالعذيب[1] وسار المثنى حتى التقى بهم هناك فلقوا جيش مهران وبينهما نهر الفرات، فاختار المثنى أن يعبر إليه الفرس لأن المسلم لا يلدغ من جحر مرتين، فأبلغ الفرس ذلك، فعبروا أما المثنى فسوى صفوفه وصار يحرض المسلمين ويعظهم ويقول: «إني لأرجو ألا تؤتى الناس من قبلكم اليوم والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم، وأنصف الناس من نفسه في قوله وفعله وخلطهم في المحبوب والمكروه، وقال: إني مكبر ثلاثاً، فإذا كبرت الرابعة فاحملوا، فلما كبر الأولى أعجلتهم الفرس، فرأى خللاً في صفوف بني عجل، فأرسل إليهم الأمير يقرئكم السلام ويقول لكم لا تفضحوا المسلمين اليوم، فاعتدلوا»، فضحك فرحاً، ثم اشتد القتال، وحمل المثنى على قلب المشركين، وفيه مهران والمجنبتان تقتتلان لا تستطيع إحداهما إن تفرغ النصر لأميرها لا المسلمون ولا المشركون، فتغلب قلب الإسلام على قلب الشرك، وأوجع فيه حتى قتل مهران، فلما رأى ذلك مجنبتا المسلمين مالوا على من أمامهم ميلة واحدة، فردوهم على أعقابهم مدحورين، فتسابقوا إلى الجسر يريدون العبور، فسبقهم إليه المثنى وحال بينهم وبين ما يشتهون، فافترقوا مصعدين ومنحدرين، وكان المثنى رضي الله عنه يذكر هذا العمل من زلاته ويقول: «لا ينبغي إحراج من لا يقوى على امتناع».

ثم سير سرية لتعقب الفرس، فبلغت ساباط[2] وافتتحها وصار بعد ذلك طريق المسلمين من الحيرة إلى شواطيء دجلة آمناً، ثم سار قاصداً سوق الخنافس[3] وسوق بغداد بعد أن خلف على الحيرة بشير ابن الخصاصية، فأغار عليهما وسار

---

(١) العذيب: مما يلي الكوفة الآن، «م».

(٢) ساباط: موضع بالمدائن، «م».

(٣) سوق الخنافس: موضع قرب الأنبار، «م».

حتى نزل نهر الساحلين بالأنبار، ثم سرح سرية لقتال جمع من العرب بصفين[1] فسارت إليهم وهزمتهم وبذلك صار سواد العراق للمسلمين يأخذون الجزية من أهل الذمة ويستغلون ما فتحوه عنوة، ولم تبق للفرس سلطة ما غربي الفرات وضعفت في بلاد الجزيرة، فتأثر من ذلك عامة الفرس، ورأوا ملكهم آخذاً في الإضمحلال، فالزوال إن لم يتلافوا الأمر فيسعوا أولاً في إزالة هذه الإختلافات التي كادت تقضي على حياتهم، فاجتمع كبراؤهم عند رستم والفيرزان وقالوا لهما: إنه لم يساعد العرب ويكسبهم الظفر علينا إلا تفرقكم وتخاذلكم، فإن لم تحسموا هذا النزاع وتلتفوا لعدوكم بدأنا بكم فاشتفينا قبل أن يضيع ملك فارس، فانتهى الأميران إلى قول العظماء وبحثا عن رجل من آل كسرى يصلح لولاية الملك، وبعد الجهد وجدوا إبناً له اسمه يزدجرد فتوجاه بتاج الملك وفرح به الأمراء وجميع الرعية وأطاعه الكل، فسمى جيوشاً لحماية ثغور البلاد واسترداد ما فقد منها فسير جيشاً للأبلة وجيشاً للحيرة وجيشاً للأنبار، وكانت هذه أعظم ثغورهم من الجهة الغربية فبلغت المثنى هذه الأخبار فأرسل لعمر بها، فقال عمر: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي أو شرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، وكتب إلى المثنى يأمره بالإنسحاب من أرض العجم والتفرق في المياه حتى تجتمع الجيوش وأمره ألا يدع في ربيعة ومضر أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا أحضره طوعاً أو كرهاً فأنزل المثنى جيشه على حدود بلاد الفرس أولهم بالحلة وآخرهم بقضى[2] متناظرين يغيث بعضهم بعضاً، وكتب عمر إلى عماله أن يبعثوا من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي، وخرج إلى الحج سنة ثلاث عشرة فحج ورجع، فجاءته أفواجهم إلى المدينة، ومن كان أقرب إلى العراق انضم إلى المثنى، فلما اجتمع عند عمر جيش عظيم خرج بهم من المدينة بعد أن استخلف عليها علي بن أبي طالب، ونزل بضرار[3] فعسكر به والمسلمون لا يعلمون قصده أيسافر إلى العراق أم يقيم، فسأله عثمان بن عفان عن حركته، فأعلمهم واستشارهم أيقيم ويولي قيادة الجيش غيره أم يقود الجيش بنفسه، فقال العامة سر

(١) صفين: موضع غربي الفرات من جهة الشمال، وهي الآن ولاية حلب الشهباء، «م».

(٢) قضى: هو جبل البصرة، «م».

(٣) ضرار: موضع قرب المدينة، «م».

وسر بنا معك، وأشار خاصة أصحاب رسول الله ﷺ بالمقام وتولية رجل من أهل الشهامة والنجدة أميراً على الجيش، فتبع رأيهم وانتخب لقيادة هذا الجيش سعد ابن أبي وقاص الزهري القرشي خال رسول الله ﷺ، فولاه ووصاه وكان فيما قال له: «يا سعد بن أم سعد لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته، فالناس في دين الله سواء وهم عبادة يتفاضلون عنده بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر إلى الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه». ثم سرحه بأربعة آلاف وأتبعه بمثلها وأرسل إليه عهداً هذه صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد.. فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم وعدتنا ليست كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بالمعاصي كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً، وسلوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم وأسأل الله ذلك لنا ولكم. وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم، والسفر لم ينقص من قوتهم فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها الأنفس ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا فتولوهم خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح، وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم وليكن

عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعض، والغاش عين عليك وليس عيناً لك. وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، واختر للطلائع أهل البأس والرأي من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة، واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد لا تخص بها أحد بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك. ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكاية، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناخرة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك، ثم أذك حراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك، ولا تأت بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه لترهب به عدو الله وعدوك والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم والله المستعان».

ولما وصل سعد زرود بلغه أن المثنى توفي من أثر جراحة أصابته، وأنه ولى على جيشه بشير بن الخصاصية، فجمع سعد إليه جيش المثنى وكان ثمانية آلاف عسكر بشراف، وعبأ الجيش وأمر الأمراء، وعرف على كل عشرة عريفاً، وجعل على الرايات رجالاً من أهل السابقة أيضاً، ورتب المقدمة والساقة والمجنبات والطلائع، فجعل على المقدمة زهرة بن الحوية فانتهى إلى العذيب، وعلى الميمنة عبد الله بن المعتم، وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي، وخليفته خالد بن عرفطة، وعلى الساقة عاصم بن عمرو، وعلى الطلائع سواد بن مالك، وعلى المجردة سلمان بن ربيعة الباهلي، وعلى الرجالة جمال بن مالك الأسدي، وعلى الركبان عبد الله بن ذي اليمنين الحنفي، وعلى القضاء بينهم عبد الرحمن ابن ربيعة الباهلي، وكاتب الجيش زياد بن أبي سفيان، ورائده وداعيه سلمان الفارسي، وكل ذلك بأمر من عمر، ثم سار حتى نزل القادسية[١] بين العتيق والخندق[٢] والعتيق من فروع الفرات بحيال القنطرة[٣].

---

(١) القادسية: قرية قرب الكوفة ينزل بها حاج الكوفة الان، «م».

(٢) الخندق: هو حفير لسابور ملك الفرس ببرية الكوفة، «م».

(٣) القنطرة: هي قرية بها قنطرة على فرع من فروع الفرات، فعرفت القرية بها، «م».

وكتب عمر إلى سعد: «إني ألقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو غلبتموهم، فمتى لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو إشارة أو لسان كان عندهم أماناً، فأجروا لهم ذلك مجرى الأمان والوفاء، فإن الخطأ بالوفاء بقية، وإن الخطأ بالغدر هلكة، وفيها وهنكم وقوة عدوكم».

وأقام سعد بالقادسية شهراً لا يأتيه من الفرس خبر، فبث سراياه بين كسكر والأنبار، فأغارت على من ليس لهم ذمة ومن غدر من أهلها، فأرسل أهل السواد إلى يزدجرد ملك الفرس يخبرونه بما صنع المسلمون وأعلموه إن تأخر ألقوا بأيديهم، فأرسل يزدجرد إلى رستم وأمره بالإستعداد والتأهب ليكون قائداً لجيش عظيم يحارب المسلمين، فامتثل كرهاً لأنه كان من رأيه مطاولة المسلمين حتى يهتوا، وخرج فعسكر بساباط، وبلغ خبره سعداً، فبلغه عمر، فأرسل إليه عمر: «لا يكربنك ما يأتيك عنهم واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث رجالاً من أهل المناظرة والرأي والجلد يدعونه، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم»، فأرسل سعد جماعة من الأشراف دعاة إلى يزدجرد منهم النعمان بن مقرن، وقيس بن زرارة، والأشعث بن قيس، وفارت بن حيان، وعاصم بن عمر، وعمرو بن معد يكرب، والمغيرة بن شعبة، فلما وصلوا المدائن أدخلوا على يزدجرد، فسألهم بواسطة ترجمانه ما جاء بكم ودعاكم إلى غزونا والولوغ ببلادنا. أمن أجل إنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟ فتكلم عنهم النعمان بن مقرن، فقال: «إن الله-رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر، ووعدنا على إجابته خيري الدنيا والآخرة، فلم يدع قبيلة إلا قاربه منها فرقة، وتباعد عنه منها فرقة، ثم أمر أن نبتدىء بمن خالفه من العرب فبدأنا فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط، وطائع فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمر أن نبتديء بمن جاورنا من الأمم، فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله، فإن أبيتم، فأمر من الشر أهون من آخر شر منه الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أحببتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن بذلتم الجزية قبلنا منكم ومنعناكم وإلا قاتلناكم».

فقال يزدجرد: «إني لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا

أسوأ ذات بين منكم، فقد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفونا أمركم، ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس، فإن كان غرور لحقكم، فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم».

فقال قيس بن زرارة فقال: «أما ما ذكرت من سوء الحال، فكما وصفت وأشد» ثم ذكر من عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبي ﷺ مثل مقالة النعمان، ثم قال: «إختر إما الجزية عن يد وأنت صاغر أو السيف، وإلا فنج نفسك بالإسلام»،

فقال يزدجرد: «لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي»، ثم استدعى بوقر من تراب وقال لقومه: احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن. فقام عاصم بن عمر، وقال: أنا أشرفهم، وأخذ التراب فحمله وخرج إلى راحلته فركبها، ولما وصل إلى سعد قال له: أبشر فوالله لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم.

ثم إن رستم خرج بجيشه الهائل مائة ألف أو يزيدون من ساباط، فلما مر على كوثى[1] لقيه رجل من العرب فقال له رستم: «ما جاء بكم، وماذا تطلبون منا؟» قال: «جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا». قال رستم: «فإن قتلتم قبل ذلك؟» قال: «من قتل منا دخل الجنة، ومن بقي أنجزه الله وعده، فنحن على يقين». قال رستم: «وقد وضعنا إذاً في أيديكم؟» قال العربي: «أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها، فلا يغرنك ما ترى حولك، فإنك لست تجادل الإنس وإنما تجادل القدر». فغضب منه رستم وقتله، فلما مر بجيشه على البرس[2] غصبوا أبناء أهله وأموالهم وشربوا الخمور، ووقعوا على النساء، فشكى أهل البرس إلى رستم، فقال لقومه: «والله لقد صدق العربي والله ما أسلمنا إلا أعمالنا، والله إن العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرة منكم»، ثم سار حتى نزل الحيرة، فعنف عظماؤها على الإستسلام للمسلمين، فقال له ابن بقيلة:

---

(١) كوثى: قرية بين المدائن وبابل، «م».

(٢) البرس: قرية بين الكوفة والحلة، «م».

«لا تجمع علينا أن تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا».

ولما علم سعد أمير جيش المسلمين خبر رستم أرسل عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وطليحة بن خويلد الأسدي يستكشفان خبر الجيش مع عشرة رجال، فلم يسيروا إلا قليلاً حتى رأوا سرح العدو منتشراً على الطفوف[1] فرجعوا إلى طليحة، فإنه ظل سائراً حتى دخل جيش العدو وعلم ما عليه فرجع إلى سعد وأخبره خبره.

وقعة القادسية

ثم إن رستم سار بجيشه من الحيرة حتى نزل القادسية على العتيق[2] أمام عسكر المسلمين يحول بينهم وبينهم النهر، ومع الفرس ثلاثة وثلاثون فيلاً، ولما نزل أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا رجلاً نكلمه، فأرسل إليه ربعي بن عامر، فجاءه وقد جلس على سرير من ذهب وبسط النمارق والوسائد منسوجة بالذهب، فأقبل ربعي على فرسه وسيفه في خرقة ورمحه مشدود بعصب، فلما انتهى إلى البساط وطئه بفرسه، ثم نزل وربطها بوسادتين شقهما وجعل الحبل فيهما، ثم أخذ عباءة بعيره فاشتملها، فأشاروا عليه بوضع سلاحه، فقال «لو أتيتكم فعلت ذلك بأمركم، وإنما دعوتموني»، ثم أقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه حتى أفسد ما مر عليه من البسط، ثم دنا من رستم، وجلس على الأرض وركز رمحه على البساط وقال: «إنا لا نقعد على زينتكم»، فقال له رستم: «ما جاء بكم؟» قال: «الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر». فقال رستم: «قد سمعنا قولكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه» فقال: «نعم وإن مما سن لنا رسول الله ﷺ ألا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل: الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء، فنقبل ونكف عنك وإن احتجت إلينا نصرناك، أو المنابذة في اليوم الرابع إلا أن تبدأ بنا وأنا كفيل بذلك عن أصحابي». فقال رستم:

---

(١) الطفوف: الفناء.

(٢) العتيق: جسر القادسية، «م».

«أسيدهم أنت؟» قال: «لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم»، ثم انصرف.

فخلا رستم بأصحابه، وقالوا: رأيتم كلاماً قط مثل كلام هذا الرجل؟ فأروه الإستخفاف بشأنه، فقال رستم: «ويلكم إنما أنظر إلى الرأي والكلام والسيرة والعرب تستخف اللباس وتصون الأحساب»، فلما كان اليوم الثاني من نزوله أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا هذا الرجل، فأرسل إليه حذيفة بن محصن الغطفاني، فلم يختلف عن ربعي في العمل والإجابة، ولا غرابة فهما مستقيان من إناء واحد وهو دين الإسلام، فقال له رستم: «ما قعد بالأول عنا؟» قال: «أميرنا يعدل بيننا في الشدة والرخاء وهذه نوبتي». فقال رستم: «والمواعدة إلى متى؟» قال: «إلى ثلاث من أمس»، وفي اليوم الثالث أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا رجلاً، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة، فتوجه إليه، ولما كان بحضرته جلس معه على سريره، فأقبلت إليه الأعوان يجذبونه، فقال لهم: «قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب لا يستعبد بعضها بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم، وإني لم آتيكم ولكنكم دعوتموني اليوم علمت أنكم مغلوبون، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول»، فقالت السوقة: صدق والله العربي، وقالت الدهاقين[1] لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه، قاتل الله سابقينا حيث كانوا يصغرون أمر هذه الأمة، ثم تكلم رستم بكلام عظَّم فيه شأن الفرس وصغر فيه شأن العرب وذكر ما كانوا عليه من سوء الحال، وضيق العيش، فقال المغيرة: «أما الذي وصفتنا به من سوء الحال والضيق والإختلاف، فنعرفه ولا ننكره والدنيا دول والشدة بعدها الرخاء، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم قليلاً على ما أوتيتم، وقد أسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال وإن الله بعث فينا رسولاً»، ثم ذكر مثل ما تقدم، وختم كلامه بالتخيير بين الإسلام أو الجزية أو المنابذة، ثم رجع، فخلا رستم بأهل فارس، وقال: «أين هؤلاء منكم ألم يأتكم الأولان فجسراكم واستخرجاكم، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا وسلكوا طريقاً واحداً، ولزموا أمراً واحداً. هؤلاء والله

(١) الدهاقين: زعماء الفلاحين، «م».

الرجال صـادقين كانوا أم كاذبين، والله لئن بلغ من أدبهم وصونهم لسرهم أن لا يختفوا فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم لئن كانوا صادقين، فما يقوم لهؤلاء شيء للجوا، ولم تنتفع الفرس بهذه الدعوة بل تمادوا في غيهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً».

فأجمع القائدان على المناجزة، وأقرا على أن يعبر الفرس نهر العتيق، فعبروا وعبأ رستم جيشه العرمرم، وجعل بينه وبين يزدجرد بريداً يخبره بالحوادث في أوقاتها، وعبأ أمير المسلمين جيوشه، وكانت صفوفهم مع حائط قُـدَيس[1] والخندق، فكان الجيشان بين العتيق والخندق، وأرسل سعد رجالاً من ذوي المنطق الفصيح يحرضون على الجهاد، وأمر القراء بقراءة سورة الأنفال، فقرئت، ولما أتموا قراءتها شهت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة بقراءتها، ثم قال لهم سعد: الزموا مصافكم فـإذا صليت الظهـر فإني مكبـر، فإذا كبـرت الأولى فكبروا، واستعدوا وإذا كبرت الثانية فكبروا والبسوا عدتكم، وإذا كبرت الثالثة فكبروا ونشطوا الناس، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

وكان ذلك في المحرم من السنة الرابعة عشرة، فلما كبر سعد تكبيرته الأخيرة خرج أهل النجدات، فأنشبوا القتال، ثم حمل الجيشان، ولم يكن أشد على المسلمين من الفيلة وكادت بجيلة أن تهلك لنفار خيلهـا، فأرسل سعد إلى ابن أسد أن دافعوا عن بجيلة، فقام رئيسهم طليحة بن خويلد مما عهد إليه خير قيام، فلما رأى الأشعث بن قيس ما يفعله بنو أسد قال لقومه: «يا بني كندة لله در بني أسد أي فري يفرون، وأي هذي يهذون أغنى كل قوم ما يليهم وأنتم تنتظرون من يكفيكم أشهد ما أحسنتم أسوة قومكم من العرب»، ثم نهد فنهدوا معه وأزالوا من بإزائهم، ووجه الفرس قوتهم إلى بني أسد لما رأوا من شـدتهم على الفيلة فدارت رحى الحرب على بني أسـد والفيلة تضربهم كثيـراً، فأرسل سعد إلى

---

(1) قُدَيْس: موضع بناحية القادسية، قال الشاعر:

وحلت بباب القادسية ناقتي	وسعد بن وقاص علَيَّ أمير
تذكر هداك الله وقع سيوفنا	بباب قديس والمكر ضرير

(انظر معجم البلدان ٤/٣١٤).

عاصم بن عمرو زعيم بني تميم أن ينظر حيلة للفيلة، فنادى رماة قومه وقال لهم: ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل، وقال لآخرين استدبروا الفيلة فقطعوا وضنها[1] ففعلوا فعوت الفيلة وقتل أصحابها، فنفس عن أسد بعد أن قتل منهم خاصة في هذه الموقعة نحو خمسمائة، ولم يزل القتال ناراً تلظى إلى أن غربت الشمس، فانفصل الجيشان، وهذا هو اليوم الأول من أيام القادسية، ويسمى يوم أرمات، وتسمى ليلته ليلة الهدأة لأنه لم يحصل فيها قتال.

فلما أصبحوا وكّل سعد بالجرحى من يداويهم وبالقتلى من يدفنهم وعبى الجيش كما كان بالأمس وبينما هم مصطفون إذ قدم على المسلمين مدد من الشام بعثه بأمر عمر أبو عبيدة عامر بن الجراح وعليه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الملقب بالمرقال[2] وكان على مقدمته القعقاع بن عمرو، فوصل أولاً لأنه تعجل فقدم صبيحة اليوم الثاني من أيام القادسية فقويت به قلوب المسلمين، ولم يلبث حتى خرج يطلب البراز فبرز إليه ذو الحاجب صاحب وقعة الجسر، فعرفه القعقاع ونادى يالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر، ثم تضاربا فقتل ذا الحاجب، وأفرح قتله المسلمون بقدر ما أحزن المشركين ثم حمي القتال، وفي هذا اليوم شعر المسلمون بالظفر لأن الفيلة كانت تكسرت توابيتها، فاشتغل الفرس بإصلاحها، وحمل بنو عم القعقاع عشرة عشرة على إبل قد ألبسوها وهي مجللة مبرقعة وأطافت بها خيولهم تحميهم، وأمرهم القعقاع أن يحملوها على خيل الفرس يتشبهون بالفيلة فلقيت منها خيل الفرس أعظم ما لاقت خيل المسلمين بالأمس، وأظهر القعقاع في هذا اليوم شجاعة عظمى. واستمر القتال إلى نصف الليل، فانفصل الجيشان ويسمى هذا اليوم يوم أغواث وهو اليوم الثاني من أيام القادسية، وتسمى ليلته ليلة السواد.

ثم أصبحوا في اليوم الثالث، وهو يوم عماس على مصافهم، وبين الصفين من جرحى المسلمين وقتلاهم ألفان، فنقلهم إخوانهم: الجريح للمداواة والقتيل للدفن، وكان النساء هن اللاتي يداوين الجرحى، أما القتلى المشركين الذين

---

(١) الوضين: بطان عريض منسوج من سيور أو شعر، والبطان حزام القتب، «م».

(٢) المرقال: لقبه بذلك علي بن أبي طالب [بعد ذلك] يوم صفين لأنه أعطاه الراية فصار يرقل بها أي يسرع، «م».

يزيدون على عشرة آلاف، فلم يعتن قومهم بنقلهم. وفي هذا اليوم أقبل هاشم المرقال في بقية جيشه، وقد احترس الفرس في هذا اليوم على الفيلة، فجعلوا وراءها رجالاً يحمونها لئلا تقطع وضنها، ولكن خيل المسلمين لم تنفر منها لأن الفيل إذا كان وحده كان أوحش، وإذا أحاط به الرجال كان آنس، ولأن الخيل أيضاً تعودت رؤيتها، ثم ابتدأ القتال وحمي وطيسه فانتدب سعد القعقاع ومعه آخر لقتل الفيل الأبيض، وهو كبير الفيلة وانتدب آخرين لقتل الفيل الأجرب، وذهب القعقاع ورفيقه، وأشرع كل منهما رمحه، فوضعه في عين الفيل، فوقع لجنبه ثم قتلا ساسته، وذهب الآخران فطعن أحدهما الفيل في عينه فأقعى[1] ثم استوى فضربه الثاني فأبان مشفره فولى الفيل لا يلوي على شيء حتى رمى نفسه في العتيق وتبعه الفيلة، فخرجت صفوف الأعاجم وعبرت العتيق، وظل القتال مستمراً حتى جاء المساء فانفصل الجيشان قليلاً، ثم أمر سعد بمعاودة القتال متى أعلن بشعار القتال وهو (الله أكبر)، فأعجلتهم الفرس عن انتظار تكبير سعد، فحمل القعقاع ولم ينتظر فقال سعد: اللهم اغفر له وانصره فقد أذنت له وإن لم يستأذن لأن المسلمين قد جربوا نتائج العصيان في وقعة أحد في عهد رسول الله ﷺ وآله فخاف سعد أن يعاقبوا، فأذن في القتال، وإن لم يستأذنوه، ثم حمل بنو أسد، فقال سعد: «اللهم اغفر لهم وانصرهم فقد أذنت لهم»، وهكذا كان يقول رضي الله عنه كلما حمل قوم قبل إعلانه التكبير، فلما صلى العشاء كبر، فحمل المسلمون كلهم، وكانت ليلة ليلاء صوت الحديد فيها، وكان كصوت القيون[2] وترك المسلمون الكلام وإنما كانوا يهرون هريراً،[3] ولذلك سميت هذه الليلة ليلة الهرير رأى فيها العرب والفرس ما لم يروا مثله قبلها، فالمسلمون يحامون عن دينهم والفرس يحامون عن دولتهم، ولكن أين من يحارب عن الدنيا ممن يحارب لتكون كلمة الله هي العليا؟.

واستمر القتال إلى الصباح، فقال القعقاع إن الدائرة تكون لمن صبر ساعة، فاصبروا ساعة، فإن النصر مع الصبر، فانضم إليه جماعة من الرؤساء واستمروا

---

(١) أقعى: أي تساند إلى ما وراءه، «م».

(٢) القيون: أراد بذلك الصوت الذي يصدر عن الحدادين أثناء عملهم في الحديد.

(٣) الهرير: هو صوت الكلب دون النباح.

يقاتلون حتى قام قائم الظهيرة، فابتدأ الفرس بالتقهقر، وكان أول من زال الفيرزان والهمزان فتأخرا عن مواقفهما، ثم حمل هلال بن علفة أحد فرسان المسلمين فقتل رستم، فلما رأى ذلك الفرس ابتدأوا بالإنهزام، فقام الجالينوس على الردم وأمر الجيش بالعبور، فعبر من نجا منهم، فتبعهم زهرة بن الحيوة وأدرك الجالينوس وهو يجمع المنهزمين، فقتله، وأخذ ضرار بن الخطاب الفهري الراية العظمى لفارس وهي (درفش كابيان) ويسمى هذا اليوم يوم القادسية، وبعد تمام الهزيمة أمر سعد بجمع الأسلاب والغنائم، وكانت شيئاً كثيراً فقسمها كما أمر الله سبحانه وتعالى، وهنأ جنوده بهذا النصر المبين، وبعث بالخمس والبشارة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان رضي الله عنه يخرج كل يوم من المدينة يتنسم الأخبار حتى يرده حر الظهيرة، فلما جاء البشير لاقاه عمر وهو يسير سيراً حثيثاً فسأله عمر من أين، فأخبره الرجل أنه آت من قبل سعد، فقال: يا عبد الله حدثني، قال: هزم الله المشركين وعمر يخب[1] وراءه والرجل لا يعرفه حتى دخل المدينة، فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين، فقال البشير: هلا أخبرتني رحمك الله، فقال عمر: لا بأس عليك يا أخي.

وهذه الموقعة كانت أعظم وقعات المسلمين مع فارس قتل فيها مشاهير الفرس وكبار قوادهم وقتل من الجيش كثير غرقاً وقتلاً، وقاتل فيها أغلب رؤساء العرب لأن عمر لم يترك أحداً من ذوي النجدات يتأخر عنها وكان المسلمون لا يذكرون ما بعدها من الوقائع. وأقام سعد بالقادسية شهرين ينتظر أمر عمر حتى جاءه بالتوجه لفتح المدائن، وتخليف النساء والعيال بالعتيق مع جند كثيف يحوطهم وعهد إليه إن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين في عيالاتهم، ففعل وسار بالجيش لأيام بقين من شوال، وكان فل المنهزمين لحق ببابل وفيهم بقايا الرؤساء مصممين على المدافعة.

فتح البرس

فلما وصلت مقدمة المسلمين برس قابلهم فيها بعض عساكر الفرس فقاتلوا ثم انهزموا، ولما أدركهم سعد أخبروه الخبر فسر واستمر سائراً حتى وصل بابل.

---

(١) يخب: أي يعدو.

فتح بابل

وهناك عبر الفرات وقاتل من تجمع ببابل، فلم يلبث الفرس إلا ساعة من نهار وانهزموا مدحورين في أسرع من لفت الرداء وناهيك بقتال من مليء قلبه رعباً وهذا مصداق قول رسول الله ﷺ: «**نصرت بالرعب**»[1] وهرب الفيرزان إلى نهاوند وهرب الهرمزان إلى الأهواز[2]، وقصد بقية المنهزمين المدائن وتبع زهرة المنهزمين فلحقهم بين الدير وكوثى فطردهم وقتل منهم جمعاً عظيماً.

فتح كوثى

ثم سار حتى وصل كوثى فخرج إليه أميرها مقاتلاً فقتل وانهزم جيشه وانتظر زهرة هناك سعداً.

فتح ساباط[3]

وبعد أن وصل سعد سار زهرة حتى ورد ساباط فصالحه أهلها على الجزية، وانتظر سعداً، فلما جاء سار الجيش كله قاصداً بهرسير وهي المدينة الغربية، فرأى المسلمون إيوان كسرى أمامهم وتذكروا وعد رسول الله ﷺ؛ روى مسلم عن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «**عصيبة من المسلمين يفتحون البيت الأبيض بيت كسرى أو آل كسرى**» فقويت قلوبهم وعظمت همتهم وهؤلاء جديرون بنصر الله لهم لأنهم على يقين من دينهم، فكلما سنحت لهم فرصة تقربهم إلى الله بادروا إليها: ﴿**إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يعقلُونَ**﴾[4]ونادى ضرار بن الخطاب: الله

---

(١) يشير إلى حديث رواه البخاري في التيمم والصلاة والجهاد والتعبير، ومسلم في المساجد، والترمذي في السير، والنسائي في الغسل والجهاد، والدارمي في الصلاة والسير، وأحمد ١/٣٠١ و٢/٢٢٢، ٢٦٤، ٣١٤ و٣/٣٠٤ و٤/٤١٦ و٥/١٦٢ ولفظه في البخاري في كتاب التيمم: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» (١/٩١ - ٩٢).

(٢) الأهواز: إقليم بالجنوب الغربي من بلاد فارس بين البصرة وإقليم فارس، وهي تسع كور وقاعدتها السوس ومن مدنها تسير، «م».

(٣) ساباط: معروفة بساباط كسرى وهو موضع في المدائن.

(٤) سورة النحل آية ١٢.

أكبر هذا أبيض كسرى هذا ما وعد الله وصدق رسوله، وكبر وكبر معه المسلمون وحاصر سعد المدينة في ذي الحجة من السنة الرابعة عشرة، وأرسل الخيل لفتح القرى المجاورة، واستشار سعد عمر في أسرى الفلاحين، فجمع عمر أصحاب شوراه، وخطبهم فقال: «إنه من يعلم بالهوى والمعصية يسقط حظه ولا يضر إلا نفسه، ومن يتبع السنّة وينته إلى الشرائع ويلزم السبيل النهج ابتغاء ما عند الله لأهل الطاعة أصاب أمره وظفر بحظه وذلك بأن الله عز وجل يقول: ﴿وَوَجَدوا ما عَمِلُوا حاضِراً ولا يظلمُ ربُّكَ أحَداً﴾[1]. وقد ظفر أهل الأيام والقوادس بما يلهيهم وجلا أهله وأتاهم من أقام على عهدهم فما رأيكم فيمن زعم أنه استكره وحشر، وفيمن لم يدع ذلك ولم يقم وجلاً، وفيمن أقام ولم يدع شيئاً ولم يجل، وفيمن استسلم»، فأجمعوا على الوفاء لمن أقام وكف ولم يزده غلبه إلا خيراً، وأن من ادعى فصدق أو وفى فبمنزلتهم وإن كذب نبذ إليهم أو أعادوا صلحهم، وأن يجعل أمر من جلا إليهم فإذا شاءوا دعوهم وكانوا لهم ذمة، وإن شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال، وأن يخيروا من أقام واستسلم بين الجزاء والجلاء، فكتب عمر إلى سعد بما أقر عليه علماء المسلمين ورجال شوراهم، فخلى سعد عن الفلاحين، وأرسل إلى الدهاقين ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة، فتراجعوا ولم يبق غربي دجلة سوادي إلا دخل في ذمة المسلمين واغتبط بملكهم؛ كيف لا وقد رأوا قوماً أساس دينهم المساواة فأميرهم كأصغر الرعية أمام الحق، لا كِبْرَ، لا ظلم، لا فساد في الأرض، خفت عنهم وطأة الكبرياء والعبودية التي كانوا يسامونها فصاروا عباد الله وحده.

ولما اشتد الحصار على المدائن الغربية ترك يزدجرد المدينة وعبر إلى المدينة الشرقية، فعزم سعد على العبور، ولكن الفرس كانوا أجمعوا المعابر، فدله فارسي على مخاضة تصلح للعبور، فقال سعد لرؤساء الجيش: إني قد عزمت على قطع هذا البحر، فقالوا جميعاً عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل، فانتدب منهم من يعدي أولا ويحمي الفراض حتى يعبر المسلمون، فأجابه لذلك ذو البأس والنجدة عاصم بن عمرو سيد بني تميم فعبر في ستين فارساً من قومه، فلما رآهم الأعاجم قصدوهم فشرعوا نحوهم الرماح فلم يصبر الفرس، ولما رأى سعد أن

(١) سورة الكهف آية ٤٩ .

الفراض محمية أمر المسلمين بالعبور، فعبروا وهم يقولون نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وكان يساير سعداً سلمان الفارسي فعامت بهم خيولهم وسعد يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه، وليهزمن عدوه إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات». فقال له سلمان: «الإسلام جديد ذللت لهم البحور كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا فأبر الله قسمه وخرجوا ولم يفقد أحد منهم شيئاً، ولم يغرق منهم أحد غير أن رجلاً زال عن ظهر فرسه فثنى القعقاع عنان فرسه إليه، فأخذه بيده، وأخرجه سالماً، فانظر رعاك الله كيف لم تشغل القعقاع نفسه وهو في أحرج المواقف بل آثر رفيقه على نفسه، وبذلك تتجلى لك مظاهر الإسلام والإخوة الإسلامية في أعلى درجاتها، وكان هذا اليوم يسمى يوم الجراثيم لا يعي أحد إلا تبينت له جرثومة[1] يريح عليها.

ولما رأى الفرس عبور المسلمين سقط في أيديهم ورأوا أن لا قبل لهم بالمدافعة، فترك يزدجرد المدينة وهرب قاصداً حلوان[2] وكان قد قدم إليها أهله وولده، فدخل المسلمون المدينة من غير معارض، ونزل سعد القصر الأبيض واتخذه مصلى وقرأ قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جنات وعيون وزروع ومَقَامٍ كريم ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين كذلكَ وأورثناها قَوماً آخرين﴾[3]. وابتدأ يجمع الغنائم والأسلاب وكانت شيئاً عظيماً وأرسل وراء الهاربين بالأموال والذخائر، فأتى بهم ولم يفلت منهم أحد، وكان أول من دخل المدائن من جيوش المسلمين كتيبة القعقاع بن عمرو وتسمى الخرساء، وبعدها كتيبة عاصم بن عمرو وتسمى كتيبة الأهوال، ثم قسم سعد الغنيمة فأصاب الفارس إثناعشر ألفاً، وقسم المنازل بين الناس وأحضر العيالات من العتيق فأنزلهم الدور، وصارت المدائن قاعدة لأعمال العراق يقيم بها أميره، وكانت أول جمعة جمعت بالمدائن في صفر من السنة السادسة عشرة، وأرسل سعد الأخماس إلى عمر، ومعها كل شيء أراد أن يعجب منه

---

(١) الجرثومة: التراب المجتمع حول أصول الشجرة.

(٢) حلوان: بلدة بينها وبين بغداد أربعة مراحل وهي منتهى العراق من جهة الشرق، وتعد من كور الجبل، وهي مبنية على شاطىء نهر متفرع من دجلة وتقابل طبرستان، «م».

(٣) سورة الدخان الآيات ٢٥ ـ ٢٨.

العرب. وكان فتح المدائن في أواخر السنة الخامسة عشر.

ولما قدم البشير على عمر بذخائر كسرى قال: «إن قوماً أدوا هذا لذوو أمانة»، فقال له علي: «إنك عففت فعفَّت الرعية» ومما بعث به إليه بساط لكسرى يسمى القطف، وكان ستين ذراعاً في ستين، فاستشار عمر أصحابه فيما يفعل به، فكلهم أشار عليه بأخذه لنفسه إلا علياً، فإنه قال له: يا أمير المؤمنين: الأمر كما قالوا، ولم يبق إلا التروية إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له، قال: صدقتني ونصحتني، فقسمه بينهم، وولى عمر سعد بن أبي وقاص صلاة ما غلب عليه وحربه، وولى على الخراج النعمان بن مقرن على ما سقت دجلة، وسويداً أخاه على ما سقى الفرات، ثم استعفيا فولى عملهما حذيفة بن أسيد وجابر بن عمرو المزني، ثم ولى عملهما بعد حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف.

فتح جلولاء

ولما انهزم الفرس ورحلوا عن المدائن اتجهوا شمالاً حتى وصلوا جلولاء(١) شرقي دجلة فافترقت بهم الطرق، أهل أذربيجان يريدون الشمال، وأهل أقليم فارس يريدن الجنوب، فقالوا إن افترقنا لم نجتمع، فهلم فلنحتشد لحرب العرب هنا، فإن كنت لنا كان ما أردنا، وإن كانت علينا كنا شفينا أنفسنا، وولوا أمرهم مهران الرازي، وحفروا حولهم خندقاً أحاطوه بحسك الحديد إلا طرقهم، فبلغ ذلك سعداً فسرح إليهم ابن أخيه هاشم بن عتبة في اثني عشرة ألفاً، وجعل على مقدمته القعقاع حسبما أمر عمر فساروا في صفر من السنة السادسة عشرة حتى أتوا جلولاء، فانحصر الفرس في خنادقهم ثمانين يوماً، ولا يقدر عليهم المسلمون، وبعد هذه المدة انكشف لهم طريق من الخندق كان المشركون أعدوه لسير خيلهم، فهجموا منه وقاتلوهم قتالاً شديداً شبيهاً بقتال ليلة الهرير إلا أنه كان أسرع، فقتل من المشركين مقتلة عظيمة وانتهى القتال بهزيمتهم إلى خانقين فتبعهم إليها القعقاع والمسلمين وهزمهم منها. أما يزدجرد فإنه لما بلغه امتلاك جلولاء ترك حلوان وتوجه إلى الري فسار القعقاع إلى حلوان وامتلكها، ثم أرسل

---

(١) جلولاء: بلدة على شاطىء دجلة شمال المدائن وهي من أعمال بغداد، «م».

سعد إلى عمر يخبره بهزيمة الفرس، ويستأذنه في اتباعهم إلى داخل بلادهم، فلم يرض عمر، وقال: وددت أن بين السواد والجبل سداً حصيناً من ريف السواد فقد آثرت سلامة المسلمين على الفيء والأخماس، ولما قدمت عليه الأخماس قال: والله لا يجنها سقف حتى أقسمها فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم يحرسانها في المسجد، فلما أصبح الصبح جاء عمر، فنظر إلى ما في الأخماس من جوهر ودر، فبكى، فقال عبد الرحمن: ما يبكيك يا أمير المؤمنين، فوالله إن هذا لموطن شكر،فقال عمر: والله ما ذلك يبكيني، وبالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا، وتباغضوا ولا تحاسدوا إلا ألقى بأسهم بينهم، ومنع عمر من قسمة السواد وهو ما بين حلوان شرقاً إلى القادسية غرباً، وكان فتح جلولاء في ذي القعدة من السنة السادسة عشرة.

وفي جمادى الأولى من السنة السادسة عشرة بلغ سعداً أن الأنطاق ملك الموصل سار منها إلى تكريت[1] ومعه جمع كثير من الروم والعرب، فسير إليه عبد الله بن المعتم حسبما أمر عمر، فسار عبد الله إلى تكريت وحصرها أربعين يوماً وفي نهايتها أرسل إلى العرب الذين مع الإنطاق يستميلهم إليه، ويدعوهم لنصرته وخذلان الفرس والأروام الذين ليسوا من جنسهم، فأجابوه لذلك وأنهم معه، فأرسل إليهم أن كنتم صادقين فأسلموا، فهداهم الله للدين القويم وأسلموا فأرسل إليهم إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا قد أخذنا أبواب الخندق فخذوا الأبواب التي تلي دجلة وكبروا واقتلوا من قدرتم عليه، ثم حمل عبد الله وكبر، فكبر العرب فظن المشركون أن المسلمين جاءوهم من خلفهم مما يلي دجلة، فقصدوا أبواب الخندق فأخذتهم سيوف المسلمين فلم يستطيعوا مدافعة، وهرب منهم من أطاق الهرب ودخل المسلمون المدينة.

فتح نينوى والموصل

ثم أرسل عبد الله سرية لفتح نينوى والموصل[2] وأرسل في هذه السرية

---

(١) تكريت: بلد على شاطىء دجلة الشرقي شمال بغداد، «م».

(٢) نينوى والموصل: بلدان على دجلة بعد الدرجة السادسة والثلاثين من خط العرض الشمالي الأولى على الشاطىء الشرقي والأخرى على الغربي، «م».

جمعاً من العرب الذين كانوا مع الفرس فسبقوا إلى البلدين أخبروا بفتح، وظفر على الفرس ففتحت لهم الأبواب، ولم يلبث المسلمون أن جاءوا من غير معارض فطلب أهلها الأمان على الجزية فأمنوا وصاروا ذمة ثم قسم عبد الله الغنائم وأرسل الخمس إلى عمر.

فتح ماسبذان

ثم بلغ سعداً أن جمعاً عظيماً من الفرس تجمعوا بسهل ماسبذان، فأرسل إليهم ضرار بن الخطاب الفهري، فشتت شملهم وقام بماسبذان مرابطاً لأنها كانت ثغراً تؤتى المدائن من قبلها.

فتح هيت

ثم أرسل سعد عمر بن مالك بجيش إلى هيت[1] لفتحها فجاء وقد خندق حولها المشركون فحاصرها، وفي أثناء الحصار فتح قرقيسياء[2] ولما رأى أهل هيت أن لا قبل لهم بالحرب أجابوا إلى دفع الجزية وصاروا ذمة.

تخطيط الكوفة

مكثت المدائن قاعدة أعمال العراق منذ فتحت إلى السنة السابعة عشرة، فرأى عمر بن الخطاب في وجوه العرب الذين نزلوا بها تغيراً في ألوانهم وضعفاً في أبدانهم، فكتب إلى سعد أن ابعث سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان رائدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر، فأرسلهما سعد كل واحد من جهة، فاجتمعا بالكوفة[3] فاستحسناها وصليا بها ودعوا الله أن يجعلها منزل الثبات، ثم رجعا إلى سعد وأخبراه، فأرسل إلى القعقاع وعبد الله بن المعتم أن يستخلفا على جيوشهما ويحضرا ثم سار من المدائن حتى وصل أرض الكوفة فعسكر بها في المحرم من السنة السابعة عشرة، ثم استشاروا عمر في البناء

---

(١) هيت: ناحية من نواحي بغداد، «م».

(٢) قرقيساء: بلد على شاطىء الفرات شمالي الأنبار بينها وبين الرقة وهذه واسطة ديار ربيعة التي مركزها نصيبين، «م».

(٣) الكوفة: معناها الرملة الحمراء المستديرة أو كل رملة تخالطها حصباء، «م».

بالقصب فأذن لهم ولما حصل فيها الحريق عقب تخطيطها استأذنوه في البناء باللبن، فقال: افعلوا ولا يزيدن أحدكم عن ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة.

وكان مخطط الكوفة أبو هياج بن مالك، فجعل النهج[1] أربعين ذراعاً وما يليه ثلاثين، وما بين ذلك عشرين والأزقة سبعة أذرع ليس دون ذلك شيء، وجعل القطائع ستين ذراعاً وأول شيء أسس فيها المسجد وبنى بحياله داراً لسعد وهي قصر الكوفة والمدينة مبنية على الشاطيء الغربي لنهر الفرات بينها وبينه نحو نصف فرسخ كله حدائق نخل ملتفة، يمتد سوادها امتداد البصر، والمسافة بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً أي عرض الجزيرة من هناك وبعد أن تم تخطيطها نقل إليها العرب الذين بالمدائن بعد أن خيرهم، فمن شاء الإقامة بالمدائن تركه ومن شاء الرجوع إلى الكوفة رجع، وصارت قاعدة أعمال العراق من ذلك الحين. وفي هذه السنة على ما عليه أكثر المؤرخين أسست مدينة البصرة، وهي قريبة من خليج فارس على مجتمع الدجلة والفرات أسسها عتبة بن غزوان بأمر عمر، وصارت قاعدة ثانية للعراق لأن عمر قسمه قسمين أعلى وقاعدته الكوفة وواليها سعد، وأسفل وقاعدته البصرة وواليها عتبة، وقد كان يتبع الكوفة من ولايات الفرس بعد افتتاحها الباب وأذربيجان وهمذان والري وأصبهان وماه والموصل وقرقيسياء وكلها في الجهة الشمالية، وكان يتبع البصرة خراسان وسجستان ومكران وكرمان وفارس والأهواز.

غزو الفرس من البحرين

كان المسلمون في العصر الأول يتنافسون فيما يقربهم إلى الله، فلما رأى العلاء بن الحضرمي أمير البحرين نكاية سعد في الفرس أراد أن يؤثر فيهم أثراً مثله، فانتدب أصحابه لذلك، فأجابوه فقسمهم ثلاث فرق على إحداها الجارود بن المعلي العبدي، وعلى الثانية سوار بن همام، وعلى الثالثة خليد بن المنذر بن ساوى، وهو الرئيس العام، وأجازهم الخليج الفارسي لفتح تلك الجهات. ولكن مما يؤسف له أن هذا العمل كان بغير استشارة أمير المؤمنين،

---

(١) النهج: الشارع الأعظم، «م».

وخصوصاً أن الغزو من البحر كان مما لا يراه عمر بن الخطاب وكثيراً ما كان ينهي عنه خوف الغرق، فعبر جيش العلاء البحر وسار حتى أتى اصطخر[1]. فخرج إليهم جمع عظيم من الفرس وحالوا بينهم وبين مراكبهم فلما علم بذلك خليد خطب أصحابه، فقال: «أما بعد فإن القوم لم يدعوكم إلى حربهم وإنما جئتم لهم السفن والأرض لمن غلب فاستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين»، ثم عبأ جيشه وحمل، فقتل من المسلمين الجارود وسوار وقتل من الفرس كثير. لما رأى المسلمون أنهم قليلون وسط بلاد الفرس وذلك تغرير بهم أرادوا الرجوع إلى البصرة من طريق البر لأنه لا سبيل لهم إلى السفن، فأخذ الفرس عليهم الطريق فعسكروا وامتنعوا لما بلغ عمر فعلة العلاء وحصر المسلمين أرسل لعتبة بن غزوان أمير البصرة أن يجهز جيشاً كثيفاً لتخليص المحصورين قبل أن يهلكوا، فجهز لهم جيشاً فيه إثنا عشر ألف مقاتل، فساروا حتى التقوا بالمسلمين إخوانهم من شر عمل لم يستشر فيه أمير المؤمنين، وهذه أول غزوة شرفت بها نابتة البصرة، وكان عقاب عمر للعلاء أن صرفه عن إمارة البحرين وسيره إلى الكوفة ليكون تحت إمرة سعد.

فتح الأهواز

قدمنا أن الهرمزان لما انهزم من القادسية قصد الأهواز، وملك خوزستان[2] وكان يغير على أهل ميسان[3] يأتي إليها من مناذر ونهر تيري[4]. فأرسل عتبة بن غزوان إلى عمر يخبره بخبر الهرمزان، فأرسل عمر إلى سعد أمير الكوفة أن يمد عتبة فأمده بنعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود، وأمرهما أن يأتيا أعلى ميسان حتى يكونا بين البصرة وثغور الأهواز، وأرسل عتبة بن سلمى بن القين وحرملة بن مريط فنزلا على ثغور البصرة بميسان، ودعوا من يقيم هنالك من العرب ليكونوا مع المسلمين على قتال الفرس فأجابهم بنو العم، وكانوا ينزلون قبل الإسلام بخوزستان فاتعد الأميران مع رئيسين من هؤلاء العرب على أن يثور أحدهما بمناذر

---

(١) اصطخر: وسط إقليم فارس وهي المدينة العظمى فيه، «م».

(٢) خوزستان: من كور الأهواز وهي الآن اسم لإقليم في بلاد فارس قاعدته تستر، «م».

(٣) ميسان: كورة من البصرة وواسط، «م».

(٤) نهر تيري: من ثغور الأهواز، «م».

والآخر بنهر تيري في يوم عيناه لهما فلما كان هذا اليوم أنشب جيشا البصرة والكوفة القتال مع الهرمزان، وبينما هو يقاتل إذ جاءه الخبر بأخذ مناذر ونهر تيري فانكسرت نفسه وانهزم جيشه، فاتبعهم المسلمون إلى شاطيء دجيل[1] وعبر الهرمزان جسر سوق الأهواز، وطلب الصلح فصولح على ما دون مناذر ونهر تيري المأخوذين عنوة وأقيمت فيها حامية. وكان فتح الأهواز في السنة السابعة عشرة. ورجع باقي المسلمين إلى البصرة ومعهم بنو العم الذين هدوا للإسلام فأرسل عتبة وفداً منهم إلى عمر، وفيهم الأحنف بن قيس فلما وصلوا إليه طلب من كل منهم أن يرفع إليه حاجة، فطلب كل واحد منهم خاصة نفسه إلا الأحنف بن قيس فإنه قال: «يا أمير المؤمنين لقد يعزب عنك ما يحق لنا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة وإنما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخبر ويسمع بآذانهم». ثم ذكر حال البصرة وحال الكوفة، وبيّن ما امتاز به الكوفيون عن إخوانهم البصريين. وقال في آخر كلامه: «وقد وسع الله علينا وزادنا في أرضنا فوسع علينا أمير المؤمنين وزدنا طبقة تطوف علينا ونعيش بها» فلما سمع قوله أحسن إليهم وأقطعهم مما كان لأهل كسرى، ثم قال: إن هذا الفتى سيد قومه وكتب إلي عتبة أمير البصرة أن يسمع منه ويرجع إلى رأيه.

انتفاض الهرمزان

ثم إن الهرمزان انتفض بعد الصلح لخلاف حصل بينه وبين حامية مناذر ونهر تيري في تحديد التخوم، واستعان بالأكراد، فكتب عتبة إلى عمر يخبره بذلك، فأجابه بأن يقصده، وأمد المسلمين بحرقوص بن زهير السعدي وأمره على القتال وعلى ما غلب عليه، فسار وسار معه جيش البصرة حتى أتى جسر سوق الأهواز وعبره وقاتل الهرمزان وهزمه، وبعث في أثره جز بن معاوية ففتح سوق الأهواز وأعجزه الهرمزان، فمال إلى مدينة سوق[2] وفتحها ودعا من هرب للرجوع ودفع الجزية فأجابوا وأقام هناك والياً فعمر البلاد وشق الأنهار وأحيا الموات.

ثم إن الهرمزان راسل حرقوصاً في طلب الصلح فأجابه بعد استئذان عمر،

---

(١) دجيل: شعب من دجلة بالأهواز، «م».

(٢) سوق: قاعدة كورة بالأهواز، «م».

وأقام الهرمزان والمسلمون بمنعونه من الأكراد. ونزل حرقوص جبل الأهواز فشق ذلك على المسلمين وأهل الذمة، فكتب إليه عمر أن انزل السهل وألا تشق على مسلم ولا معاهد، وأن لا تدركك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك وتذهب آخرتك، وفي هذا الوقت ولى عمر البصرة المغيرة بن شعبة بعد وفاة أميرها عتبة بن غزوان رضي الله عنه، ثم عزله وولى عليها أبو موسى الأشعري وأعانه بتسعة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم أنس بن مالك، وعمران بن حصين، وهشام بن عامر.

وفي عهد أبي موسى كان يزدجرد ملك الفرس يمر ويدعو الفرس للأخذ بناصره واسترداد ملكهم، فتحركوا وكاتبوا أهل الأهواز الذين صالح عليهم الهرمزان، فبلغ ذلك ولاة الأهواز، فأرسلوا إلى عمر بالخبر، فكتب إلى سعد أمير الكوفة أن يسير إلى الأهواز جنداً كثيفاً مع النعمان بن مقرن، وأرسل إلى أبي موسى أمير البصرة أن يسير إليها جنداً كثيفاً مع معد بن عدي، وأن يكون قائد الجيشين أبو سبرة بن أبي برهم، فسار النعمان بن مقرن مع جيشه حتى وصل رامهرمز[1] والهرمزان بها عاص، فقاتله النعمان حتى هزمه، فلحق بتستر[2] فملك النعمان رامهرمز.

فتح تستر

ولما وصل جيش البصرة إلى الأهواز نزلوا سوقها وكانوا يريدون رامهرمز، فبلغهم خبر الواقعة، وأن الهرمزان لحق بتستر فقصدها، وكذلك النعمان وولاة الأهواز، ونزل الجميع عليها والفرس مخندقون حولها، فأقام المسلمون على حصارها، وممن أبلى فيه بلاء حسناً البراء بن مالك، ومجزأة بن ثور، وعدة من أهل البصرة والكوفة، ولما اشتد الحصار على أهل تستر خرج منهم رجل، فاستأمن المسلمين على أن يدلهم على مدخل يدخلون منه المدينة، فأمنوه فدلهم على مدخل الماء، فانتدب قائد الجيش من يسير مع الرجل، فأجابه عدة من أهل البصرة والكوفة، ودخلوا من هذا السرب، والمسلمون ينتظرون تكبيرهم، فلما

---

(١) رامهرمز: بلد بخوزستان، «م».

(٢) تستر: من مدن الأهواز قريبة من السوس، «م».

وصلوا المدينة كبروا فكبر المسلمون، وفتحت الأبواب. ومن قاتل قُتل، وتحصن الهرمزان بقلعة المدينة، فأطافوا به، فطلب منهم النزول على حكم عمر، فقبلوا ذلك منه. وقتل في هذا الحصار البراء بن مالك، ومجزأة ابن ثور.

فتح السوس

ثم سار الجيش حتى بلغ السوس[1] وفتحها صلحاً، ثم سير الأمير سرية لفتح جند نيسابور فصالح أهلها. وبعد تمام الفتح سيَّر أبو سبرة إلى عمر وفداً فيهم الأحنف بن قيس، وأنس بن مالك ومعهم الهرمزان.

وفود الهرمزان

فلما قدموا المدينة ألبسوا الهرمزان كسوته من الديباج الذي فيه الذهب وتاجه، وكان مكللاً بالياقوت وحليته ليراه عمر والمسلمون، ثم توجهوا إلى عمر في المسجد فوجدوه نائماً والدرة في يده، فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: ها هو. قال: فأين حرسه وحجابه؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب. قال: فينبغي أن يكون نبياً. قالوا: بل يعلم بعمل الأنبياء، فاستيقظ عمر، وأخبر بالهرمزان، فنظر إليه وقال: «الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشباهه» ثم أمر بنزع ما عليه وأن يلبس ثوباً صفيقاً، ثم قال له عمر: كيف رأيت عاقبة الغدر، وعاقبة أمر الله؟ فقال يا عمر: إنّا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم، فلما كان الآن معكم غلبتمونا، فقال له عمر: «إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا» ثم قال عمر: «ما حجتك، وما عذرك في انتفاضك مرة بعد أخرى؟» فقال: «أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك»، فقال: «لا تخف ذلك»، واستسقى ماء، فأتي به في قدح غليظ، فقال: «لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا»، فأتي به في إناء يرضاه، فقال: «أخاف أن أقتل قبل أن أشرب»، فقال عمر: «لا بأس عليك حتى تشربه»، فأكفأه، فقال عمر: «أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش». فقال: «لا حاجة لي في الماء، وإنما أردت أن أستأمن به»، فقال له عمر: «إني قاتلك». قال: «قد أمنتني». فقال عمر: «كذبت»، فقال أنس بن مالك: صدق يا أمير المؤمنين قد «أمنته». قال عمر يا أنس: «أنا أؤمن قاتل

---

(١) السوس: قاعدة كورة بالأهواز، «م».

البراء بن مالك، ومجزأة بن ثور. والله لتأتين بمخرج أو لأعاقبنك». قال: «قلت لا بأس عليك حتى تخبرني، ولا بأس عليك حتى تشربه». وقال من حوله مثل ذلك، فأقبل على الهرمزان وقال: «خدعتني والله لا أنخدع إلا لمسلم»، فأسلم الهرمزان، وصار من التابعين بإحسان ففرض له عمر العطاء على ألفين، وكان يترجم بينهما المغيرة بن شعبة، ثم قال عمر للوفد: «لعل المسلمين يؤذون أهل الذمة، فلذلك ينتقضون» قالوا: ما نعلم إلا وفاء. قال: «فكيف هذا؟» فقال الأحنف بن قيس يا أمير المؤمنين: إنك نهيتنا عن الإنسياح في البلاد، وإن ملك فارس بين أظهرهم ولا يزالون يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم. ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما الآخر، وقد رأيت أنّا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالإنسياح، فنسيح في بلادهم، ونزيل ملكهم، فهناك ينقطع رجاؤهم»، فقال عمر: «صدقتني والله»، وصمم على اتباع مشورته.

وقعة نهاوند

أما ملك الفرس فإنه لما اجتمعت له الجموع بنهاوند[1] سار إليهم من مرو وقام بمساعدته الملوك بين الباب والسند وخراسان وحلوان[2]، فكتب سعد إلى عمر بالخبر، وفي هذا الوقت اشتكى سعداً جماعة من أهل الكوفة، واتهموه بأنه لا يعدل، فقال عمر: «والله لا يمنعني ما نزل بالمسلمين عن النظر في شكواهم»، واستقدم سعداً، فخلف على عمله عبد الله بن عتبان، وتوجه إلى المدينة وحقق عمر ما نسب إلى سعد بواسطة محمد بن مسلمة الذي كان يقتص آثار من شكا من العمال، فوجده بريئاً، ولكن عمر كان يحب ألا يكون بين الرئيس والمرؤوس بغضاً، لأن ذلك يؤدي إلى الفشل والخيبة فعزله وولى على الكوفة النعمان بن مقرن المزني، وكان قد اقتحم جند نيسابور والسوس في جمع من أهل الكوفة، فأرسل إليه عمر عهد الولاية وهذا نصه:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان ابن

---

(١) نهاوند: من بلاد الجبل جنوبي همذان، «م».

(٢) هذه حدود المملكة الفارسية من الشمال والجنوب والشرق والغرب، «م».

مقرن سلام عليك: فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو. أما بعد.. فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا، فسر بأمر الله وبعون الله، وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا تواطئهم وعراً، فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة[1] فإن رجلاً من المسلمين أحب إليَّ من مائة ألف دينار والسلام عليك» (من تاريخ الطبري) وأمره بالمسير إلى ماه[2] لتجتمع عليه الجيوش هناك، ثم يسير بهم إلى نهاوند وكتب إلى عبد الله بن عبد الله خليفة سعد على الكوفة يأمره باستنفار الناس للتوجه إلى النعمان، وأرسل إلى جند الأهواز يأمرهم بالمقام به ليكونوا حائلاً بين أهل أقليم فارس، وبين المجتمعين بنهاوند، فلما اجتمعت الجيوش عند النعمان أرسل عمر بن ثني، وعمرو بن معد يكرب، وطليحة بن خويلد يكتشفون الطريق بين ماه ونهاوند، فأما عمر بن ثني، فرجع من ليلته، فقيل له ما أرجعك، فقال: لم أكن بأرض العجم، وقتلت أرض جاهلها، وقتل أرض عالمها، وأما عمرو بن معد يكرب، فرجع صبيحة اليوم الثاني فسئل عما رآه، فقال: سرنا يوماً وليلة، فلم نر شيئاً، وأما طليحة فلم يزل سائراً حتى رأى جيش الفرس وعرفه فرجع، فأخبرهم أن ليس بينهم وبين نهاوند شيء يكرهونه، فسار النعمان بالجيش، وعلى مقدمته أخوه نعيم بن مقرن وعلى مجنبتيه أخوه سويد بن مقرن وحذيفة بن اليمان، وعلى المجردة القعقاع، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود، وجاءهم مدد من المدينة عليهم المغيرة بن شعبة، فلما وصلوا نهاوند كبّر النعمان، فكبر الجند ثم حطوا الأثقال وضرب فسطاط النعمان أكابر الكوفة حذيفة بن اليمان، وعقبة بن عامر، والمغيرة بن شعبة، وبشير بن الخصاصية، وحنظلة الكاتب، وجرير بن عبد الله، والأشعث بن قيس، وغيرهم، فلم ير بناء فسطاط بالعرب كهؤلاء، ثم أنشب المسلمون القتال، فقاتلوا يوم الأربعاء، ويوم الخميس، وفي يوم الجمعة انحجز الفرس في خنادقهم، فخاف المسلمون أن يطول عليهم الإنتظار، فتشاوروا فيما يفعلون، ثم أقروا على أن يأمروا القعقاع بإنشاب القتال، فإذا قاتله الفرس أظهر الهزيمة أمامهم، فإذا تبعوه، وصاروا بين المسلمين قاتلوهم. ويقضي الله ما يشاء،

---

(١) الغيضة: الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف.

(٢) ماه: أراد ماه دينار أو ماه البصرة، وهي اسم بلدة بأرض فارس (معجم البلدان ٥/٤٨ ـ ٤٩).

فأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال، ففعل، فخرج الفرس من خنادقهم فأظهر القعقاع الهزيمة أمامهم فتبعوه فرحين لأنهم لم يروا مثل ذلك من المسلمين قبل الآن ولم يزالوا حتى قاربوا الجيش، فأمر النعمان جنده ألا يحاربوا حتى يأذن لهم، وانتظر الساعة التي كان رسول الله ﷺ يحب ألا يقاتل فيها إذا زالت الشمس، فلما حانت حمل وكبر، فتبعه المسلمون وقال: إن قتلت الأمير بعدي حذيفة، وقاتل المسلمون والفرس قتالاً لم يروا مثله ولا يوم القادسية. وفي أثناء القتال استشهد النعمان، فسجاه أخوه نعيم، وكتم موته عن الجند لئلا يهنوا، وأخذ الراية حذيفة واستمر القتال إلى آخر النهار، ولما أظلم الليل انهزم الفرس، وعمي عليهم الطريق فتركوه، وأخذوا نحو اللهب الذي كانوا يعبدونه، فوقع فيه كثير منهم ولم يفلت إلا الشريد، ونجا الفيرزان من بين الصرعى، فذهب شمالاً نحو همذان، فتبعته فصيلة من الجيش وقتلوه بثنية همذان، وفتحوا همذان صلحاً. ولما بلغ الماهين هذا الحبى بادروا إلى طلب الصلح، فأجيبوا. وهذا نص كتاب عهده عن الطبري:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماء بهراذان أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأرضهم لا يغيرون عن ملة، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم، ولهم المنعة ما أدوا الجزية في كل سنة إلى من وليهم على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته، وما أرشدوا ابن السبيل، وأصلحوا الطرق وقروا جنود المسلمين ممن مر بهم فأوى إليهم يوماً وليلة ووفوا ونصحوا، فإن غشوا وبدلوا، فذمتنا منهم بريئة.

شهد القعقاع بن عمرو، ونعيم بن مقرن وسويد بن مقرن، وكتب في المحرم سنة ١٩.

ثم عادت السرية وجمع المسلمون من الغنائم والأسلاب شيئاً كثيراً وكان الذي يحسب لهم ويكتب السائب بن الأقرع، فأرسله حذيفة بالخمس والبشارة، فلما قارب المدينة وجد عمر خارجاً يتنسم الأخبار لأنه قدر الواقعة قبلها، فبات يتململ، فلما رأى السائب قال: ما وراءك؟ قال: خيراً يا أمير المؤمنين فتح الله عليك وأعظم الفتح، واستشهد النعمان بن مقرن. قال عمر: ﴿إنّا لله وإنّا إليه

راجعون﴾، ثم بكى فنشج حتى بانت فروع كتفيه فوق كتده[1]. فلما رأى السائب ذلك قال يا أمير المؤمنين: ما أصيب بعده رجل يعرف وجهه، فقال: أولئك المستضعفون من المسلمين، ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم، وما يصنع أولئك بمعرفة عمر. وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف. وسمى المسلمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يقم للفرس بعده قائمة، ومما يستحق الذكر أن المسلمين عثروا في غنائم نهاوند على سفطين[2] مملوءين جوهراً نفيساً من ذخائر كسرى، فأرسلهما حذيفة أمير الجيش إلى عمر مع السائب، فلما أوصلهما له قال: ضعهما في بيت المال، والحق بجندك فركب راحلته، ورجع، فأرسل عمر وراءه رسولاً يخب[3] السير في أثره حتى لحقه بالكوفة، فأرجعه، فلما رآه عمر قال: مالي والسائب ما هو إلا أن نمت الليلة التي خرجت فيها، فباتت الملائكة تسحبني إلى السفطين يشتعلان ناراً يتوعدونني الكي إن لم أقسمهما، فخذهما عني وبعهما في أرزاق المسلمين، فبيعا بسوق الكوفة. فرضي الله عنك يا عمر لقد سرت بسيرة نبيك، فعززت وأعززت بالإسلام والمسلمين. اللهم ألهمنا الإتباع واكفنا شر الإبتداع.

ثم رجع حذيفة بجيشه بعد وقعة نهاوند فائزاً منصوراً.

فتح همذان

وبينما هو راجع بلغه أن أهل همذان انتقضوا بعد الصلح، فأبلغ الخبر عمر، فأمره أن يسير إليها نعيم بن مقرن، فرجع إليها من الطريق على تعبية، واستولى على بلادها جميعاً وحاصرها، فطلب أهلها الصلح فصولحوا على الجزية، ثم توجه إلى واج روذ[4] حيث تجمع الديلم وأهل أذربيجان وأهل الري، فقاتلهم نعيم قتالاً شديداً حتى هزمهم، وأرسل إلى عمر بالخبر فأمره بقصد الري[5] فسار حتى قدمها فخرج إليه رئيس جندها أبو الفرخان طالباً الصلح ومخالفاً لملكها،

---

(١) الكتد: مجتمع الكتفين من الإنسان.

(٢) السفط: وعاء من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء كالفاكهة ونحوها.

(٣) الخب: السير السريع.

(٤) واج روذ: موضع بين همذان وقزوين (معجم البلدان ٥/ ٣٤١).

(٥) الري: بلد قرب طهران في جنوبها الشرقي، ا م.

فاستمد الملك من جاوره فأمدوه والتقى معهم نعيم في سفح جبل الري قريباً من المدينة، وقاتلهم قتالاً شديداً. ولما رأى أبو الفرخان أن الأمر سيطول طلب من نعيم أن يعطيه فصيلة من الجيش يدخل بها المدينة من حيث لا يشعر الفرس، فسير معه جماعة دخل بهم المدينة كما قال. أما نعيم فبيت القوم فقاتلوه، ولكنهم لما سمعوا التكبير من ورائهم انهزموا شر هزيمة وأفاء الله على المسلمين في الري نحواً مما حازوه في المدائن، وجعل نعيم أبا الفرخان والياً على المدينة. وكتب إلى عمر بالفتح، فأرسل إليه أن سير أخاك سويداً إلى قومس[1] فسيره إليها، فلم يقف في وجهه أحد، فأخذها سلماً وعسكر بها، ثم كتب إليه أهلها في الرجوع إلى بلادهم، ودفع الجزية، فأجابهم وكتب لهم كتاباً هذا نصه:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هذا ما أعطى سويد بن مقرن أهل قومس، ومن حشوا من الأمان، على أنفسهم ومللهم وأموالهم، على أن يؤدوا الجزية عن كل حالم بقدر طاقته، وعلى أن يدلوا، وعليهم نزل من نزل بهم من المسلمين يوماً وليلة من أوسط طعامهم، وإن بدلوا واستخفوا بعهدهم فالذمة منهم بريئة». وكتب وشهد وسار إلى جرجان[2] وعسكر قريباً منها، فراسله ملكها على الصلح ودفع الجزية فأجابه، فخرج إليه الملك وتلقاه خارج المدينة، ثم دخل معه وعسكر بها، وجبى الخراج: وفيها راسله صاحب طبرستان[3] في الصلح على أن يتوادعا، ويجعل له شيئاً على نصر ولا معونة على أحد، فجابه وكتب له كتاباً هذا نصه:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ «هذا كتاب من سويد بن مقرن للفرخان اصبهبذ خراسان على طبرستان وجيلان من أرض العدو. إنك آمن بأمان الله عز وجل على أن تكف بصوتك وأهل حواشي أرضك، ولا تؤوي لنا بغية، وتتقي من ولي فرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك، فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك، ولا يتطرق أرضك، ولا يدخل عليك إلا بإذنك، سبيلنا عليكم بالآذان آمنة وكذلك سبيلكم، ولا تؤون لنا بغية، ولا تسلون لنا إلى عدو،

---

(١) قومس: صقع بين خراسان وبلاد الجبل، «م».

(٢) جرجان: بلد شمالي بلاد فارس، «م».

(٣) طبرستان: إقليم في الشمال، «م».

ولا تغلون، فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم» شهد سواد بن قطبة التميمي، وهند بن عمرو المرادي، وسماك بن مخرمة الأسدي بن عبيد الله العبسي، وعتيبة بن النهاس البكري.

ثم أرسل عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن عبيد الله بن عتبان أمير البصرة قبل المغيرة يأمره أن يسير إلى أصبهان، وأمر أبا موسى الأشعري أن يكون مدداً له، فسار عبد الله حتى وصل أصبهان[1]، وعلى جندها الأسبيذان، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً إنتهى بهزيمة المشركين، فطلبوا الصلح فصولحوا؛ ثم سار عبد الله إلى مدينة جي وهي قاعدة أصبهان، فحاصرها، ثم صالحه الفاذوستان، وهو أمير أصبهان عليها مشترطاً الجزية على من أقام وأقام على ماله، وأن يجري من أخذت أرضه عنوة مجراه، ومن أبى وذهب كانت لكم أرضه.

الانسياح في بلاد العجم

ولما رأى عمر رضي الله عنه أن شوكة الفرس قد ضعفت، فلم يعد يخاف على المسلمين من انسياحهم في بلاد الفرس صمم على اتباع مشورة الأحنف بن قيس، فأرسل إلى أبي موسى الأشعري الذي قدمنا أن عمر ولاه البصرة بعد المغيرة بن شعبة، وأمره أن يسير منها غير بعيد ويقيم حتى يأتيه أمره، ثم بعث إليه مع سهيل بن عدي بألوية الأمراء الذين يسيحون في بلاد العجم: لواء للأحنف بن قيس وجهته (خراسان). ولواء لمجاشع بن مسعود السلمي ووجهته (أزدشير خره وسابور) ولواء لعثمان بن أبي العاص الثقفي ووجهته (اصطخر) ولواء لسارية بن زنيم الكناني ووجهته (فساودرابجرد) ولواء لسهيل بن عدي ووجهته (كرمان) ولواء لعاصم بن عمرو وجهته (سجستان) ولواء للحكم بن عمير التغلبي ووجهته (مكران). وكان مبدأ الإنسياح في مبدأ السنة الثامنة عشر.

فتح أذربيجان

فسار بكير بن عبد الله إلى أذربيجان[2]، وكتب إلى نعيم بن مقرن فاتح

---

(١) أصبهان: في العراق العجمي، «م».

(٢) أذربيجان: ولاية في الغرب من بحر الخزر وقاعدتها الآن تبريز، «م».

السري أن يمده بسماك بن خرشة، فلما طلع بكير بجبال جرميدان[1] قابله المنهزمون من واج روذ وعليهم اسفندياز أخو رستم قتيل القادسية، فقاتلوا بكيراً، ولكنهم انهزموا وأسر اسفندياز، فقال لبكير: السلم أحب إليك أم الحرب؟ قال: بل السلم، فقال: لا تقتلني وأمسكني معك، فإن أذربيجان لا يصالحونك ما لم أصالحك، فأمسكه بكير. وبعد قليل وصل إليه مدد نعيم فسار الجميع إلى أذربيجان، فصالح أهلها على الجزية. وكتب بكير إلى عمر بذلك، فأمره أن يولي عتبة بن فرقد على أذربيجان، ويتقدم هو مدداً لجيش الباب، فكتب عتبة لأهل أذربيجان كتاباً هذا نصه:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ «هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشعابها، وأهل مللها كافة على الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ليس على صبي ولا امرأة ولا زمن ليس في يديه شيء من الدنيا، ولا متعبد ولا متخل ليس في يديه من الدنيا شيء، لهم ذلك، ولمن سكن معهم وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة، ودلالته. ومن حشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة. ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه» وكتب جندب.

فتح الباب

وسار سراقة بن عمر إلى الباب[2] وعلى مقدمته عبد الرحمن بن أبي ربيعة. وقد سبقه بكير إليها وانتظره، فلما أطل عبد الرحمن بن أبي ربيعة أمير المقدمة على الباب، والملك بها يومئذ شهريراز، كاتب عبد الرحمن في الصلح فأجابه إليه فجاءه، وقال له: «إني بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة ليست لهم أحساب، ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعينهم ولست من القبج ولا الأرمن في شيء، وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي فأنا فيكم ويدي في أيديكم وجزيتي إليكم والنصر لكم، والقيام بما تحبون فلا تسومونا الجزية فتضعفونا بعدوكم»، فأرسله عبد الرحمن

(١) ضبطه ياقوت: جرميذان، وهي جبال في نواحي همذان (معجم البلدان ٢/ ١٢٩).

(٢) الباب: ثغر بالخزر، وهو الفاصل بين الفرس وأرمينية والروس، «م».

إلى سراقة، فكلمه بمثل ما كلم عبد الرحمن، فقال له سراقة لا بد من الجزية على من أقام، ولم يحارب العدو، فأجابه إلى ذلك. وصدق عليه عمر، فكتب لهم سراقة كتاباً هذا نصه:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ «هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهريراز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم، وأموالهم وملتهم أن لا يضاروا ولا ينقصوا، وعلى أهل أرمينية والأبواب الطراء منهم والثناء، ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة، وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحاً على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض من جزائهم. ومن استغنى عنه منه وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملاً فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به» ولما فرغ سراقة من الباب سير السرايا إلى الجبال المحيطة بأرمينية فوجه بكير بن عبد الله إلى موقان[1] وحبيب بن مسلمة إلى تفليس[2] وحذيفة بن أسيد إلى جبال اللان،[3] وسلمان بن ربيعة إلى الوجه الأخر، فافتتح بكير موقان وصالح أهلها وكتب لهم هذا الكتاب:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ «هذا ما أعطى بكير بن عبد الله أهل موقان من جبال الفتح الأمان على أموالهم وأنفسهم وملتهم وشرائعهم على الجزاء دينار على كل حالم أو قيمته، والنصح ودلالة المسلم ونزله يومه وليلته، فلهم الأمان ما أوفوا ونصحوا. وعلينا الوفاء والله المستعان، فإن تركوا ذلك واستبان منهم غش فلا أمان لهم إلا أن يسلموا الغششة برمتهم وإلا فهم متمالئون». كتب (سنة ٢١).

وكتب سراقة إلى عمر بذلك، ثم توفي سراقة رضي الله عنه، واستخلف على جيشه عبد الرحمن بن أبي ربيعة، فأقره عمر وأمره أن يغزو الترك، فخرج حتى قطع الباب، فسأله شهريراز عن وجهته، فقال أريد بلنجرد[4] والترك، فقال:

---

(١) موقان: كورة بأرمينية، «م».

(٢) تفليس: بلد في القوقاز من أملاك الروس الآن، «م».

(٣) اللان: أمة وبلاد في طرف أرمينية.

(٤) بلنجرد: بلد بالخزر خلف باب الأبواب، «م».

إنّا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب، فقال عبد الرحمن لكنا لا نرضى حتى نغزوهم بلادهم وبالله إن منعنا أقواماً لو يأذن لهم أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الردم، فقال شهريراز: ومن . هم؟ قال: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر بنية ولا يزال هذا الأمر فيهم حتى يغيرهم من يغلبهم وحتى يلفتوا عن حالهم، فسار حتى بلغ بلنجرد، فلما رآه أهلها قالوا ما أجترأ علينا إلا ومعه الملائكة، ولم يقفوا في وجهه، ولم يزل حتى أبلغ خيله البيضاء على مائتي فرسخ من بلنجرد، ورجع ولم يصب أحد من جيشه، وأقام هناك والياً على جيش الباب.

فتح خراسان

وسار الأحنف بن قيس إلى خراسان ليلاقي يزدجرد ملك الفرس الذي أقام بمرو يثير الفرس على المسلمين، فلما بلغ هراة[1] افتتحها ثم سار نحو مرو الشاهجان، فخرج منها يزدجرد ولحق بمرو الروذ (كلاهما بين هراة وبلخ)، وكتب إلى خاقان الترك وإلى ملك الصغد وملك الصين يستمدهما فملك الأحنف مرو الشاهجان واستخلف عليها، ثم سار نحو مرو الروذ وخرج منها يزدجرد ولحق ببلخ[2] فملك الأحنف مرو الروذ وهنا أتته أمداد أهل الكوفة فسيرهم أمامه إلى بلخ، فساروا حتى التقوا بيزدجرد هناك، وقاتلوه فهزموه حتى عبر النهر، ولم يدرك الأحنف ومن معه الموقعة حيث أتى بعد الهزيمة، فرجع إلى مرو وأقام بها وأرسل إلى عمر بالفتح والأخماس، وأخبره بعبور يزدجرد النهر، فنهاه عمر عن العبور خلفه. أما يزدجرد فجاءته بعد عبوره أمداد الترك وعليهم خاقان، وأمداد أهل فرغانة والصغد، فعدى بهم النهر راجعاً، وترك الترك أمام الأحنف وجيشه بمرو الروذ وقصد يزدجرد مرو الشاهجان، فحصر حاميتها واستخرج منها خزائنه وأراد أن يرحل بها إلى فرغانة أو الصين، فيقيم بإحداهما، فلم يمكنه من ذلك أهل خراسان قائلين ارجع بنا إلى هؤلاء القوم، فصالحهم فإنهم أوفياء وأهل دين، وإن عدواً يلينا في بلادنا أحب إلينا من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ولا ندري ما وفاؤهم، فلم يقبل، فأخذوا منه الخزائن قهراً، فلحق بخاقان ملك الترك الذي لم يتمكن من الوقوف أمام المسلمين، وجاء الخراسانيون إلى الأحنف، فصالحوه ودفعوا إليه

(١) هراة: بلد من إقليم خراسان وهي الآن من بلاد الأفغان، «م».

(٢) بلخ: بلد قريب من نهر جيحون وهي الآن تحت حماية الروس، «م».

خزائن كسرى وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا عليه زمن الأكاسرة واغتبطوا بملك المسلمين حيث أن الرجل منهم لم يكن مكلفاً إلا بدفع شيء قليل جزاء حمايته. وبعد ذلك ماله وعرضه ودمه كمال المسلم وعرضه ودمه محرم كحرمة اليوم الحرام في الشهر الحرام في البلد الحرام، وناهيك بمن اعتبره المسلمون في ذمة الله فكيف تخفر وليس عليه بعد ذلك إلى النصيحة للمسلمين وعدم الممالأة عليهم، فإن فعل شيئاً من ذلك فقد غدر، وليست له ذمة فدمه حلال وماله حلال. وهذا شيء يسير على الإنسان ما دامت له الحرية في دينه وعمله وهذا ما قرره دين الإسلام.

وأصاب الفارس يوم يزدجرد كسهمه يوم القادسية، ثم سار الأحنف إلى بلخ وأنزلها أهل الكوفة لأنها من فتوحهم. وكتب بكل ذلك إلى عمر وأقام هو والي خراسان، وتتمة حديث يزدجرد ستأتي في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وسار عثمان بن أبي العاص الثقفي إلى اصطخر فالتقى هو وأهلها بجور[1] فهزمهم، ثم رجع من فروا منهم طالبين البقاء في بلادهم مع دفع الجزية فأجابهم، ثم فتح كازرون والنوبندجان[2]، واشترك هو وأبو موسى الأشعري في فتح شيراز[3] وأرجان وسينيز، وقصد عثمان جنابة[4] ففتحها ولقي جمعاً من الفرس بناحية شهرك فهزمهم، ثم أقام والياً باصطخر.

فتح فساو درابجرد[5]

وسار سارية بن زنيم الكلابي إلى مدينة فساودرابجرد والتقى مع أهلها بصحراء فاقتتلوا، ثم إن الفرس استمدوا من بقربهم من أكراد فارس، فأمدوهم،

---

(١) جور: هي مدينة فيروز أباد قريبة من أصبهان ينسب إليها الورد الجوري، «م».

(٢) قاعدة كورة بفارس اسمها سابور، «م».

(٣) شيراز: قصبة بلاد فارس، «م».

(٤) جنابة: بلد بفارس تحاذي جزيرة خارك بالبحر الفارسي، وتقرأ الآن كرك وهو غلط مصدره الترجمة، «م».

(٥) درابجرد: كورة بفارس نفيسة عمرها دراب بن فارس قال الاصطخري ومن مدن كورة درابجرد فسا وهي أكبر من درابجرد وأعمر، غير أن الكورة منسوبة إلى دار الملك ومدينته التي ابتناها،(معجم البلدان ٢/٤٤٦).

فدهى المسلمين أمر عظيم. وكان عمر رضي الله عنه قد رأى ليلة الواقعة فيما يرى النائم ما عليه المسلمون، فلما أصبح نادى بالصلاة جامعة حتى إذا كانت الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إلى المسلمين، وكان سارية ومن معه بصحراء إن أقاموا فيها هلكوا وإن استندوا إلى جبل خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد، فقام عمر فقال: «يا أيها الناس: إني رأيت هذين الجمعين» وأخبر بحالهما، ثم صاح وهو يخطب «يا سارية بن زنيم الجبل الجبل»، ثم أقبل على المسلمين، وقال: «إن لله جنوداً، ولعل بعضها أن تبلغهم» فبحول الله وقوته سمع سارية هذا الصوت فانحاز بمن معه إلى الجبل وقاتل العدو حتى هزموهم، فأرسل إلى عمر بالفتح والخمس ومعه سفط فيه جوهر، فلما رآه عمر لم يقبله ورده ليباع ويقسم على الفاتحين، وسأل من في المدينة رسول سارية هل سمعتم شيئاً يوم الواقعة؟ قال: نعم. سمعنا يا سارية الجبل الجبل، فلجأنا إليه، وقد كدنا نهلك وأقام سارية والياً على دارابجرد.

فتح كرمان

وسار سهيل بن عدي إلى كرمان[1] وأمده عمر بعبد الله بن عبد الله بن عتبان، فلما وصلاها وجدا بها جمعاً عظيماً من الفرس فقاتلاهم حتى فض الله جمعهم، وقتل مرزبان كرمان، فدخلها المسلمون ظافرين ووجدوا فيها كثيراً من البعير والشاة.

فتح سجستان

وسار عاصم بن عمرو إلى سجستان فاستقبله أهلها بحرب انتهت بهزيمتهم، فتبعهم المسلمون حتى حصروهم بزرنج فطلبوا الصلح على زرنج، وما احتازوه من الأرضين، واشترطوا أن فدافدها[3] حمى، فأجيبوا وكان المسلمون يتجنبون هذه الفدافد خشية أن يصيبوا منها شيئاً، فيكونوا قد خفروا الذمة وهو أمر نهوا عنه.

---

(١) كرمان: ولاية تلي إقليم فارس من الشرق وقصبتها كرمان، «م».

(٢) سجستان: ولاية شرقي كرمان أغلبها الآن في أيدي الأفغان وقصبتها زرنج، «م».

(٣) الفدافد: جمع فدفد، وهي الأرض الواسعة المستوية التي لا شيء بها، «م».

فتح مكران

وسار الحكم بن عمير التغلبي إلى مكران[1] ولحقه سهيل بن عدي فاتح كرمان وعبد الله بن عبد الله بن عتبان الذي كان مدداً لسهيل فساروا حتى انتهوا إلى دوين النهر[2] والمشركون من مكران على شاطئه وأمدهم ملك السنم بجيش كثيف فقاتلهم المسلمون حتى هزموهم وأوصلوهم النهر، ثم رجع المسلمون إلى مكران، وكتب الحكم بالفتح والخمس إلى عمر مع صحار العبدي، فسأله عمر عن مكران فقال يا أمير المؤمنين: «هي أرض سهلها جبل، وماؤها وشل[4] وثمرها وقل[3]، وعدوها بطل، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير فيها قليل، والقليل فيها ضائع، وما وراءها شر منها»، فقال عمر: «أشجاع أنت أم مخبر؟ لا والله لا يغزوها جيش لي أبداً». وكتب إلى الحكم يأمره بالوقوف عندما فتح، وألا يجوز مكران.

[خلاصة]

هذا ما فعله المسلمون من الأفعال العظيمة مدة عمر في البلاد الفارسية ذات الشوكة والعظمة ابتدأوا سنة اثنتي عشرة من الهجرة في فتح أول بلد من بلادهم وهي الأبلة واستمروا على الفتوحات إلى أن مات عمر رضي الله عنه، تمموا فتح بلاد تبتدىء من حدود بلاد العرب غرباً وتنتهي إلى ما وراء النهر وبلاد السند شرقاً، والخليج الفارسي جنوباً، وبحر الخزر وأرمينية، والروس شمالاً. اجتمعوا مع الفرض في كثير من الوقائع أشهرها وقعة الأبلة لخالد بن الوليد، ووقعة القادسية لسعد بن أبي وقاص ونهاوند للنعمان ابن مقرن، ووقعة يزدجرد للأحنف بن قيس وكثير غيرها. لم تنكس لهم راية، ولم يفل لهم جيش. ولم ير المسلمون في وقعة من الوقائع مساوين أقرانهم من الفرس في العدة والعدد، بل كان الفرس في كل

---

(١) مكران: ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى وهي بين كرمان من غربيها وسجستان شماليها والبحر جنوبيها والهند في شرقيها، قال الاصطخري: مكران ناحية واسعة عريضة والغالب عليها المفاوز والضر والقحط (معجم البلدان ٥/ ١٧٩ - ١٨٠).

(٢) دوين النهر: على الحدود بين الفرس والسند، «م».

(٣) وشل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره.

(٤) الوقل: القليل.

وقعة أضعافهم. لم يكن العرب أعلم من الفرس بتعبئة الجيوش ولا بإحكام معدات الدفاع. لم يكن المسلمون أكثر من الفرس مالاً حتى يمكنهم أن يستميلوا به أعداءهم ليكونوا معهم، بل حالهم من الشظف وضيق العيش لا تخفى. لم يكن المسلمون أعلم من الفرس بطرق الدسائس والخديعة حتى يستعملوها في حروبهم، فلمَ إذاً هذه الإنتصارات الباهرة والفتوحات العظيمة؟ اللهم ما ذلك إلا بالتأييد الإلهي اكتسبوه باتحاد وائتلاف قلوبهم حتى صاروا أجساماً متعددة لهم قلب واحد، ورأي واحد، وهو تعميم الدين الإسلامي بين الأمم الحائدة عن الصراط السوي والمنهج القويم. انظر رعاك الله إلى ما كان به رسل سعد ملوك فارس وقواده تره جواباً واحداً، وهو أن الله أرسلنا لنخرج العباد من ظلمات الجهالة، وجور الملوك إلى نور الإيمان، وعدل الإسلام كلهم في ذلك سواء حتى الأعرابي الجافي الذي كان قبل الإسلام لا هم له إلا النهب والغارة.

لم تكن خلفاؤهم بالجبناء الذين يخشون تهديداً أو يخافون وعيداً، ولم تكن قوادهم بالدخلاء الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ولم تكن الأمة بالمختلفة الأهواء المتشعبة المذاهب تشتغل بسفسف[1] الأمور وتترك عظيمها، أو تترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخوف أو جبن، ولم تكن علماؤهم يشتغلون بالزهو والكبرياء، والعجب والتفاني في حب الدنيا وتقليد المناصب والمفاخرة بذلك حتى تدب بينهم العداوة والبغضاء، ولم يكن الدين قد بليت جدته بل كانت مظاهره تتجلى على أقوالهم وأعمالهم لا يخشون في الله لومة لائم، فلا عجب أن انتصروا وفتحوا وملكوا في زمن يسير ما لا يتصور أن تعمله أمة عظيمة عندها بسطة في القوة والمال والعلم.

اللهم ألهم المسلمين وولاة أمورهم ما فيه السداد، فإن الطريق واضح والحق بيِّن، فإذا انتبهت البصائر، رشدت إلى ما فيه خيري الدنيا والآخرة، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) السفسف: الحقير.

فتح بلاد الشام

تركنا المسلمين فائزين منصورين باليرموك بعد موقعتها الهائلة وأمير الجند أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح العامري القرشي بعد سيف الله خالد بن الوليد المخزومي القرشي. وحينئذ بلغ الأمير أن فل الروم لحقوا بفحل، وأن مدداً عظيماً من قبل ملك الروم أتى دمشق، فكتب إلى أمير المؤمنين يستشيره بأي البلدين يبدأ؟ فكتب إليه أن سير إلى فحل فرقة تشغل من بها، وسر أنت إلى دمشق فإنها حصن الشام وبيت ملكه. فسير أبو عبيدة فرقة من جيشه إلى فحل فحاصرتها، وسير أخرى لتكون بين حمص ودمشق لتمنع الأمداد عنها، وأخرى لتكون بين دمشق وفلسطين، وتوجه هو وعلى مقدمته خالد بن الوليد إلى دمشق، واستخلف على فلسطين والأردن عمرو بن العاص.

فتح دمشق

فلما وصل إلى دمشق تحصن أهلها، فحصرهم المسلمون، أبو عبيدة من جهة، وخالد بن الوليد من أخرى، ودام الحصار سبعين ليلة. وبينما خالد على حصاره ليلة سمع جلبة، فأرسل من يستعلم الخبر لأنه كان يتجسس أحوال عدوه، فلا يخفى عليه منها شيء لينتهز الفرصة، فعلم أن ولد لبطريق المدينة ولد، فصنع وليمة، سكر فيها الجند سكراً شديداً، فاتخذ خالد حبالاً على هيئة السلالم وأوهاقاً[1]، ثم نهض هو ومن معه من أرباب النجدة وهو أمامهم ومعه القعقاع (قبل أن يتوجه للعراق) وأمثاله، وقال خالد لمن معه: إذا سمعتم تكبيرنا على السور فاقصدوا الأبواب، ولما وصل خالد ومن معه إلى السور رموا الحبال فعلق منها

(١) الأوهاق: جمع وهق وهو الحبل في أحد طرفيه انشوطة يطرح في عنق الدابة والإنسان حتى يؤخذ.

حبلان فصعدوا عليهما وتبعهم كثير، ولما صاروا فوق السور قصدوا الباب ففتحوه وكبروا، فدخل الجيش مكبراً حتى أزعج تكبيره أهل المدينة، فصحوا من سكرتهم مذعورين لا يقدرون على شيء، فذهب وفد منهم إلى أبي عبيدة يطلبون الأمان، فأمنهم ودخل معهم المدينة، ليؤمن الناس، فالتقى بخالد وسط البلد هذا سلماً وذاك حرباً، فأخبره أبو عبيدة بالصلح، فكف، وأجروا ما فتح عنوة مجرى الصلح، فصارت كلها صلحاً، وبعث أبو عبيدة إلى عمر بالفتح، ثم استخلف على المدينة يزيد بن أبي سفيان ففتح سواحلها: (صيدا وعرقة وجبيل وبيروت)، وسير أخاه معاوية لفتح قيسارية ففتحها. أما أبو عبيدة فسار إلى فحل، وعلى مقدمته خالد، وعلى المجنبتين عمرو بن العاص وأبو عبيدة، وعلى الخيل ضرار بن الأزور الأسدي، وعلى الرجال عياض بن غنم، وعلى الناس شرحبيل بن حسنة، فنزل شرحبيل بالناس فحلاً وحاصرها.

وفي ليلة خرج الروم يريدون بيات المسلمين، وكان شرحبيل حذراً لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة لكثرة ما كان عمر بن الخطاب يحذرهم البيات، فقاتلهم قتالاً شديداً تلك الليلة كلها ويومها كله، فلما أمسى المساء خمدت همة الروم فانهزموا وحيل بينهم وبين المدينة بمياه كانوا فجروها ووحلوا بها الأرض لتكون خندقاً حول المدينة فأخذهم المسلمون من كل جهة واستولوا على المدينة، فأرسل الأمير إلى عمر بالفتح والخمس ثم فصل من جيشه فرقتين أمر على إحداهما شرحبيل بن حسنة، ووجهه إلى بيسان، ووجه الأخرى إلى طبرية[1] ففتح كل منهما مدينته على مثل صلح دمشق. أما أبو عبيدة، فسار ومعه خالد إلى حمص فلما وصل مرج الروم التقى بجيشين بعثهما هرقل لقتال المسلمين أحدهما برياسة بطريق اسمه توذر، والثاني برئاسة شنش الرومي، فوقف خالد أمام الأول، وأبو عبيدة أمام الثاني، فلما أصبح خالد لم يجد لتوذر ولا لجيشه أثراً لأنه ترك خالداً وتوجه إلى دمشق ليفتحها ظاناً أن ليس بها حامية، فعلم خالد قصده، فتبعه وعلم به يزيد بن أبي سفيان أمير دمشق، فاستعد للقائه، فانحصر توذر بين الجيشين، فأخذ هو وجنده، ولم يفلت منهم إلا القليل. أما أبو عبيدة فإنه لاقى شنش وهزمه فرجع خالد، وقد قضي الأمر.

(١) طبرية: قصبة الأردن، «م».

فتح حمص

فسار مع أبي عبيدة إلى حمص، ولما بلغ ذلك ملك الروم وأرسل إلى بطريق حمص يأمره بالمسير إليها، وسار هو إلى الرها[1]. أما المسلمون فمروا ببعلبك ففتحوها، ولما وصلوا حمص حاصروها، فتحصن أهلها منتظرين مدد هرقل، ولكن لما طال عليهم الأمر راسلوا أبا عبيدة في صلح مثل صلح دمشق، فأجيبوا، واستخلف عليها عبادة بن الصامت وسار هو قاصداً حماه فتلقاه أهلها مذعنين، فصالحهم على الجزية والخراج، ثم سار نحو شيزر[2] ففتحها صلحاً، وقصد بعدها المعرة[3] ففتحها كذلك، ثم اللاذقية[4] فملكها عنوة وهرب سكانها، ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى بلادهم ويقيموا فيها، فقوطعوا على خراج يؤدونه. وبنى فيها المسلمون مسجداً جامعاً، ثم أرسل أبو عبيدة خالداً لفتح قنسرين[5]، فلما بلغ الحاضر قابله جمع عظيم من الروم عليهم قائد اسمه ميناس، فقاتلهم خالد حتى هزمهم، وقصد قنسرين فتحصن أهلها منه. فقال لهم: لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا، فنظروا في أمرهم وما لقيه أهل البلدان الأخرى من المسلمين فرأوا أن لا قبل لهم بالحرب ولا الحصار فطلبوا الصلح على مثل صلح دمشق، فلم يرض إلا على تخريب المدينة، فخربت حصونها، ثم أدرب[6] خالد وراء هرقل من الشام وأدرب وراءه عياض بن غنم من الروم، فترك ملك الروم الشام وودعها الوداع الأخير وسار إلى القسطنطينية، ولما بلغ عمر فعل خالد قال: أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر كان أعلم بالرجال مني.

ثم سار أبو عبيدة إلى حلب فتحصن أهلها، ثم طلبوا صلحاً بأمان على أنفسهم وأولادهم وأموالهم وكنائسهم، وحصنهم فأجيبوا، واستثنى عليهم موضع

---

(١) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام (معجم البلدان ٣/١٠٦).

(٢) شيزر: بلد قريب من حماة، «م».

(٣) المعرة: بين حماه وحلب، «م».

(٤) اللاذقية: من أعمال حلب، «م»، هي مدينة تجارية على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

(٥) قنسرين: كورة بالشام، «م».

(٦) أدرب: أي جاوز الدرب إلى العدو، والدرب هو المضيق في الجبال أو المدخل الضيق، والدربُ أيضاً كل مدخل إلى بلاد الروم (المعجم الوسيط ١/٢٧٧).

المسجد، ثم سار إلى أنطاكية، فصالحه أهلها على الجلاء لمن أرادوا الجزية على من أقام، وكانت أنطاكية أعظم ثغور الروم، فأرسل عمر إلى أبي عبيدة أن يرتب لها جماعة من المسلمين يرابطون بها ثم سار إلى معرة مصرين[1] ففتحها صلحاً، وبث السرايا لما جاورها من القرى والبلدان ففتحت لهم، ثم سار أبو عبيدة إلى قورس[2] ففتحها وفتح تل عزاز، ثم سار إلى منبج من بلاد الروم على الفرات، فصالح أهلها على مثل صلح حمص واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بأخبار الروم. وولى أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملاً، وشحن الثغور المخوفة بالمرابطين، وسار إلى بالس[3]، وبعث سرية مع حبيب بن مسلمة إلى قاصرين فصالح أهلها، وتم للمسلمين فتح الشام من هذه الناحية إلى الفرات؛ ثم عاد أبو عبيدة إلى فلسطين، وسيّر جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي، وأمده بمالك بن الحارث الملقب بالأشتر، فسلكوا درب بفراس[4] إلى بلاد الروم فلقوا هناك جمعاً للروم معهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل فأوقعوا بهم، وسيّر أبو عبيدة جيشاً آخر إلى مرعش[5] ورئيسه خالد بن الوليد ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وأخربها.

أما عمرو بن العاص الذي كان على الأردن فإنه سار إلى أجنادين، وقد تجمع بها جيش عظيم من الروم عليهم داهية منهم اسمه أرطبون فحاصره عمرو حصاراً شديداً، ثم لم يزل يتجسس حتى عرف مأخذه، فحاربه وهزمه فانتهى في هزيمته إلى إيلياء[6] فسار وراءه عمرو وحصره ثم طلب أهله الصلح على أن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب عمرو إليه بذلك، فعزم عمر على السفر إلى الشام ليتسلم بيده مفاتيح المسجد الأقصى، فسار من المدينة بعد أن ولى عليها علي بن أبي طالب، وكتب إلى عماله أن يوافوه بالجابية وهي بلد

---

(١) معرة مصرين: بليدة بنواحي حلب ومن أعمالها بينها نحو خمسة فراسخ (معجم البلدان ٥/١٥٥).

(٢) قورس: كورة بنواحي حلب وهي الآن خراب، «م».

(٣) بالس: بلد بشط الفرات، «م».

(٤) فراس: بلد بلحف جبل اللكام، وهو جبل يسامت حماه وسيزر وأفامية ويمتد شمالاً إلى صهيون والشغر وبكاس وينتهي عند انطاكية، «م».

(٥) مرعش: قرب أنطاكية، «م».

(٦) إيليا: هي بيت المقدس، «م».

بدمشق فوافوه بها، وكان أول من لقيه يزيد بن أبي سفيـان، ثم أبو عبيـدة، ثم خالد بن الوليد على الخيول عليهم الديباج والحرير، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها، وقال: «ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم إياي تستقبلون في هذا الزي وإنما شبعتم منذ سنتين، والله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم»، فقالوا: «يا أمير المؤمنين إنها يلامعة[1]، وإن علينا السـلاح». قال، «فنعم إذاً» وجاءه وهو بالجابية أهل إيلياء مستأمنين، فصالحهم على الجزية، وكتب لهم أماناً هذه صورته:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ «هذا مـا أعطى عبد الله عمـر أمير المؤمنين أهـل إيليـاء من الأمـان، أعطاهم أمـانـاً لأنفسهم وأمـوالهم، ولكنـائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها أن لا تسكن كنائسهم، ولا تُهدم ولا يُنتقص منها، ولا من حيزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت، فمن خرج منها فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثله ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كـان بها من أهـل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصـد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله[2] وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية» (ا.هـ من الطبري).

ولما دخل عمر المدينة دخل كنيسة القيامة، وجلس في صحنها وحان وقت الصلاة، فقال للبطريرك أريد الصلاة، فقال له: صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً، فلما قضى صلاته قال للبطريرك: لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدي وقالوا هنا صلى عمر، وكتب لهم ألا يجمع

---

(١) يلامعة: هي ما برق من السلاح، «م».

(٢) في الطبري بعد «وذمة رسوله» «وذمة الخلفاء» (٤/١٥٩).

على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها، ثم قال: أرني موضعاً أبني فيه مسجداً، فقال على الصخرة التي كلّم الله عليها يعقوب، ووجد عليها ردماً كثيراً، فشرع في إزالته، وتناوله بيده يرفعه في ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه وأمر ببناء المسجد.

ذكر ذلك ابن خلدون في الجزء الثاني من تاريخه، ثم ولى رضي الله عنه الولاة على الشام بعد أن قسمها أقساماً وجعل فلسطين ولايتين إحداهما قصبتها الرملة، والأخرى قصبتها إيلياء، ثم رجع رضي الله عنه إلى المدينة فائزاً منصوراً، وهذه أول مرة سافر إلى الشام.

وفي السنة الثامنة عشر حصل في الشام طاعون أتى على كثير من جند المسلمين وهو طاعون عمواس، وبلغ عمر خبره وهو متوجه إلى الشام المرة الثانية فوافاه الأمراء بسرغ[1] وفيهم أبو عبيدة، فأخبروه بالوباء وشدته، وكان مع عمر المهاجرون والأنصار فجمعهم مستشيراً أيمضي لوجهه أم يرجع فاختلفوا عليه، فمن قائل خرجت لوجه الله، فلا يصدنك عنه هذا، ومن قائل إنه بلاء وفناء فلا نرى أن تقدم عليه، ثم أحضر مهاجرة الفتح من قريش، فلم يختلفوا عليه بل أشاروا بالعودة، فنادى عمر في الناس إني مصبح على ظهر، فقال أبو عبيدة أفراراً من قدر الله، فقال نعم من قدر الله إلى قدر الله، لو كان لك إبل، فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما مخصبة، والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله، فسمع بهم عبد الرحمن بن عوف، فجاءهم، وقال إن النبي ﷺ قال: **«إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع ببلد وأنتم فيه فلا تخرجوا فراراً منه»**[2] فانصرف عمر بالناس إلى المدينة، ومات بهذا الوباء أبو عبيدة، فخلفه عمرو بن العاص فخرج بالجيش إلى موضع مرتفع من الجبال، فخف عنهم الوباء، فاستحسن عمر فعله.

---

(١) سرغ: موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك، «م».

(٢) الحديث في مسند أحمد: عن ابن عباس قال سمعت عبد الرحمن بن عوف يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان الوباء بأرض ولست بها فلا تدخلها، وإذا كان بأرض وأنت بها فلا تخرج منها» (١٩٢/١).

ومات يزيد بن أبي سفيان أمير دمشق، فاستخلف عليها أخاه معاوية، واستعمل شرحبيل بن حسنة على جند الأردن وخراجها، وأصاب الناس من الموت ما لم يروا مثله، ثم رفعه الله عنهم بعد إقامته شهوراً، فكتب الأمراء إلى عمر بما في أيديهم من المواريث، فجمع الناس واستشارهم وقال: «قد بدا لي أن أطوف على المسلمين في بلدانهم لأنظر في آثارهم، فأشيروا عليَّ وإن مواريث أهل الشام قد ضاعت فأبدأ بالشام، فأقسم المواريث، وأقيم لهم ما في نفسي ثم أرجع فأتقلب في البلاد وأبدي إليهم» فسار عن المدينة، واستخلف عليها علي بن أبي طالب، وجعل طريقه على أيلة، فلما دنا منها، وركب بعيره وعلى رحله فرو مقلوب، وأعطى غلامه مركبة، فلما تلقاه الناس قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم يعني نفسه، فسار وانتهى هو إلى إيلة فقيل للمتلقين قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها، فرجعوا، ولما قدم رضي الله عنه إلى الشام قسم المواريث، فورث بعض الورثة من بعض وأخرجها إلى الأحياء من ورثة كل منهم ورتب الشواتي[1] والصوائف[2]، وسد فروج الشام ومسالحها، واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة، واستعمل معاوية على دمشق وعزل شرحبيل عن الأردن، وقال للناس إني لم أعزله عن ريبة، ولكن أريد رجلاً أقوى من رجل واستعمل عمرو بن عتبة على الأهراء[3]، ثم قيل لعمر لو أمرت بلالاً فأذن فأمره بذلك فما بقي أحد أدرك النبي ﷺ إلا بكي حتى بل لحيته وعمر أشد الناس بكاء، وبكى من لم يدركه لبكائهم كل ذلك لذكرى رسول الله ﷺ، ثم رجع عمر إلى المدينة في ذي القعدة.

فتح مصر

ولما كان بالشام استأذنه عمرو بن العاص في فتح مصر وذكر له خيرها وأنها قوة عظيمة لمملكة الروم، وكانت إذ ذاك تابعة لهم عليها والٍ من قبلهم يقيم بالاسكندرية فسيره عمر بجيش كثيف، ثم أتبعه بالزبير بن العوام فاقتحموا باب أليون وساروا في قرى الريف إلى مصر وهناك قابلهم الجلثليق أبو مريم ومعه

(١) الشواتي: جمع الشاتية وهي السرية التي تغزو في الشتاء، «م».

(٢) الصوائف: جمع صائفة، وهي التي تغزو في الصيف، «م».

(٣) الأهراء: جمع هرى وهو بيت كبير يجمع فيه طعام، السلطان «م».

الأسقف بعثه المقوقس عظيم مصر لحماية البلاد، فلما نزل بهم عمرو بدأه بالقتال، فقال عمر: لا تعجلوا حتى نعذر إليكم وليرز إلى الجلثليق والأسقف فخرجا إليه فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية وأخبرهما بوصية النبي ﷺ بأهل مصر بسبب هاجر أم اسماعيل.

روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنكم ستفتحون مصر وهي أرض فيها يسمى القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً أو ذمة وصهراً**»، فقال قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء آمناً حتى نرجع إليك، فقال مثلي لا يخدع، ولكني أؤجلكما ثلاثاً لتنظرا، فقالا: زدنا فزادهما يوماً، فرجعا إلى المقوقس عظيم القبط وأرطبون الوالي من قِبل الروم، فأخبرهما خبر المسلمين، فأما أرطبون فأبى وعزم على الحرب، وبيّت المسلمين فهزموه هو وجنده إلى الاسكندرية، ونزل المسلمون عين شمس[1] فحاصروها وبعث عمر لحصار الفرماء[2] أبرهة بن الصباح ولحصار الاسكندرية عوف بن مالك، وراسله أهل البلاد وانتظروا ما يفعله المسلمون بعين شمس وبعد مدة من حصارها رضي أهلها بالصلح على إعطاء الجزية، وأجروا ما أخذ قبل ذلك عنوة مجرى الصلح، وشرطوا رد السبايا، فأرسل ابن العاص إلى أمير المؤمنين بذلك فأجاب وكتب لهم عمر بذلك كتاباً هذا نصه:

﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ «هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وأموالهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينقص، ولا يساكنهم النوب، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إن اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف درهم، وعليهم ما جني لصونهم، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم. ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من

(١) عين شمس: وهي المطرية، وكانت على فرع من فروع النيل، «م».

(٢) الفرماء: مدينة على الساحل من ناحية مصر، (معجم البلدان ٤/ ٢٥٥).

سلطاننا عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية، ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً على أن يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة»، ولا واردة شهد الزبير، وعبد الله ومحمد ابناه، وكتب وردان وحضر. (عن الطبري).

فدخل ذلك الصلح أهل مصر كلهم. أما المبلغ الذي قرر عليهم فبلغ ألف ومائتين وخمسين ألفاً من دنانير اليوم باعتبار الدرهم قرشين ونصفاً، فلا ينال الشخص الواحد منهم إلا عُشر الدينار أو ما يزيد عن ذلك قليلاً لأن تعداد مصر إذ ذاك كان على أقل ما ورد في كتب التاريخ عشرة آلاف ألف، ثم نزل المسلمون على الفسطاط الذي ضربه عمرو اختطوا حوله خيامهم في الموضع الذي كانوا يحاصرون مصر منه، وهجروا المدينة التي يسكنها المقوقس، وأسس عمرو بمدينته مسجده المشهور.

ولما انتهى أمر الصلح سار عمرو إلى الإسكندرية فاجتمع له من بينها وبين الفسطاط من الروم والقبط، فهزمهم، وأثخن فيهم، ونازل الإسكندرية وطلب من أهلها النزول على صلح أهل مصر، فلم يفعلوا ففتحها عنوة، وغنم ما فيها وجعلهم ذمة وكان الروم قد أخذوا في وقت الحرب شيئاً كثيراً من الأقباط أهل الأرياف فأتوا إلى عمرو وقالوا: لم نكن محاربين بل أخذت أموالنا قهراً عنا، فرد عليهم ما عرفوه أنه لهم بعد إقامة البينة على ذلك. ولما تم فتح مصر والاسكندرية وارتحل الروم إلى القسطنطينية أقام المقوقس والقبط على الصلح الذي عقده لهم عمرو وأبقى المقوقس على رياسة قومه. وكان المسلمون يشاورونه فيما ينزل بهم من المهمات إلى أن توفي. وكان يقيم بالاسكندرية، وفي بعض الأوقات بِمنف[1].

وبفتح مصر انتهى ما فعله المسلمون رضوان الله عليهم مع الروم في مدة عمر وأخذوا ولايتين عظيمتين الشام ومصر وجزءاً مهماً من جنوب بلاد الروم (الأناضول) وبالإجمال فقد أضعفوا شوكتهم وأذالوا دولتهم وحيث قد مضى القول

---

(١) منف: اسم مدينة فرعون بمصر (معجم البلدان ٥/٢١٣).

فيما كان من الفتوحات ومن الخليفتين رضي الله عنهما وكان من اللازم على المسلم أن يعرف تلك النظامات السامية التي كان يتبعها المسلمون في ذلك العصر حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من خوارق العادات فنقول:

كان عصر رسول الله ﷺ، وعصر الأمة في عهد الخليفتين من بعده مظهر الإسلام ونظاماته، فحق لنا أن نجعل هذا الوقت أساساً لنظام الإسلام في العصر الأول، ونحكم حكماً قطعياً أن المسلمين إذا اتبعوها عزوا إذا حادوا عنها ذلوا.

مقام الخلافة

مقام الخلافة هو مقام نيابة عن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا وكان الخلفاء الراشدون يستمدون أقوالهم وأفعالهم من كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، أو سنة رسول الله ﷺ ولذلك كانت الأمة تنظر إلى الخليفة نظرها إلى رسول الله ﷺ، يبذلون له الطاعة، في سرهم وعلانيتهم، ممتثلين قوله تعالى: ﴿يا أيها الَّذينَ آمنوا أطيعُوا اللَّهَ وأطيعُوا الرسولَ وأولِي الأمرِ مِنكُم﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ولا تنقُضُوا الأيمانَ بعدَ توكِيدِهَا وقد جعلتم اللَّهَ عليكم كفيلاً إنَّ اللَّهَ يعلمْ ما تفعلون ★ ولا تكونُوا كالتي نَقَضَت غزلها منْ بعدِ قوةٍ أنكاثاً﴾[2] وقوله: ﴿فمنْ نكث فإنّما ينكثُ عل نفسه وَمَنْ أوفى بما عَاهَد عليهُ اللَّهَ فسيؤتيهِ أجراً عظيماً﴾[3] فكانوا يرون أن عصيان الخليفة مروق عن الدين وخروج عن حده ولم يكن ذلك نتيجة تكبر أو ترفع من الخلفاء، حاشا لله، بل كان أصغر الناس يقف له الخليفة حتى تقضى حاجته اقتداء برسول الله ﷺ، وكان عمر يجالس الفقراء والمساكين لا يأنف من ذلك.

هذا كان حال الأمة مع الخليفة، أما الخليفة فكان لا يعتقد في نفسه أنه أرقى درجة من الأمة، قال أبو بكر في أول خطبة له: «قد وليت عليكم ولست بخيركم»، ولم يكن يظن لنفسه أدنى تصرف في أموالهم ولا دمائهم، قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم

(١) سورة النساء آية ٥٩.

(٢) سورة النحل الآيات ٩١ـ٩٢.

(٣) سورة الفتح آية ١٠.

عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[1] ولما أرسل خالد بن الوليد لأبي بكر هدية الفرس التي اعتادوا تقديمها لملوكهم عدها من الجزية، وأمر خالداً أن يحسبها منها. ولما جاءت عمر ذخائر الأكاسرة بعد فتح العراق ردها لتباع وتقسم على الفاتحين، كما أمر الله تعالى ولما عدا جبلة بن الأيهم الغساني[2] على الأعرابي فلطم وجهه أبى عمر إلا القصاص، وكان عمر يرسل لجميع الأمة في الأمصار أن من آذاه وال أو أمير فليوافِ الموسم ليقتص له، فكان الأمراء والولاء يخشون إيذاء مسلم أو ذمي لئلا يقتص منهم على رؤوس الأشهاد فينفضحوا، فكانت الأمة في نظر الخليفة سواء لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. قال أبو بكر في أول خطبة له: «الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه». ولم يكن الخليفة يحتجب عن الرعية حتى يصعب على أحد منهم أن يكلمه، فكان عمر لا يبالي أن يجلس في المسجد أو في السوق، وكانت الرحمة للأمة ملء قلوبهم، تشبهاً برسول الله ﷺ الذي سماه الله: الرؤوف، فكان أبو بكر وعمر يخرجان الليل يتفقدان أحوال البائسين من الأمة، حتى لا يكون لأحد عليهما حجة، يوم لا ينفع مال ولا بنون، وكان عمر يقول: «والله الذي بعث محمداً بالحق، لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب»، يعني بذلك نفسه، وكان إذا ولى عاملاً يقول: «اللهم إني لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا يضربوا أبشارهم من ظلمة أميره، فلا إمرة عليه دوني»، وكان يحمل الدقيق على ظهره ليوصله إلى الفقراء والمساكين. روى الطبري عن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: «خرجت مع عمر بن الخطاب رحمه الله إلى حرة واقم[3] حتى إذا كنا بصرار[4] إذا نار تؤرث فقال يا أسلم إني أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا. فخرجنا نهرول حتى دنونا، فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على

---

(١) أخرجه البخاري في العلم والفتن والتوحيد والأضاحي والمغازي والحج، ومسلم في القسامة، والترمذي في الفتن وتفسير سورة ٩، وابن ماجة في المناسك، وأحمد ١/ ٢٣٠ و٤/ ٣٣٧.

(٢) آخر ملوك الغساسنة بالشام «م».

(٣) حرة واقم: إحدى حرتي المدينة وهي الشرقية. سميت برجل من العماليق اسمه واقم (معجم البلدان ٢/ ٢٤٩).

(٤) صرار: هي موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق (معجم البلدان ٣/ ٣٩٨).

النار، وصبيانها يتضاغون[1]، فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء ـ وكره أن يقول يا أصحاب النار ـ قالت: وعليك السلام. قال: أأدنوا؟ قالت: ادن بخير، أو دع. فدنا، فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع. قال: وأي شيء في هذا القدر؟ قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر، قال: أي رحمك الله، ما يدري عمر بكم. قالت: يتولى أمرنا ويغفل عنا.

فأقبل عليَّ، فقال: انطلق بنا. فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيه كبة شحم، فقال: احمله عليَّ، فقلت: أحمله عنك على مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك وأنا أقول: أنا أحمله عنك، فقال في آخر ذلك: أنت تحمل عني وزري يوم القيامة، لا أم لك، فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهرول، حتى انتهينا إليها، فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً، فجعل يقول: ذري عليَّ وأنا أحرك لك، وجعل ينفخ تحت القدر، وكان ذا لحية عظيمة، فجعلت أنظر إلى الدخان من خلل لحيته، حتى أنضج أدم القدر، ثم أنزلها وقال: أبغيني شيئاً، فأتته بصحفة فأفرغها فيها، ثم جعل يقول: أطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا، ثم خلى عندها فضل ذلك، وقام، فقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول: قولي خيراً، إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله، ثم تنحى عنها، ثم استقبلها وربض مربض السبع، فجعلت أقول له: إن لك شأناً غير هذا، وهو لا يكلمني، حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون، ثم ناموا، وهدأوا، فقام وهو يحمد الله، ثم أقبل عليَّ وقال: يا أسلم، إن الجوع أسهرهم، وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم». بقدر ما كانت رحمتهم كانت شدتهم في جانب الله وحدوده، لا يبالون على من أقاموها عليه، متبعين ما قاله رسول الله ﷺ حينما سرقت المرأة المخزومية، وكلموه في أن يعفو عن قطع يدها: «**إنه أهلك من كان قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها**»[2]، وحد عمر ابنه في شراب

---

(١) يتضاغون: يبكون.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي والأنبياء والحدود، ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة

له فمات، لم تمنعه رقة الأبوة عن إقامة حد الله، وعلى العموم، فكان خُلُقهم القرآن والسنة لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة، ويجتهدون أن يصيبوا ما كان رسول الله ﷺ يعمله في أمره كله.

الصلاة

كان المسلمون يعتقدون أن الفارق بين المسلم وغيره، هو الصلاة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ على المؤمنينَ كِتاباً مَوقُوتاً﴾[1]. وقال: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنهي عن الفحشَاء والمنكَرِ﴾[2]. وقال رسول الله ﷺ، وقد سئل أي الأعمال أفضل: «الصلاة لوقتها»[3] فكانوا يحافظون على أوقاتها، ولما كان للشرع مقصد سام من تفضيل صلاة الجماعة لتجتمع القلوب بالتوجه لوجهة واحدة كانوا يفضلون صلاة الجماعة على صلاة الفذ[4] حتى إنهم ليتهمون تاركها بالنفاق، وناهيك بما قاله رسول الله ﷺ في حق المتخلفين عنها: «والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة، فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً، فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال، فأحرق عليهم بيوتهم» رواه البخاري، وقال رسول الله ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[5]. وكانت إمامة المسلمين في الصلاة راجعة إلى الخليفة يعدها أرفع وظائفه، ولقد استدل الصحابة رضوان الله عليهم على أحقية أبي بكر بالخلافة، باستخلاف رسول الله ﷺ له في الصلاة بالمسلمين حين مرضه، ولم يكن الخلفاء يوكلون فيها، بل كانوا يباشرونها بأنفسهم، كما كان أمراؤهم في الولايات كذلك، ومثل إمامة الصلاة الخطبة في أوقاتها، والجمعة، والأعياد، والحوادث، لا يقوم مقام الخليفة أو أميره أحد من الناس. وهذا ما كان يفعل في المساجد الكبرى في

والدارمي في الحدود، والنسائي في السرقة، وأحمد ٣/٣٨٦، ٣٩٥، ٥/٤٠٩.

(١) سورة العنكبوت آية ٤٥.

(٢) سورة النساء آية ١٠٣.

(٣) رواه مسلم في الإيمان وأحمد ١/٤١٨، ٤٤٢، ٤٤٤، و٦/٧.

(٤) الفذ: المنفرد.

(٥) رواه البخاري في الأذان ومسلم في المساجد، والنسائي في الإمامة، ومالك في الجماعة، وأحمد ٢/٦٥، ١١٢، ٤٧٥، و٣/٥٥، و٦/٤٩.

الأمصار، أما المساجد المختصة بقوم أو محلة، فكان الخليفة يعين لها من يقوم بالصلاة فيها، كما فعل عليه الصلاة والسلام مع أهل قباء وغيرهم، وليس ذلك شأن الخطبة، فإنه لم يكن في المصر الواحد إلا مسجد واحد جامع يقوم بالخطبة فيه أمير المؤمنين، أو أمير المصر، وجعل الشرع عقاب تارك الصلاة كسلاً: القتل، إن لم يتب، حسبما رآه بعض الفقهاء، ورأى آخرون أنه يعزر فحسب: أما إذا لم يعتقدها، فهو مارق من الدين، يقتل كفراً[1].

الزكاة

الزكاة هي أحد أركان الإسلام، وقد أمر الشرع بأخذها من الأغنياء وردها على الفقراء، وجعل لها نصاباً معلوماً، متى ملكه الإنسان حقت عليه في النقدين والنعم، وما يخرج من بركات الأرض وعروض التجارة، ومن منعها قوتل عليها، كما فعل أبو بكر مع مانعي الزكاة. ومصارفها مذكورة في قوله تعالى: ﴿**إنما الصّدقاتُ للفقراء والمساكين والعَاملِينَ عليها والمؤلّفةِ قلوبهُمْ وفي الرقابِ والغَارمينَ وفي سبيل الله وابنِ السَّبيل فريضةً منَ اللّهِ واللّهُ عليمٌ حكيمٌ**﴾[2].
والفقراء والمساكين هم العاجزون عن إدراك حاجاتهم بأنفسهم، والعاملون عليها هم العمال الذين يعينهم الخليفة لقبضها، والمؤلفة قلوبهم من لم يُسلموا ويُنتظر إسلامهم إن اعطوا أو أسلموا، وفي إسلامهم ضعف والإعطاء يقويه، وقد أعطى رسول الله ﷺ القسمين بعد فتح مكة، والرقاب هم المكاتبون الارقاء الذين كاتبهم مُسلّاكهم على شيء إذا دفعوه عتقوا، أو الأسارى، أو تشترى الرقاب فتعتق، والغارمون هم الذين ركبتهم الديون ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب، وسبيل الله الجهاد، وابن السبيل المنقطع عن ماله، ومن تأمل إلى نظام الزكاة وجده أبدع نظام لصلاح الأمة والحكومة فهي شيء لا يضر الأغنياء، ويعود بالنفع العميم على الفقراء، فتعم السعادة الأمة بأسرها، فلا يشتغل أفرادها بالإحتيال لأخذ أموال الناس بالباطل، سلباً أو سرقة، ولا تتولد العداوة والبغضاء بين الغني والفقير، فيتمنى هذا هلاك ذاك، وتعست أمة بين أفرادها عداوة وبغضاء.

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في كتاب الصلاة وأحكام تاركها لابن قيم الجوزية بتحقيقنا ص ٩ وما بعدها.
(٢) سورة التوبة آية ٦٠.

الحج

الحج ركن من أركان الدين العظمى، وقد فرضه الله على كل مسلم مرة في عمره. قال تعالى: ﴿ولِلَّهِ على النَّاسِ حِجُّ البيتِ مَنْ استطاعَ إليـهِ سبيلاً﴾(١). وكان الذي يتولى الحج بالمسلمين خليفتهم، وكان الخلفاء الراشدون يكتبون إلى ولاتهم بالأمصار، أن يوافقوا موسم الحج للاطلاع على أمرهم، وسيرهم، مع رعيتهم، فمن كان لأحد من الرعية عليه شكوى اقتص منه مع ما في ذلك من رؤية المسلمين في بقاع الأرض لخليفتهم، فيتجدد بذلك عندهم عهد الطاعة، وقلما كان الخلفاء ينيبون عنهم من يحج بالناس، وقد فعل رسول الله ﷺ الأمرين جميعاً فحج بنفسه حجة الوداع، وأمر أبا بكر أن يحج بالناس في السنة التاسعة.

الصوم

الصوم هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وقد فرضه الله على الأمة شهراً في السنة، لتتهذب نفوسهم، وتعطف على الفقراء والمساكين الذين بهم خصاصة، فيعطوا الزكاة عن طيب نفس، ولذا فرض الله عقبه زكاة الفطر، وتارك الصوم يعزر بما يراه الإمام رادعاً. فما أوفق هذه الأركان، وما أسعد الأمة لو اتبعتها، ولم تتهاون بشيء منها، فكلها لها حكمة باهرة لم يفرضها الباريء عبثاً، يا عجباً كل العجب، لمن يقول إني مسلم، ثم هو يترك ركناً من أركان دينه، ألا يرى أنه إذا نقض من البناء ركن تداعى له البناء كله. ويوشك أن ينقض من أسسه والعياذ بالله؟ ألهمنا يا الله الصواب، ووفقنا لما يرضيك، إنك سميع الدعاء.

القضاء

القضاء من وظائف الخلافة الكبرى، لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات، حسماً للتداعي، وقطعاً للنزاع بالأحكام الشرعية الملتقاة من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ. قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿ومَنْ لم يحكُم بما أنـزلَ اللَّهُ فـأولئـكَ هم الكـافـرونَ﴾(٢). وفي آية أخـرى ﴿فـأُوْلئـك هم

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٧.

(٢) سورة المائدة آية ٤٤.

الظّالمون﴾[1]. وفي أخرى: **﴿فأولئكَ هم الفاسقُونَ﴾**[2]. وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلونه لمن سواهم، وأول من دفعه إلى غيره، كما قال ابن خالدون هو عمر بن الخطاب فولى أبا الدرداء معه بالمدينة، وولى شريحاً بالبصرة، وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة، وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة، وهذا نصه منقولاً عن الكامل للمبرد:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ «من عبد الله عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك، أما بعد. فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك، مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشياء والأمثال، فقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى، المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر، ويحسن به الذخر، فمن صحت نيته، وأقبل على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل، في عاجل رزقه، وخزائن رحمته والسلام.

---

(١) سورة المائدة آية ٤٥.

(٢) سورة المائدة آية ٤٧.

وإنما قلد عمر القضاء لغيره لقيامه بالسياسة العامة، وكثرة أشغالها في الجهاد والفتوحات، وسد الثغور، وحماية البيضة، ولم يكن ذلك مما يقوم به لعظم العناية به، فاستخف القضاء في الواقعات بين الناس، واستخلف فيه من يقوم به تخفيفاً على نفسه، وكان الذين ينتخبون لهذا العمل العظيم من كثرت صحبتهم لرسول الله ﷺ فسطع عليهم نوره، فهم لذلك يقدرون على استنباط الأحكام من القرآن والسنة المطهرة، ويتباعدون عن كل ما يغضب الله ورسوله من جور ورشوة. قال تعالى في سورة النساء: ﴿وإذا حكمتم بين النَّاس أنْ تحكُمُوا بالعدل﴾[1] وقال: ﴿يا أيّها الّذينَ آمنوا لا تأكلوا أموالكُم بينكم بالباطل﴾[2]. حتى كانوا يتباعدون عن قبول الهدايا وإجابة الدعوة إلى الولائم، فكان الولاة إذ ذاك سراجاً يهتدى بهم في الظلمات لا يريدون إلا الله بأعمالهم بعد أن قربت منهم الدنيا، فابتعدوا عنها لعلمهم أنها ظلمات يوم القيامة فرضي الله عنهم أجمعين.

الفتيا

الفتيا في صدر الإسلام كانت مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكان نور النبوة إذ ذاك ساطعاً على الأمة، فبينهم كثير ممن روى الأحاديث وحفظها، فمن مقل، ومن مكثر، كأم المؤمنين عائشة وعبد الله بن مسعود، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وغيرهم، ولم يكن هناك أدنى مجال للكذب على رسول الله ﷺ، كيف وقد قال: «من كذب عليّ عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[3] فكان الدين خالياً من تلك الشائبة التي أحدثها خلف من بعدهم، وكان الخلفاء يستفتون كبار الصحابة فيما يعرض لهم من الحوادث، فقد استفتى عمر عبد الرحمن بن عوف فيمن قتل أرنباً في الحرم. ولخطر الفتيا كان الأصحاب يحيلون على بعضهم فيها، وكان المتصدرون لها منهم على كثرتهم سبعة عشر صحابياً، وإنما كانوا يتباعدون عنها خوف الخطأ في الأحكام.

---

(١) سورة النساء آية ٥٨.

(٢) سورة النساء آية ٢٩.

(٣) رواه البخاري في العلم والأنبياء، ومسلم في الإيمان والزهد، وأبو داود في الإيمان والعلم والترمذي في الفتن والأدب، وابن ماجة في المقدمة والأحكام، ومالك في الأقضية والدارمي في المقدمة وأحمد ١/٣٨٩، و٢/١٥٨، و٣/١٣، و٤/٤٧ و٥/١٦٦.

الحدود

قد فرض الله عقاباً لكثير من الأعمال التي تنتج الفساد في الأمة وهذا العقاب حاسم وكفيل بعدم العودة إلى الشر وهو أربعة أنواع: قتل وجلد وقطع وتعزير.

فالأول: على من قتل نفساً بغير حق أو ارتد أو سعى في الأرض فساداً، أو فر من الزحف، أو ترك الصلاة كسلاً على رأي، أو زنى بعد إحصان، لأن الزنا جناية على الأمة كلها حيث يختل نظام البيوت فيخرج الولد ولا أب له يربيه، فهو والحالة هذه أشد خطراً من جناية القتل.

والجلد لمن زنى قبل إحصانه مائة، ومن قذف غيره بزنا يجلد ثمانين، ومن شرب خمراً يجلد أربعين أو ثمانين على اختلاف الصحابة في ذلك.

والسارق تقطع يده والجاني على ما سوى النفس يقتص منه بمثل ما فعل، العين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن، والجروح قصاص، وجعل الحق في العفو للمجني عليه، أو وليه وهذا حق من حقوق الأمة أخذه الحكام حباً في الأثرة بالسلطان.

أما إذا كان القتل فما دونه خطأ فقد فرض الشرع لولي المجني عليه في القتل الدية وله فيما دون ذلك الأرش ليكون بمثابة تعويض عما فقد من نفس أو عضو، وهذا العقاب أفيد للمجني عليهم وأردع للجناة.

أما التعزير فهو فيما سوى ذلك من الأعمال التي أنكرها الدين كالغصب وترك الصوم وما شاكل ذلك وهذا فوض الشرع فيه الأمر للولاة، ولو كان كتابنا هذا من موضوعه التكلم في الفروع لاستقصينا أحكام الشرع في الحدود والجنايات، ولكن فيما ذكرناه من أمهات المسائل كفاية في الدلالة على أن نظام الشرع أرقى وأسمى مما يبتدع من النظامات التي لا تلبث على حال بل هي كل يوم في تغيير وتبديل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الجهاد

أرسل الله محمداً ﷺ بدين قويم بشيراً ونذيراً فقام بما حمل، وبلغ رسالة ربه كما يمر، ولما كان قومه العرب بدأ بهم عامة وبقريش خاصة فأرشدهم إلى

الحق وأنار لهم الطريق، ودعاهم إلى دين كله مكارم أخلاق، فتبعه قوم وجفاه آخرون، وقاموا في جهة يمنعونه تأدية رسالة ربه فصبر عليهم صبر نبي كريم رؤوف رحيم، فلم يزدهم الحلم إلا غياً، فارتكبوا صنوفاً من البغي والإيذاء له ولمن تبعه وازداد بهم الأمر حتى تآمروا على قتله فأمره الله بالهجرة إلى دار قوم اتبعوا وآمنوا به وهم الأنصار سكان المدينة الذين بايعوه على القيام دونه حتى يؤدي رسالة ربه. فواقع قريشاً جملة وقائع أولها غزوة بدر وآخرها غزوة الفتح التي فتحت فيها مكة، وسقطت دولة الأوثان من البيت الحرام فدان أكثر قريش بالدين الحنفي، وازدادوا به عزاً على عزهم في الجاهلية، ولما كان أكثر العرب ممالئاً لهم على ما هم فيه من الطغيان أمره الله بقتالهم كافة كما قاتلوا المسلمين كافة، فكان له معهم جملة مواقع آخرها وقعة هوازن بحنين التي ذهبت بها دولة الشرك من بلاد العرب، ودعا عليه الصلاة والسلام من يجاوره من أهل الكتاب إلى دينه الذي جاء مصدقاً لما بين يديه. قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿نَزّلَ عليكَ الكتابَ بالحقّ مصدقاً لما بينَ يديه وأنزلَ التّوراة والإنجيل منْ قبلُ هدىً للنّاسِ وأنزلَ الفرقان﴾[1]، فأبوا الدخول في دينه فعاهدهم وعاهدوه على ألا يكونوا مع عدوه، فلم يفوا بما عاهدوا ومالأوا الأحزاب، فنبذ إليهم على سواء وواقعهم جملة مواقع آخرها غزوة خيبر التي انفض بها جموع اليهود وزالت دولتهم.

ولما كانت دعوته عليه الصلاة والسلام عامة بحكم قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ومَا أرْسَلْنَاكَ إلاّ كافّةً للنّاسِ بشيراً ونذيراً﴾[2] وأرسل ملوك الأرض الذين كانت لهم السطوة إذ ذاك، فكاتب ملك الفرس كسرى ومن تحت حمايته من ملوك العرب، وكاتب قيصر ملك الروم ومن تحت رعايته وكاتب النجاشي ملك الحبشة ليستضيء العالم بنور الإسلام ويتساوى الصغير والكبير أمام الحق فلا يطمع الشريف في الحيف ولا ييأس الضعيف من العدل، فتتخلص الأمم من جور ملوك كانوا يعدون أنفسهم آلهة ورعيتهم عبيداً وكان مما فرضه الله على لسان نبيه أن من أسلم، فقد أحرز ماله ودمه، وصار للمسلمين أخاً لا يكلف إلا دفع الزكاة التي بها

---

(١) سورة آل عمران آية ٣ ـ ٤.

(٢) سورة سبأ آية ٢٨.

قوام الأمة، ومن أبى الإسلام لا يجبر عليه بل يرضى بحكم الإسلام ونظاماته في المعاملات ويدفع مقابل حمايته جزءاً صغيراً حده الشرع، وبذلك يكون في ذمة الله ورسوله له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، فيجب على المسلمين أن يدافعوا عنه كما يدافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وله الحرية التامة في العمل بمقتضى دينه، أما من أبى الأمرين فيقاتل، لأن الإسلام دين قويم جاء مصدقاً بجميع الكتب المنزلة قبله واحتوى على مكارم أخلاق عليها مدار السعادة في الدنيا، فأبى الدخول فيه أو الانقياد لأحكامه الدنيوية مع البقاء على دينه في عبادته لا عذر له.

ولما توفي رسول الله ﷺ كان من واجبات الخليفة بعده تتميم ما أمر به لأنه خليفته في حراسة الدين وسياسة الدنيا، فقام الخلفاء الراشدون بعده بذلك خير قيام غير هيابين ولا وكلين، فجردوا الجيوش لحرب الدولتين العظيمتين المجاورتين لبلاد العرب ـ دولة الفرس ودولة الروم ـ بعد أن كتبوا لهم الكتب يدعونهم للدخول في الإسلام أو الإنقياد لأحكامه مع إعطاء الجزاء، وكانت قيادة الجيوش من وظائف الخليفة تبعاً لرسول الله ﷺ الذي كان يخرج بنفسه في الغزوات، ولكن لما كان للخلفاء مقاصد كثيرة في بلدان متعددة يريدون فتحها في آن واحد لم يكن من بد أن يستعينوا بغيرهم في إمرة الجيوش ممن لا يقل عنهم في الشجاعة وتدبير الحرب، فانتخبوا من إخوانهم من الصحابة من يستحق أن يسند له منصب عظيم كهذا، ولم يكن ينظر فيه لغنى أو شرف قبيلة أو قدم صحبة، أو كبر سن، فقد ولى رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إمرة جيش فيه أبو بكر وعمر، وولى أسامة بن زيد إمرة جيش آخرهما فيه، وإنما كان ينظر في ذلك إلى العلم بالحرب والقدرة على تدبيرها، وإعداد كل أمر لما يناسبه. وكان الخلفاء يأمرون أمراء الجيوش بما كان يأمرهم به رسول الله ﷺ إلا يبدؤا أمة بقتال حتى يعرضوا عليهم الإسلام فإن أبوه فالجزية، فإن أبوهما فالقتال. وكانوا يوصونهم بما أوصى به أبو بكر أسامة حين سيره بعد وفاة رسول الله ﷺ بعدم الإفساد في الأرض، وعدم التعدي على النساء والصبيان والشيوخ والرهبان. وكانوا يقسمون الجيش إلى خمسة أقسام: مقدمة وساقة ومجنبتان وقلب، ولكل قسم أمير يصدر عن أمر قائد الجيش، وكانوا يقسمون الجيش بعد ذلك كراديس[1] كل كردوس ألف رجل،

---

(١) كراديس: صفوفاً.

وعلى كل كردوس رجل من الشجعان يكون فيهم بمنزلة الأمير، ثم يقسمون الكردوس إلى عشرات على كل عشرة رئيس يسمى عريفاً، وكانوا يقاتلون بالزحف عملاً بقوله تعالى: ﴿إنَّ اللَّهَ يحبُّ الَّذينَ يُقاتلونَ في سبيله صفّاً كأنّهم بنيانٌ مرصوصٌ﴾[1]، وقال عليه السلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[2]. وقتال الزحف أشد الأعداء من قتال الكر والفر الذي كان متبعاً عند العرب.

أما غنائم الحرب فكانت تقسم أخماساً، فأربعة أخماسها للغزاة الراجل ثلث الفارس، والخمس الباقي يقسم حسبما أمر الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿واعلَمُوا أنّما غنمتُمْ منْ شيء فأنّ للَّهِ خُمُسَهُ وللرّسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ [3]. وأما الأسرى فحكمهم ما ذكره الله في سورة القتال: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها﴾[4]. والمن أن يعفو الخليفة عن الأسير، فيطلقه من غير فداء، والفداء يختلف بحال الأسرى غنى وفقراً. أما سلب القتيل، فحق القاتل لا ينازع فيه، ولم يكن في العصر الأول عدد معلوم للجيش، بل كان كل مسلم ملزماً بالإستعداد عندما يتندبه الخليفة، وإذا كان الاستنفار عاماً وجب على كل مسلم الخروج، ومن تخلف ظُن فيه النفاق وعوقب أشد العقاب، وناهيك ما حصل في عهد رسول الله ﷺ للمتخلفين عن غزوة تبوك حيث نهى المسلمين عن مخالطتهم ومحادثتهم كأنهم ليسوا منهم إلى أن تاب الله عز وجل عليهم حينما ظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه[5].

وكانت العادة في عصر الخلفاء الراشدين أن من تخلف عن وجهته التي وجه إليها يشهر في الناس حتى يعتبر المعتبرون، وأول من عاقب بالقتل عن التخلف

---

(١) سورة الصف آية ٤.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة والأدب، ومسلم والترمذي في البر، والنسائي في الزكاة، وأحمد، ٤/١٠٤، ٤٠٥، ٤٠٩.

(٣) سورة الأنفال آية ٤١.

(٤) سورة محمد الآيات ٤ ـ ٧.

(٥) يشير بذلك إلى الآيات في سورة التوبة من آية ١١٧ إلى ١١٨.

عن الخروج إلى الوجهة التي أمر بها هو الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق في الدولة الأموية، وكانوا يقرعون بين الناس إذا احتاجوا لعدد معين. وكانت الجيوش تسير ونصر الله يكفلها وعنايته تحوطها لما كان عليه الأفراد من طاعة الرؤساء، وما كان عليه الأمراء من الانقياد لكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وعدم الاستئثار بشيء من الفيء أو الغنيمة، فليس ثم مجال للظنون التي تنزل بالرئيس والمرؤوس إلى الدرك الأسفل من الهوان، وانظر ما فعله أبو عبيد بن مسعود الثقفي أحد أمراء جيش العراق حينما قدم له الفرس طعاماً خاصاً فإنه سألهم هل أطعمتم الجند مثله؟ فقالوا: لم يتيسر، فامتنع من أكله وقال بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً استأثر عليهم بالفيء، وهكذا كان غيره من الأمراء رضوان الله عليهم أجمعين.

وكان كل مسلم يعتقد أن الجهاد أول واجباته فترى طفلهم يشب وقد عُود الفروسية والطعن والضرب. وكان الصبيان يتسابقون إلى درج أسمائهم في الغزاة ويحزنهم إن ردوا، وناهيك بما كان من رافع بن خديج وسمرة بن جندب حينما استصغرهما رسول الله ﷺ، فردهما، ثم أجاز رافعاً لما قيل له إنه رام، فبكى سمرة، وقال لزوج أمه أجاز رسول الله ﷺ رافعاً، وردني مع أني أصرعه، فلما علم بذلك عليه الصلاة والسلام أمرهما بالمصارعة، فغلب سمرة، فأجازه، فإذا كبر الطفل ركب الأهوال، وهو عالم بها معتقداً أنه سينال إحدى الحسنيين: إما ظفر بفتح، وإما ظفر بشهادة، وحسبك في ذلك ما أجاب به رسل سعد بن أبي وقاص رئيس جيش القادسية يزدجرد ملك الفرس ورستم قائد جيشها، فإذا تأملت إلى اتفاق جميعهم في الإجابة لم ترتب في أن أولئك قوم لهم وجهة واحدة يتجهون إليها في أقوالهم وأفعالهم، وهي نصر دين الله، وإعلاء كلمته لا يبالون بما يحول دون ذلك من الأخطار أولئك قوم جاهدوا في الله حق جهاده، فمنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير. وفي كلام الله سبحانه وتعالى، وأحاديث رسول الله ﷺ كثير من المحرضات على الجهاد، ولذلك أقبل المسلمون عليه غير هيابين ولا وكلين لا تلهيهم الأماني الكاذبة ولا تخدعهم الأوهام.

بيت المال

أول من اتخذ بيتاً للمال عمر بن الخطاب، وكان إيراده من زكاة المسلمين،

وجزية أهل الذمة، وخمس الغنائم، ومواريث من ليس لهم وارث من موتى المسلمين، فكان مطهراً من المظالم نقياً عما كانت الملوك تأخذه من أممها ظلماً.

وأما مصاريف بيت المال، فكانت الزكاة تصرف في مصارفها التي ذكرناها في الزكاة. وجزية أهل الذمة تصرف في سبيل الله وهو معدات الجهاد، وخُمس الغنائم في مصارفه المذكورة في الجهاد ومواريث الموتى تصرف فيما يراه الإمام.

ولم يكن للمستحقين شيء مخصوص يعطونه، حتى فرض عمر العطاء ودون الدواوين لحصر أسماء الغزاة، فجعل للعباس خمسة وعشرين ألف درهم في السنة، ولأزواج رسول الله ﷺ عشرة آلاف عشرة آلاف، ولأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف، ولنسائهم خمسمائة خمسمائة، وألحق بأهل بدر أربعة ليسوا منهم، الحسن والحسين ابني علي، وأبا ذر، وسلمان الفارسي، ولمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف، ولنسائهم أربعمائة أربعمائة، ولمن بعد الحديبية إلى أن انتهى أبو بكر من حروب أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف، ولنسائهم ثلاثمائة ثلاثمائة. ولمن شهد القادسية واليرموك ألفين ألفين، ولنسائهم مائتين مائتين، ولأهل البلاء النازع منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة، ولنسائهم كمن قبلهم، ولمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً، ولنسائهم كمن قبلهم، وللروادف المثنى خمسمائة خمسمائة، ثم للروادف الثليث بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة، وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين مائتين وخمسين. وفرض لمن بعدهم وهم أهل هجر والعباد مائتين مائتين سوى كل طبقة في العطاء قويهم وضعيفهم وعربهم وعجمهم، وللصبيان مائة مائة، ولكل مسكين جريبتين في الشهر، ثم قال عمر: إني كنت امرءاً تاجراً يغني الله عيالي بتجارتي، وقد شغلتموني بأمركم هذا، فما ترون أنه يحل لي من هذا المال؟ فقال علي: لك ما أصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره، فأخذ قوته واشتدت بعد ذلك حاجته، فاجتمع نفر من كبار الصحابة فيهم عثمان وعلي وطلحة والزبير، وقالوا: لو قلنا لعمر في زيادة نزيده إياها في رزقه؟ فقال عثمان: هلم فلنعلم ما عنده من وراء وراء، فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر، فأعلموها الحال وأوصوها ألا تخبر بهم عمر، فلقيت حفصة عمر في ذلك، فغضب، وقال: من هؤلاء لأسوءنهم، قالت: لا سبيل إلى علمهم قال: أنت بيني وبينهم ما أفضل ما اقتنى رسول الله ﷺ في

بيتك من الملبس؟ قالت: ثوبين بمشقين كان يلبسهما للوفد والجمع. قال: فأي الطعام ناله عندك أرفع؟ قالت: حرفاً من خبز شعير، فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا، فجعلتها دسمة حلوة، فأكل منها. قال: فأي مبسط يبسط عندك كان أوطأ؟ قالت: كساء ثخين كنا نربعه في الصيف، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه. قال: يا حفصة، فأبلغيهم أن رسول الله ﷺ قدر فوضع الفضول مواضعها، وتبلغ بالترجية، فوالله لأضعن الفضول مواضعها، ولأتبلغن بالترجية، وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضى الأول لسبيله، وقد تزود، فبلغ المنزل، ثم اتبعه الآخر فسلك سبيله، فأفضى إليه، ثم اتبعه الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما، وإن سلك طريقاً غير طريقهما لم يلقهما. فتأمل كيف أن عمر رضي الله عنه مع إقبال الدنيا على المسلمين، وتغير الأحوال عما كانت في عهد رسول الله ﷺ لم يجد لنفسه مسوغاً أن يزيد عما كان عليه رسول الله ﷺ بل اتبع هديه وسار بسيرته ليلقاه آمناً، وكان رضي الله تعالى عنه يقول: «أنا كوصي مال اليتيم إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف» إشارة إلى قوله تعالى في حق الوصي: ﴿ومَنْ كان غنيّاً فليستعفِفْ ومَنْ كانَ فقيراً فليأكُلْ بالمعروف﴾[1]، وحج رضي الله عنه مرة، فلما رجع قال لابنه: انظر كم صرفنا، فنظر فإذا هو ستة عشر ديناراً، فأخبره، فقال عمر: «لقد أسرفنا يا بني»، لا جرم أن أعزه الله ومكّن له في الأرض.

العلم والتعليم

كانت العرب أمة أميّة لا تشغل نفسها بالعلم، فلما أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق نص كثيراً على فضل العلم والتعليم والتعلُّم. قال تعالى في فضل العلم: ﴿يرفعُ اللَّهُ الّذينَ آمنوا منكُم والّذينَ أُوتُوا العلمَ درجاتٍ﴾[2]، وقال: ﴿هَلْ يستوي الّذينَ يعلمونَ والّذينَ لا يعلَمُونَ﴾[3]، وقال عليه الصلاة والسلام: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده»[4]. وقال: «العلماء ورثة

---

(١) سورة النساء آية ٦.

(٢) سورة المجادلة آية ١١.

(٣) سورة الزمر آية ٩.

(٤) رواه البخاري في ١ لعلم والخمس والاعتصام، ومسلم في الإمارة والزكاة، والترمذي في العلم،

الأنبياء»[1]، ومما قاله سبحانه وتعالى في فضل التعلم: ﴿فلولاَ نَفَرَ منْ كلّ فرقةٍ منهُمْ طائِفَةٌ ليتفقّهوا في الدّين﴾[2] وقال: ﴿فاسئلوا أهلَ الذّكر إنْ كنتُمْ لا تعلمون﴾[3]. وقال عليه السلام: «من سلك طريقاً يطلب به علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة» [4]، وقال: «باب من العلم يتعلمه الرجل خير من الدنيا وما فيها». ومما جاء في فضل التعليم قوله تعالى: ﴿ولينذِرُوا قومهُمْ إذا رجَعُوا إليهم لعلّهم يحذرون﴾[5] فجعل ثمرة العلم التعليم، وقال: ﴿وإذْ أخَذَ اللّهُ ميثاقَ الّذينَ أُوتُوا الكتابَ لتبيننّهُ للناس ولاَ تكتمونه﴾[6] وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ حين بعثه معلماً لأهل اليمن: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيراً من الدنيا وما فيها». [7]
وقال: «نعم العطية نعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوي عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة». وقال: «مثل ما بعثني به الله عز وجل كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عز وجل الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وكانت منها طائفة قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ»[8].
الأول مثل للمنتفع بعلمه، والثاني مثل للنافع بعلمه، والثالث مثل للمحروم منهما، فكانت هذه الآيات القرآنية، والأحاديث المحمدية حاضة للأمة الإسلامية على العلم وتعليمه وتعلمه، والعلم الذي حض الشرع على تعلمه هو الذي يوصل الإنسان إلى سعادته الأخروية والراحة في الدنيا وها نحن نسوق لك العلوم التي كانت تعلم في العصر الأول فنقول:

وابن ماجة في المقدمة، والدارمي في المقدمة والرقاق، وأحمد ١/٣٠٦ و٢/٢٣٤ و ٤/٩٢.

(١) أخرجه البخاري وأبو داود في العلم، وابن ماجة والدارمي في المقدمة، وأحمد ٥/١٩٦.

(٢) سورة التوبة آية ١٢٢.

(٣) سورة النحل آية ٤٣.

(٤) رواه البخاري وأبو داود في العلم، والترمذي في القرآن، وابن ماجة في المقدمة، وأحمد ٢/٢٥٢، ٣٢٥، ٤٠٧.

(٥) سورة التوبة آية ١٢٢.

(٦) سورة آل عمران آية ١٨٧.

(٧) أخرجه البخاري في الجهاد وفضائل أصحاب النبي، ومسلم في فضائل الصحابة، وأحمد ٥/٢٣٨، ٣٣٣.

(٨) رواه البخاري في العلم، وأحمد ٤/٣٩٩.

القرآن

كان أفضل ما يتعلمه المتعلمون في العصر الأول هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وما لم يعرفه الإنسان كان مقلداً في إيمانه، وهذا نقص لا ينبغي لمسلم الاتصاف به، ولا نعني بتعلمه حفظه عن ظهر قلب لأن هذا لا يتيسر للكثير من أفراد الأمة، بل نقصد قراءته بتدبر وتفهم ليعلم المسلم أوامره وزواجره، فيقف عند حده. وكان القرآن في عهد رسول الله ﷺ محفوظاً في صدور الحفاظ، ولم يكن مجموعاً في مصحف. فلما كانت خلافة أبي بكر، ومات كثير من حفاظ القرآن في وقعة اليمامة رأى رضي الله عنه أن يجمع القرآن في مصحف بعد أن أشار عليه بذلك عمر بن الخطاب، فقال: «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ، فلم يزل به حتى شرح الله صدره لذلك» فندب لهذا العمل العظيم كاتب وحي رسول الله ﷺ، وأحد الذين جمعوا القرآن في عهده ﷺ وهو زيد بن ثابت الأنصاري، فقال: «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟» فلم يزل به أبو بكر حتى شرح الله صدره لما شرح له صدر أبي بكر وعمر، فقام بهذا العمل خير قيام وجمعه من العسب[1] واللخاف[2]، وصدور الرجال ورتبه كما كان مرتباً في عهد رسول الله ﷺ ولما كان يكتب سورة التوبة، وأتى على قوله تعالى: ﴿صرفَ اللّهُ قلوبهم بأنّهم قومٌ لا يفقهون﴾[3] ظنها آخر السورة، فجاءه خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين[4]، وقال لقد أقرأني رسول الله ﷺ بعدها: ﴿لقدْ جاءكُمْ رسولٌ من أنفسِكُمْ عزيزٌ عليهِ ما عنِتّمْ حَريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ * فإنْ تولّوا فقلْ حسبيَ اللّهُ لا إلهَ إلاّ هوَ عليهِ توكّلتُ وهوَ ربُّ العرشِ العظيم﴾[5] فكتبها وحقق الله بعمل أبي بكر ما قاله في سورة الحجر: ﴿إنّا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنّا لهُ لحافِظُونَ﴾[6]، فلما كان في مدة عثمان بن عفان، وتفرق القراء

---

(١) العسب: جمع عسيب، وهي جريدة النخل المستقيمة يكشط خوصها.

(٢) اللخاف: جمع لخفة، وهو حجر أبيض عريض رقيق.

(٣) سورة التوبة الآية ١٢٧.

(٤) جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين.

(٥) سورة التوبة الآية ١٢٨.

(٦) سورة الحجر آية ٩.

في الأمصار كان بينهم اختلاف في الإقراء اختلاف ألفاظ لاختلاف اللغات، فرأى حذيفة بن ثابت أن اختلافاً كهذا بين الأمة يؤدي إلى شقاق وفساد، وأنهى ذلك إلى عثمان وحذره من سوء العقبى، فرأى عثمان أن يجمع الأمة على مصحف واحد بلغة قريش، فجمع ستة من كبار القراء فيهم زيد بن ثابت، وأمرهم بذلك، وقال لهم: إن اختلفتم في شيء فاكتبوه بلسان قريش، فكتبوا عدة مصاحف سيرها إلى الأمصار، وأبقى واحداً عنده، وهذا المصحف هو الذي بين أيدينا الآن وهو الذي أقرأه رسول الله ﷺ أصحابه، فجزى الله أصحاب رسول الله ﷺ أفضل ما جازى هداة قوم عن أمتهم، وهذا الذي نقلناه في جمع القرآن وهو ما ورد في صحيح البخاري والإتقان للسيوطي.

السنة

السنّة. ونعني بها أحاديث رسول الله ﷺ مما شرع الله من الدين قال تعالى في سورة الحشر: ﴿وما آتاكُمُ الرسولُ فخذوهُ وما نهاكُمْ عنهُ فانتهوا﴾[1] وقال: ﴿ومَا ينطقُ عَنِ الهوى﴾[2]، وكانت محفوظة في صدور رواتها، وكانوا يعلمونها أولادهم وخصوصاً ما يتعلق منها بالمغازي. يقولون: تعلموا مجد آبائكم ويعلم الله أن ذلك من أفضل التعليم للناشيء، فإنه يبث في قلبه الحمية فيشب ولا شيء أحلى عنده من اكتساب مجد يعلي قدره ويرفع ذكره، ولم تدون الأحاديث في الكتب حتى زمن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه.

الفقه

الفقه، كان في عهد أصحاب رسول الله ﷺ مراداً به كما قال الغزالي في الإحياء علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، يدلك على ذلك قوله تعالى: ﴿ليتفقّهوا في الدّينِ ولينذروا قومَهُمْ إذا رجَعُوا إليهم لعلّهم يحذرونَ﴾[3]، وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا. وقال

---

(١) سورة الحشر آية ٧.

(٢) سورة النجم آية ٣.

(٣) سورة التوبة آية ١٢٢.

تعالى: ﴿لهم قلوبٌ لا يفقهونَ بهَا﴾[1]. وأراد به معاني الإيمان، وقال ﷺ: **«ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم من مكر الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه»**[2]. قال عليه الصلاة والسلام في ضمام بن ثعلبة الأعرابي الذي وقد عليه، فآمن به وعلم أركان الدين وسلم ذلك تسليماً خالصاً من شائبة نفاق أو رياء: **«فقه الرجل»**، وهو لم يعلم بعد إلا أمهات الدين، أما المسائل التي اصطلح على تسميتها بالفقه في العصر الذي بعدهم فكانت تأتي أحكامها حسب وقائعها، ولم يكن في أصحابه من تجرد لاختراع المسائل والإجابة عليها.

التوحيد

التوحيد كان عندهم عبارة عن أن يرى الموحد الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط فلا يرى الخير والشر إلا منه جل ذكره، وكانوا يكتفون في الاستدلال على ذات الله وصفاته بما ورد في القرآن الشريف لا يعتدونه إلى ما سواه إذ كانوا على الفطرة لم تشب قلوبهم شوائب الشك والارتياب، فكانوا بعيدين عن صناعة الكلام ومعرفة طرق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات، وتأليف الإلزامات: «الأمور التي جعلت بعضهم موضوعاً للتوحيد». كان أصحاب رسول الله ﷺ في شغل شاغل عن ذلك بنصر دين الله والاجتهاد في تعميمه في بقاع الأرض. قال إمامنا المرحوم الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد:

وقد مضى زمن النبي ﷺ وهو المرجع في الحيرة والسراج في ظلمات الشبهة، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعة الأعداء، وجمع كلمة الأولياء، ولم يكن للناس من الفراغ مايخلون فيه مع عقولهم ليبتلوها بالبحث في مباني عقائدهم، وما كان من اختلاف قليل رد إليها، وقضى الأمر فيه بحكمهما

---

(١) سورة آل عمران آية ١٧٩.

(٢) وجدناه في الدارمي بلفظ: وعن علي بن أبي طالب قال: إن الفقيه حق الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره أنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فهم فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها» (سنن الدارمي ١/ ٨٩).

بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين إن كانت حاجة إلى الاستشارة، وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول العقائد، ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه يعتقدون بالتنزيه ويفوضون فيما توهم التشبيه ويرون أن له معنى غير ما يوهمه ظاهر اللفظ ا. هـ.

الحكمة

أما الحكمة التي أثنى الله عليها في قوله: ﴿ومَنْ يُؤتَ الحكمَةَ فقَدْ أُوتي خيراً كثيراً﴾[1]، والتي أثنى عليها رسول الله ﷺ في قوله: «كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير من الدنيا وما فيها»، والتي حض عليه السلام على البحث عنها في قوله: «الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنّى وجدها»[2]. فقد كانت منتشرة بين الصحابة، وورد عن كثير منهم حكم لا يحصيها العد تهذب النفس وتحيي القلب، وأكثرهم في ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وها نحن نسوق لك شذرات منها مما نقلناه من الجزء الثاني من الكتاب الموسوم بنهج البلاغة.
قال رضي الله عنه: «البخل عار، والجبن منقصة، والفقر يخرس الفطن عن حجته، والمقل غريب في بلدته، والعجز آفة والصبر شجاعة والزهد ثروة والورع جنة». وقال: «نعم القرين الرضي، والعلم وراثة كريمة، والآداب حلل مجددة والفكر مرآة صافية». وقال: «صدر العاقل صندوق سره والبشاشة حبل المودة والاحتمال قبر العيوب». وقال: «إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه». وقال: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه». وقال: «إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر»، وقال: من جرى في عنان أمله عثر بأجله»، وقال: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». ويروى هذا عن رسول الله ﷺ وقال: «من كفارات الذنوب العظام إعانة الملهوف التنفيس عن المكروب». وقال: «يا ابن آدم إذا رأيت ربك سبحانه يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره». وقال: «الحذر فوالله لقد ستر حتى كأنه غفر». وقال: «فاعل الخير خير منه وفاعل الشر شر منه». وقال: «كن سمحاً

(١) سورة البقرة آية ٢٦٩.

(٢) أخرجه الترمذي في العلم وابن ماجة في الزهد بلفظ مقارب.

ولا تكن منذراً وكن مقدراً ولا تكن مقتراً». وقال: «من أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه بما لا يعلمون». وقال: «طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب وقنع بالكفاف ورضي عنه الله»، وقال: «احذروا صولة الكريم إذا جاع وصولة اللئيم إذا شبع». وقال: « أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة». وقال: «القناعة مال لا ينفذ»، وقال: «اللسان سبع إن خلي عنه عقر». وقال: «فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها»، وقال: «لا تستح من إعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه». وقال: «إذا تم العقل نقص الكلام»، وقال: «من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم»، وقال: «قيمة كل امرىء ما يحسنه»، وقال: «أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلاً: لا يرجون أحد منكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يَستحينَّ أحد إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه، وعليكم بالصبر فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خير في جسد بغير رأس، ولا في إيمان لا صبر معه»، وقال: «من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله له أمر دنياه، ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ»، وقال: «اعقلوا الخير عقل رعاية لا عقل رواية، فإن رواة العلم كثير ولكن رعاته قليل»، وقال: «لا يترك الناس شيئاً من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم إلا فتح الله عليهم ما هو أضر منه»، وقال: «إضاعة الفرصة غصة»، وقال: عجبت للبخيل يستعجل للفقر الذي منه هرب، ويفوته الغني الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء، وعجبت للمتكبر الذي كان بالأمس نطفة ويكون غداً جيفة، وعجبت لمن شك في الله وهو يرى خلق الله، وعجبت لمن نسي الموت وهو يرى الموتى، وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء»، وقال: «لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث في نكبته وغيبته ووفاته»، وقال: «تنزل المعونة على قدر المؤنة»، وقال: المرء مخبوء تحت لسانه»، وقال: «لا يعدم الصبور الظفر، وإن طال به الزمان»[1] وقال: «الراضي بفعل قوم كالداخل معهم، وعلى كل داخل في باطل إثمان: إثم العمل

به وإثم الرضى به»، وقال: «من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها في عقولها». وقال: «من كتم سره كانت الخيرة بيده»، وقال: «الإعجاب يمنع من الازدياد»، وقال: الناس أعداء ما جهلوا»، وقال: «أزجر المسيء بثواب المحسن»، وقال: «الطمع رق مؤبد»، وقال: «من أبدى صفحته للحق هلك»، وقال: «لم يذهب من مالك ما وعظك»، وقال: «لا يزهدنك في المعروف من لا يشكر لك فقد يشكرك عليه من لا يستمتع به وقد تدرك من شكر الشاكر أكثر مما أضاع الكافر والله يحب المحسنين»، وقال: «بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد»، وقال: «من كساه الحياء ثوبه لم يرى الناس عيبه»، وقال: «الكرم أعطف من الرحم»، وقال: «من ظن بك خيراً فصدِّق ظنه»، وقال: «الحدة ضرب من الجنون فإن صاحبها يندم فإن لم يندم فجنونه مستحكم».

وهذا قليل من كثير أوردناه لك لتعلم ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ في أقوالهم وأفعالهم، فتعز بأتباعهم إن كان لك في العز حاجة.

وهذه العلوم التي كانت في العصر الأول مشغلة للمعلمين والمتعلمين لا يعرفها إلا مسلم ولا يتركها إلا منافق وهي التي بها صلاح الأمة في الدين والدنيا، وقد بقيت علوم كفايات لم يتركها المسلمون بل اشتغلوا بها لصلاح الدنيا ولا بأس أن نذكر لك بعضها لتعلم كيف كان شغلهم بها.

الكتابة

كانت الكتابة في صدر الإسلام قليلة جداً لأمّيّة العرب ولكنها أخذت في الإنتشار حينما حض على تعلمها رسول الله ﷺ. وكان ابتداء شيوعها لما جعل عليه السلام فداء بعض الأسرى في بدر أن يعلم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة، وكان لرسول الله ﷺ كتاب كثيرون لكتابة الوحي والمراسلات أشهرهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم وفي مدة الشيخين شاعت الكتابة أكثر.

لغات الأعاجم

أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم اللغة العبرانية لغة اليهود ليكون بينه وبينهم، وليكتب لهم عنه عليه السلام ما يريد أن يكتبه، فلا بأس أن يكون في

الأمة من يعرف اللغات الأعجمية متى كان هناك احتياج إلى ذلك. وكان في الصحابة كثير من عرف لغة الفرس والروم وغيرهم.

الطب

كان الطب مشتهراً بين العرب وله قوم مخصوصون اتخذوه حرفة من أشهرهم: الحارث بن كلدة، وقد انتدبه عليه السلام ليداوي مرضاً ألمّ بسعد بن أبي وقاص، وبعث عليه السلام إلى أبي بن كعب طبيباً فقطع منه عرقاً ثم كواه عليه. رواه مسلم، ولرسول الله ﷺ أحاديث في الحث على تعلم الطب منها: «**لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برىء بإذن الله**»[1]. وفي هذا الحديث حث على معرفة طبائع العقاقير، وتشخيص الداء حتى يجعل لكل داء دواءه. وورد عنه عليه السلام أحاديث في الطب منها: «**الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء**» رواه مسلم. ومنها ـ أو هو أثر ـ: «**المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة**» ويعجبني هنا ما ذكره الغزالي في الإحياء تنديداً بطلاب العلم الذين جعلوا دأبهم الاشتغال بفروع الفقه الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج لشيء منها، ويهملون ما عدا ذلك من الكفايات. قال رحمه الله: «فكم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل الذمة، ولا تجوز شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء ممن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع، فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به هل لهذا من سبب إلا أن الطب ليس يتيسر به الوصول إلى تولي الأوقاف والوصايا حيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم على الأقران والتسلط به على الأعداء». ونحمد الله أن أوجد من غير الفقهاء من يسد هذه الثلمة في الأمم فقام بتعلم الطب وإفادة الناس منه، ومن هنا يعلم أن الأمة في العصر الأول لم تكن تخلو من قائم بالكفايات التي عليها مدار العمارية والتقدم كالحساب أو الهندسة وغير ذلك. وإلى هنا انتهى ما أردنا إيراده من نظامات الإسلام وبقيت

---

(١) انظر صحيح مسلم في السلام وفضائل الصحابة، والبخاري وأبو داود وابن ماجة والترمذي في الطب، وأحمد ٣٧٧/١، ٤١٣ و٣٣٥/٣ و٣٧٨/٤.

في النفس بقية نذكر فيها معاملة المسلمين لبعضهم في العصر الأول إذ هذا هو الذي تدور عليه سعادة الأمة وشقاوتها وبه عزها وذلها، فاسمع وافقه ألهمني الله وإياك الرشد.

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿واذكروا نعمةَ الله عليكُمْ إذا كُنْتُمْ أعداء فألّفَ بينَ قلوبِكُمْ فأصبحتُمْ بنعمتِهِ إخواناً﴾[1] وقال: ﴿إنما المؤمنونَ إخوةٌ﴾[2] فكان أصحاب رسول الله ﷺ متآخين في الله متحابين، وكانت الأخوة بينهم في أعلى درجاتها وهو الإيثار على النفس. قال الله تعالى في وصف الأنصار: ﴿والّذينَ تبوؤا الدّارَ والإيمانَ مِنْ قبلهِمْ يُحبونَ مَنْ هاجَرَ إليهِمْ ولا يجدُونَ في صُدُورهم حاجةً مما أوتوا ويُؤثرون على أنفُسهم ولَوْ كانَ بهِمْ خَصَاصَة﴾[3]، فكان الرجل منهم يحب لأخيه ما يحب لنفسه عملاً بقوله عليه السلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[4] فلا يغشه لئلا يدخل تحت قوله عليه السلام: «من غشنا فليس منا»[5]، ولا يكذب عليه إذا حدثه ولا يخلفه إذا وعده ولا يخونه إذا ائتمنه لئلا يكون منافقاً، قال عليه السلام: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان»[6]. وفي حديث آخر: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر»[7]، ولا يقصر في معاونته امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البرِّ والتّقوى﴾[8]، ولا يسخر منه ولا يلمزه ولا ينابزه بالألقاب ولا يظن به الظنون ولا يتجسس عليه ولا يغتابه. قال تعالى: ﴿يا

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣.

(٢) سورة الحجرات آية ١٠.

(٣) سورة الحشر آية ٩.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان والقيامة ومسلم والنسائي في الإيمان، وابن ماجة في المقدمة، والدارمي في الاستئذان والرقاق، وأحمد ٣/٨٩ و ٣/١٧٦.

(٥) رواه مسلم في الإيمان، وأبو داود والترمذي والدارمي في البيوع، وابن ماجة في التجارات، وأحمد ٢/٥٠، ٢٤٢ و ٣/٤٦٦ و ٤/٤٥.

(٦) رواه البخاري في الشهادات ومسلم والترمذي في الإيمان

(٧) رواه النسائي في الإيمان، وأحمد ٢/١٩٨، ٥٣٦.

(٨) سورة المائدة آية ٢.

أيها الذينَ آمنوا لا يسخرْ قومٌ من قومٍ عسى أنْ يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكُنّ خيراً منهنّ ولا تلمزُوا أنفسكُمْ ولا تنابزُوا بالألقاب بئسَ الاسم الفُسُوق بعد الإيمان ومَنْ لم يتبْ فأولئكَ هم الظّالمونَ * يا أيها الذين آمنُوا اجتنبُوا كثيراً من الظنّ إنّ بعضَ الظنِّ إثمٌ ولا تجسسُوا ولا يغتَب بعضكُمْ بعضاً أيحبُّ أحدكُمْ أنْ يأكلَ لحمَ أخيهِ ميتاً فكرهتموه واتّقُوا اللّهَ إنّ اللّهَ توابٌ رحيم﴾[1] وقال عليه السلام: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»[2] وقال: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم وكل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله»[3] وقال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لامرىء أن يهجر أخاه فوق ثلاثة»[4]. ولا ينم عليه لئلا يحرم الجنة. قال عليه السلام: «لا يدخل الجنة نمام. ولا يسبه لئلا يفسق». قال عليه الصلاة والسلام: «سباب المؤمن فسوق»[5]، ولا يجرد في وجهه سيفاً لئلا تكون عاقبته النار. قال عليه السلام: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[6]. وقال الله تعالى: ﴿ومَنْ يَقْتُلْ مُؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنّمَ خالداً فيها وغَضِبَ اللّهُ عليه ولعنهُ وأعدَّ له عذاباً عظيماً﴾[7] ولا يترفع عليه

---

(١) سورة الحجرات آية ١١.

(٢) أخرجه مسلم في البر، ومالك في حسن الخلق، وأحمد ٢/٨٧، ٣١٢، ٣٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع والشروط، ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والدارمي ومالك في البيوع، وابن ماجة في التجارات، وأحمد ٢/٢٧٤، ٢٧٧، ٣٨٠، ٥١٢، ٥٢٠.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب والاستئذان، ومسلم والترمذي في البر، وأبو داود في الأدب، وابن ماجة في المقدمة، وأحمد ١/١٧٦، ١٨٣ و٣/١١٠ ـ ١٦٥ و٤/٢٠ و٥/٤١٦.

(٥) رواه أحمد ١/٤٣٩ بغير هذا اللفظ.

(٦) أخرجه البخاري في الإيمان والديات، ومسلم والنسائي في القسامة، وأبو داود وابن ماجة في الفتن، وأحمد ٤/٤٠١، ٤١٨ و٥/٤٣، ٤٧، ٤٨.

(٧) سورة النساء آية ٩٣.

لضعة في نسبه أو قلة في ماله. قال عليه السلام في حجة الوداع: «أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[(١)]. ولا يعامله بالربا، كيف وقد نهى الله تعالى عنه أشد نهي فقال وقوله الحق: ﴿الّذينَ يأكلونَ الرّبا لا يقومونَ إلاَّ كما يقومُ الّذي يتخبّطه الشّيطانُ من المسّ ذلك بأنهم قالوا إنّما البيعُ مثلُ الرّبا وأحلّ اللّهُ البيع وحرّم الرّبا فمَنْ جاءهُ موعظةٌ من ربِّه فانتهى فله ما سلف وأمرهُ إلى اللّهِ ومنْ عادَ فأولئك أصحابُ النّارِ هم فيها خالدونَ * يمحق الله الرّبا ويُربي الصدقات واللّهُ لا يحبُّ كلَّ كفّارٍ أثيم * إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وأقاموا الصّلاةَ وآتوا الزكاة لهم أجرُهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنونَ * يا أيُّها الذينَ آمنوا اتّقوا اللّهَ وذَروا ما بقيَ من الرّبا إن كنتُمْ مؤمنين * فإنْ لم تفعلوا فأذَنوا بحرب منَ اللّهِ ورسوله وإنْ تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلمونَ ولا تُظلَمُونَ * وإنْ كان ذو عُسرةٍ فَنَظرةٌ إلى ميسرة وأنْ تصدّقوا خيرٌ لكم إنْ كنتُمْ تعلمونَ * واتّقوا يوماً تُرجعونَ فيه إلى اللّهِ ثمّ تُوفّى كلُّ نفسٍ ما كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظلمونَ﴾[(٢)] فليتدبر هذا النهي أولو النهي من المسلمين ليعرفوا كيف آلت حالهم إلى ما هم عليه الآن.

وكان المسلم يرى أن من دينه نصيحة أخيه قال عليه السلام: «الدين النصيحة، قيل لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[(٣)]، ويمنع عنه أذى يده ولسانه. وقال عليه السلام: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[(٤)]. وكان الحياء من شعارهم قال عليه السلام: «الحياء من الإيمان»[(٥)] وكانوا يطعمون الطعام ويقرؤون السلام قال عليه السلام وقد سئل أي الأعمال أفضل: «تطعم الطعام وتقرأ

---

(١) رواه أحمد ٥/٤١١.

(٢) سورة البقرة الآيات ٢٧٥ ـ ٢٨١.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم في الإيمان.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي في الإيمان، وأبو داود في الجهاد، والدارمي في الرقاق، وأحمد ١/١٦٠، ٢٠٥ و٣/١٥٤، ٣٧٣ و٤/١١٤ و٦/٢١.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي في الإيمان، وأبو داود في السنة وابن ماجة في المقدمة، ومالك في حسن الخلق، وأحمد ٢/٥٦، ٥٣٢ و٥/٢٦٩.

السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[1] يحبون الله ورسوله أكثر من الأموال والأولاد. قال عليه السلام: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[2]. ومن المعلوم أن المحبة ليست شقشقة اللسان إنما هي الطاعة في الأقوال والأفعال. قال تعالى: ﴿قلْ إنْ كنتُمْ تُحبُّونَ اللَّهَ فاتّبعوني يحبِبْكُمَ اللَّهُ ويغفرْ لكم ذنوبكُمْ﴾[3].

وآداب الإسلام التي كان المسلمون يتمسكون بها في العصر الأول لا نمل من أن نذكر لك بعضاً منها ليكون لك من نفسك زاجر. قال الله سبحانه: ﴿ليس البرّ أنْ تولّوا وجوهَكُمْ قِبلَ المشرق والمغربِ ولكنّ البرّ مَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ وآتى المالَ على حبِّهِ ذوي القربى واليتامى والمساكينَ وابنِ السبيلِ والسائلينَ وفي الرقابِ وأقامَ الصّلاةَ وآتى الزكاةَ والموفونَ بعهدهم إذا عاهدوا والصّابرينَ في البأساء والضّراء وحينَ البأسِ أولئكَ الّذينَ صدقُوا وأولئكَ هُمُ المتّقونَ﴾[4] وقال: ﴿ولا تأكُلُوا أموالكم بينكم بالباطلِ وتدلُوا بها إلى الحكّامِ لتأكلُوا فريقاً مِنْ أمولِ النّاسِ بالإثمِ وأنتم تعلمون﴾[5] وقال: ﴿ولا تعتدُوا إنّ اللَّهَ لا يحبُّ المعتدينَ﴾[6]. وقال: ﴿يسألونكَ ماذا ينفقُونَ قلْ ما أنفقتُمْ من خيرٍ فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابنِ السّبيلِ وما تفعلُوا من خير فإنّ اللَّهَ بهِ عليم﴾[7]. وقال: ﴿يا أيّها الّذينَ آمنوا أنفِقُوا من طيّباتِ ما كسبتُمْ وممّا أخرجنا لكم منَ الأرضِ ولا تيمّموا الخبيثَ منهُ تُنفقونَ ولستُمْ بآخذيهِ إلاّ أنْ تُغمضُوا فيهِ واعلمُوا أنّ اللَّهَ غنيّ حميدُ﴾[8]. وقال: ﴿إنْ تُبدوا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي في الإيمان، وأبو داود في الأدب، وابن ماجة في الأطعمة، وأحمد، ٢/١٦٩.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في الإيمان، وابن ماجة في الفتن.

(٣) سورة آل عمران آية ٣١.

(٤) سورة البقرة آية ١٧٧.

(٥) سورة البقرة آية ١٨٨.

(٦) سورة البقرة آية ١٩٠.

(٧) سورة البقرة آية ٢١٥.

(٨) سورة البقرة آية ٢٦٧.

الصَّدقات فنعما هي وإنْ تخفوها وتُؤتوها الفقراء فهوَ خيرٌ لكم ويكفِّر عنكم منْ سيئاتِكُمْ واللَّهُ بما تعملون خبيرٌ﴾[1] وقال: وهي من أهم ما يجب على المسلمين تنفيذه: ﴿ولتكنْ منكم أمةٌ يدعونَ إلى الخير ويأمرونَ بالمعروف وينهونَ عن المنكرِ وأولئك همُ المفلِحُونَ * ولا تكونُوا كالّذينَ تفرّقُوا واختلفُوا منْ بعدِ ما جاءهم البيّناتُ * وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ﴾[2] وقال: ﴿اعبدوا اللّهَ ولا تُشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكينِ والجار ذي القربي والجار الجُنُبِ والصَّاحب بالجنب وابنِ السّبيل وما ملكتْ أيمانكم إنَّ اللَّهَ لا يحبُّ من كانَ مُختالاً فخوراً﴾[3] وقال: ﴿إنَّ اللّهَ يأمُرُكم أنْ تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها وإذا حكمتم بينَ النّاس أنْ تحكموا بالعدل إنَ اللّهَ نِعمَّا يعظُكُم به إنَ اللّهَ كانَ سميعاً بصيراً﴾[4]. وقال: ﴿يا أيها الّذينَ آمنوا كُونوا قوّامينَ بالقسطِ شهداء للّهِ ولو على أنفسكُم أو الوالدينِ والأقربينَ﴾[5]وقال: ﴿يا أيّها الّذينَ آمنوا أوفُوا بالعقود﴾[6] وقال: ﴿ولا يجرمنّكُم شنئانُ قوم على ألاّ تعدلُوا اعدلوا هوَ أقربُ للتقوى﴾[7] وقال: ﴿قُلْ تعالوا أتلُ ما حرّمَ ربّكم عليكم ألاّ تُشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلُوا أولادكُمْ منْ إملاقٍ نحنُ نرزقكُمْ وإيّاهُمْ ولا تقربوا الفَواحشَ ما ظَهرَ مِنْها ومَا بطنَ ولا تقتلُوا النفسَ التي حرّمَ اللّهُ إلاّ بالحقِّ ذلكـم وصّاكُمْ بِهِ لعلّكم تعقلُونَ * ولا تقربوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هي أحسنُ حتى يبلغَ أشدّهُ وأوفُوا الكيلَ والميزانَ بالقسطِ لا نكلفُ نفساً إلاّ وسعَهَا وإذا قُلتم فاعدلُوا ولو كـانَ ذا قربى وبعهد اللّهِ أوفُوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكّرونَ * وأنّ هذا صِراطي مُستقيمـاً فاتبعوهُ ولا تتّبعوا السُّبلَ فتفرقَ بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون﴾[8] وقال: ﴿إنّ اللّهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسان وإيتـاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظُكُمْ لعلّكم تذكرون * وأوفُوا بعهدِ اللّهِ إذا عاهدتُّم ولا تنقُضُوا الأيمانَ بعدَ توكيدِها وقدْ جعلتُمُ اللّهَ عليكُمْ كفيلاً إنَّ اللّهَ يعلمُ ما تفعلون﴾[9]

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧١.
(٢) سورة آل عمران آية ١٠٤.
(٣) سورة النساء آية ٣٦.
(٤) سورة النساء آية ٥٨.
(٥) سورة النساء آية ١٣٥.
(٦) سورة المائدة آية ١.
(٧) سورة المائدة آية ٨.
(٨) سورة الأنعام الآيات ١٥١ ـ ١٥٣.
(٩) سورة النحل آية ٩٠.

وقال: ﴿وقضى رَبُّكَ ألّا تعبدوا إلّا إياه وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغنّ عِندكَ الكِبَرَ أحدُهُما أوْ كلاهُما فلا تقلْ لهما أف ولا تنهرهما وقُلْ لهما قولاً كريماً * واخفضْ لهما جناحَ الذُّلِّ مِنَ الرُّحمةِ وقُلْ رب ارحمهما كما ربَّياني صغيراً * ربُّكم أعلمُ بما في نفوسِكم إنْ تكونوا صالحينَ فإنّهُ كانَ للأوّابينَ غفوراً * وآتِ ذا القربى حقّه والمسكينَ وابنَ السّبيلِ ولا تُبذِّر تبذيراً * إنّ المبذّرينَ كانوا إخوانَ الشّياطينِ وكانَ الشّيطانُ لربِّهِ كفوراً * وإمّا تُعرضنّ عنهم ابتغاء رحمةٍ من ربِّك ترجُوها فقلْ لهم قولاً ميسوراً * ولا تجعلْ يدكَ مغلولةً إلى عُنقِكَ ولا تبسُطها كلَّ البسط فتقعدَ ملوماً محسوراً * إنّ ربّكَ يبسطُ الرّزقَ لمنْ يشاء ويقدُر إنّهُ كان بعباده خبيراً بصيراً * ولا تقتلُوا أولادَكم خشيةَ إملاقٍ نحنُ نرزقهم وإيّاكم إنّ قتلهم كانَ خِطأً كبيراً * ولا تقربوا الزّنا إنّه كان فاحشةً وساء سبيلاً * ولا تقتلُوا النّفسَ التي حرّمَ اللّهُ إلاّ بالحقِّ ومنْ قُتِلَ مظلوماً فقدْ جعلنا لوليهِ سُلطاناً فلا يُسرفْ في القتلِ إنّهُ كانَ منصوراً * ولا تقربُوا مالَ اليتيمِ إلاّ بالّتي هيَ أحسنُ حتى يبلغَ أشُدّهُ * وأوفُوا بالعهدِ إنّ العهدَ كانَ مسئولاً * وأوفُوا الكيلَ إذا كلتم وزِنُوا بالقسطاس المستقيم * ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً . ولا تقفُ ما ليسَ لكَ به علمٌ إنّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنه مسؤولاً * ولا تمشِ في الأرضِ مَرحاً إنّكَ لنْ تخرقَ الأرضَ ولنْ تبلغَ الجبالَ طولا ، كلُّ ذلكَ كانَ سيئهُ عند ربّك مكروهاً﴾[1] وقال: ﴿قد أفلحَ المؤمنون ، الّذينَ هم في صلاتهم خاشعونَ ، والّذينَ هم عن اللغو مُعرِضُونَ ، والّذينَ هم للزكاةِ فاعلونَ والّذينَ هم لفُروجهم حافظون * إلاّ على أزواجهم أو ما ملَكَتْ أيمانهم فإنّهم غيرُ ملومين * فمن ابتغى وراء ذلكَ فأولئك هم العادونَ * والّذينَ هم لأماناتهم وعهدهم راعونَ * والّذينَ هم على صلواتهم يُحافظُونَ * أولئكَ هم الوارثونَ * الّذينَ يرثونَ الفِرْدَوسَ هم فيها خالدون﴾[2] وقال: ﴿وإذْ قالَ لقمانُ لابنهِ وهوَ يعظهُ يا بنيّ لا تُشركْ باللّهِ إنّ الشّركَ لظلمٌ عظيمٌ ، ووصّينا الإنسان بوالديه حملتهُ أمّهُ وهناً على وهنٍ وفصالُه في عامين أنْ اشكرْ لي ولوالديكَ إليّ المصير * وإنْ جاهداكَ على أن تُشركَ بي ما ليس لكَ به علمٌ فلا تُطِعْهُمَا وصاحبهما في الدُّنيا مَعروفاً واتبعْ سبيلَ منْ أنابَ إليّ ثمّ إليّ

---

(١) سورة الإسراء الآيات ٢٣ ـ ٣٨ .

(٢) سورة المؤمنون الآيات ١ ـ ١١ .

مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون * يا بنيّ إنّها إنْ تكُ مثقالَ حبةٍ منْ خردل فتكنْ في صخرةٍ أو في السّمواتِ أو في الأرض يأتِ بها الله إنّ اللّهَ لطيفٌ خبيرٌ * يا بنيّ أقمِ الصلاةَ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبرْ على ما أصابكَ إنّ ذلكَ مِنْ عزمِ الأمور * ولا تُصَعّرْ خدّكَ للنّاس ولا تمشِ في الأرضِ مَرحاً إنّ اللّهَ لا يحبُّ كلّ مختالٍ فخورٍ * واقصِدْ في مشيِكَ واغضضْ في صوتِكَ إنّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحميرِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿فمنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يرهُ، ومن يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً يره﴾[2].

هذا ولو أردنا استقصاء الآداب الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم والسنّة المطهرة لاحتجنا إلى مجلدات ولكنا أردنا بما ذكرنا أمرين: الأول أنّا ذكرنا لك أمهات الفضائل التي كان المسلمون في العصر الأول متخلقين بها، والثاني أنّا لفتنا نظرك أيها المسلم لمذاكرة القرآن لتعرف ما احتوى عليه من الآداب والحكم فتقف عندما حده لك ومذاكرة السنّة المطهرة الهادية ولا تكن ممن يضعها في بيته تبركاً بأوراقها ونقوشها، والله الهادي إلى الصراط المستقيم.

مقتل عمر

لم يصب المسلمون في العصر الأول بمصيبة بعد وفاة رسول الله ﷺ أعظم من قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: جنى عليه غلام مجوسي اسمه أبو لؤلؤة كان للمغيرة بن شعبة. وها نحن نسوق لك ما رواه البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون في هذا المصاب الجلل. قال عمرو إني لواقف ما بيني وبينه (عمر) إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب، وكان إذا مر بين الصفين قال استووا حتى إذا لم ير فيهن خللاً تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبّر فسمعته يقول قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة، فسار العلج[3] بسكين ذا طرفين لا يمر على أحد يميناً وشمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً فمات منهم سبعة، فلما رأى ذلك من المسلمين طرح عليه برنساً فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه

---

(١) سورة لقمان الآيات ١٣ ـ ١٩.

(٢) سورة الزلزلة آية ٧.

(٣) العلج من الرجال: الشديد الكثير الصرع لأقرانه.

وتناول (عمر) يد عبد الرحمن بن عوف، فقدمه فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة. فلما انصرفوا قال يا ابن عباس: انظر من قتلني فجال ساعة، ثم جاء فقال غلام المغيرة. قال: الصنع؟ قال: نعم. فقال: قاتله الله لقد أمرت به معروفاً، الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدَّعي الإسلام، وقد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثرا العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقاً، فقال: إن شئت فعلت. أي إن شئت قتلنا. قال: كذبت بعدما: تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم، فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول لا بأس عليه، وقائل يقول أخاف عليه، فأتى بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه، ثم أُتي بلبن فشربه، فخرج من جوفه، فعلمو أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، قال وددت أن ذلك كفاف لا عليَّ ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض. قال: ردوا الغلام. قال: يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك وأتقى لربك. يا عبد الله بن عمر انظر ما عليَّ من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه. قال: إن وفَّى بذلك مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم، فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم فأدَّ عني هذا المال. إنطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلم واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسي ولأوثرن به اليوم على نفسي، فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء، فقال: ارفعوني فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت. قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إليَّ من ذلك، فإذا قضيت فاحملوني، ثم سلم، فقل يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت فأدخلوني وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة (بنت عمر) والنساء تسير معها فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل، فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف، فقال كما ورد في رواية مسلم: «أتحمل أمركم حياً وميتاً لوددت أني أحظى منها من الكفاف لا عليَّ ولا لي، وإن استخلف فقد استخلف من هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أترككم فقد ترككم من هو أفضل مني - يعني رسول الله ﷺ - قال عبد الله بن عمر: فعرفت أنه - حين ذكر رسول الله ﷺ غير مستخلف، ثم قال عمر: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمى علياً وعثمان والزبير وسعداً وطلحة وعبد الرحمن بن عوف، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمرة سعداً، فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة. وقال: يوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يدفع لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً، فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو وألا يأخذ عنهم إلا فضلهم عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يأخذ من حواشي أموالهم وترد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعدهم وأن يقاتل من وراءهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم، فلما قبض خرجنا به، فانطلقنا نمشي، فسلم عبد الله بن عمر، وقال: يستأذن عمر بن الخطاب قال: ادخلوا. فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه.

وهناك قال علي رضي الله عنه كما في رواية البخاري عن ابن عباس «رحمك الله إن كنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك لأني كثيراً ما كنت أسمع رسول الله ﷺ يقول: كنت وأبو بكر وعمر، وفعلت وأبو بكر وعمر، وانطلقت وأبو بكر وعمر، فإن كنت لأرجو أن يجعلك الله معهما». فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن بن عوف: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم: فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، وقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن (لعثمان وعلي) أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه، والله عليه والإسلام لينظرن إلى

أفضلهم في نفسه، فأسكت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلي والله على أن لا آلوا عن أفضلكم؟ قال: نعم، فأخذ بيد أحدهما (علي)، فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ وقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمَّرتك لتعدلن، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر، فقال مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق. قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه وبايع له علي وولج أهل الدار، فبايعوه ولما تمت البيعة صعد عثمان المنبر، فخطبهم، فقال: «الحمد لله، أيها الناس اتقوا الله إن الدنيا كما أخبر الله عنها: ﴿**لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾[1]. فخير العباد فيها من عصم بالله واستعصم بالله وبكتابه. وقد وكلت من أمركم بعظيم لا أرجو العون عليه إلا من الله ولا يوفق للخير إلا الله وما توفيقي إلا الله عليه توكلت وإليه أنيب» ثم نزل.

---

(١) سورة الحديد آية ٢٠.

ترجمة عثمان

وهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. ولد في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله ﷺ، وشب على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة حيياً عفيفاً، ولما بعث الله محمداً ﷺ كان عثمان من السابقين إلى الإسلام على يد الصديق رضي الله عنه، وزوجه عليه السلام بنته رقية، فلما آذى المشركون المسلمين هاجر رضي الله عنه مع زوجه إلى بلاد الحبشة، ثم رجع إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة، فلما أذن الله بها هاجر إليها هو وزوجه، وحضر مع رسول الله ﷺ كل مشاهده ولكنه لم يحضر بدراً لشغله بتمريض زوجه التي ماتت عقب انتصار المسلمين فيها، وأسهم له رسول الله ﷺ في غنيمتها، ثم زوجه بنته الثانية أم كلثوم، وكان ممن عفا الله عنهم في أُحد وكان في عمرة الحديبية سفيراً بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان، وقال بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده، فقال هذه لعثمان، وكان له جيش العسرة إلى تبوك اليد الطولى، فقد أنفق من ماله أكثر مما جاد به غيره، واشترى بئر رومة بماله، ثم تصدق بها على المسلمين، فكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم. وقد قال عليه السلام: «**من حفر بئر رومة فله الجنة**». ولما توفي رسول الله ﷺ كان للخليفتين من بعده عاملاً أميناً. ولما أصيب المسلمون بقتل عمر كانت أغلبية الشورى له، فقام بأمر الخلافة خير قيام إلا أن في آخر مدته تغير بعض المسلمين عما كانوا عليه في عهد رسول الله ﷺ والشيخين من بعده، ودبت إليهم الدنيا رحيها، وهو رأس كل خطيئة فقام عليه جماعة من بغاتهم فشتتوا شمل المسلمين بشق عصا الطاعة حتى تداعت أركان الخلافة وقتل

ظلماً رضي الله عنه، وقد جاوز الثمانين من عمره، وكان رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير حسن الوجه رقيق البشرة بوجهه أثر جدري. كبير اللحية عظيمها أسمر اللون أصلع عظيم الكراديس عظيم ما بين المنكبين يصفر لحيته وله من الأولاد عبد الله الأكبر وعبد الله الأصغر، وعمرو، وخالد، وأبان، وعمر، ومريم والوليد، وسعيد، وأم سعيد، وعبد الملك، وعائشة، وأم أبان، وأم عمر ومريم وعنبسة، وأم البنين.

أعماله في خلافته

في الكوفة

في بدء خلافته استعمل سعد بن أبي وقاص على الكوفة عملاً بوصية عمر، وكان معه عبد الله بن مسعود على الخراج، فأقام سعد في إمارة الكوفة، ثم عزله عثمان لخلاف وقع بينه وبين عبد الله بن مسعود، سببه أن سعداً اقترض من عبد الله مالاً فلما تقاضاه إياه لم يجد له سعد أداء، فطلب منه التأجيل، فلم يقبل، وحصل بينهما في ذلك نزاع، فتعصب لهذا قوم ولذاك آخرون، وكان هذا أول شقاق حصل بين أهل الكوفة فغضب لذلك أمير المؤمنين عثمان وعزل سعداً وولى مكانه الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس وأمه أم عثمان، وعزل عتبة بن فرقد عن أذربيجان التي كانت تابعة لولاية الكوفة، فانتفض أهلها فغزاهم الوليد، فأغار على أهل موقان والبير والطيلسان، ففتح وغنم، ثم طلب أهل كور أذربيجان الصلح فصالحهم على صلح حذيفة، وهو ثمانمائة ألف درهم.

ثم سير سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أهل أرمينية في اثني عشر ألفاً، فشتت شملهم ورجع إلى الوليد بغنائمهم، فرجع الوليد من طريق الموصل فلما أتى المدينة جاءه وهو بها كتاب من عثمان يأمره أن يمد أهل الشام بجيش يقوده رجل ذو نجدة فندب الناس مع سلمان بن ربيعة الباهلي فانتدب له ثمانية آلاف سيرهم معه وأقام الوليد والياً على الكوفة خمس سنين. في نهايتها اتهمه جماعة من أهل الكوفة بأنه شرب الخمر، وشهدوا بذلك عند عثمان، فعزله عن إمارتها وجلده حد الشارب أربعين جلدة، كما أفتى بذلك علي بن أبي طالب وولى مكانه سعيد بن العاص، فلما وصل الكوفة صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: والله لقد

بعثت إليكم وإني لكاره، ولكني لم أجد بداً إذا أمرت أن أأتمر، ألا وإن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينها، ووالله لأضربن وجهها أو تعييني وإني لرائد نفسي اليوم، ثم نزل وسأل عن أهل الكوفة، فعرف حالهم، وكتب إلى عثمان إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب على أهل الشرف والبيوتات منهم، والغالب على تلك البلاد روادف قدمت وأعراب لحقت حتى لا ينظر إلى ذي شرف أو بلاء من نابتها ولا نازلتها، فكتب إليه عثمان:

«أما بعد.. ففضل أهل السابقة والقدم، ومن فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن من نزلها من غيرهم تبعاً لهم إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوه، وقام به هؤلاء واحفظ لكل منزلته واعطهم جميعاً بقسطهم من الحق، فإن المعرفة بالناس يصاب بها العدل». فأرسل سعيد إلى أهل القادسية والأيام، فقال: أنتم وجوه الناس والوجه ينبي عن الجسد، فأبلغونا حاجة ذوي الحاجة، وأدخل معهم من يحتاج إليه من اللواحق والروادف وجعل القراء في سمره، ففشت القالة في الكوفة بالقدح في ولاة عثمان وفيه لتوليته إياهم، فكتب سعيد إلى عثمان، فجمع الناس وأخبرهم بما كتب إليه، فقالوا أصبت لا تطمعهم فيما ليس له أهل، فإنه إذا نهض في الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأفسدها، فقال عثمان: «يا أهل المدينة استعدوا واستمسكوا فقد دبت إليكم الفتن، وإني والله لأتخلصن الذي لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم حتى يأتي من شهد مع أهل العراق سهمه، فيقيم معه في بلاده، فقالوا: كيف تنقل إلينا سهمنا من الأرضين فقال يبيعها من شاء بما كان له في الحجاز واليمن وغيرها من البلاد ففرحوا، وفتح الله عليهم أمراً لم يكن في حسابهم، وفعلوا ذلك واشتراه رجال من كل قبيلة، وجاز لهم عن تراض: وفي عهد سعيد بن العاص فتحت طبرستان سار إليها ومعه الحسن والحسين ابنا علي، وابن عباس، وابن عمر، وابن العاص، وابن الزبير، وحذيفة بن اليمان وغيرهم من كبار الصحابة، فقاتل أهلها، ثم طلبوا الصلح، فصالحهم وكان ذلك في السنة الثلاثين، ثم سار سعيد وحذيفة بن اليمان لإمداد عبد الرحمن بن ربيعة الذي كان بالباب، فلما بلغا أذربيجان سير سعيد حذيفة، وأقام هو رداء له، فسار حذيفة وغزا مع عبد الرحمن، ثم رجع إلى سعيد فصبحه بالكوفة.

وفي السنة الثانية والثلاثين غزا عبد الرحمن بن ربيعة الترك ثالث مرة وأوغل

في سيره فتجمع عليه الترك والخزر، وقاتلوه قتالاً شديداً، حتى قتل، فتفرق جيشه فرقتين: فرقة سارت نحو الباب، فالتقت بسليمان بن ربيعة الباهلي أخي عبد الرحمن الذي سيره سعيد مدداً لأخيه، فنجوا معه، وفرقة سارت نحو جيلان وجرجان فيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة الدوسي واستعمل سعيد مكان عبد الرحمن أخاه سليمان على غزو الباب، واستعمل على الغزو بأهل الكوفة حذيفة بن اليمان، وأمدهم أمير المؤمنين عثمان بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة، فتأمر عليهم سليمان بن ربيعة وامتنع حبيب أن يكون تحت إمرته حتى قال أهل الشام، ولقد هممنا أن نضرب سليمان، فقال الكوفيون: إذاً نضرب حبيباً ونحبسه، وإن أبيتم كثرت القتلى فينا وفيكم، وكان هذا أول شقاق حصل بين الكوفيين والشاميين، ودبت البغضاء بينهم بسبب التنافس في الرياسة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي السنة الثالثة والثلاثين حصل بالكوفة ما ينبيء بمصيرها من دون إلى أدنى في الشقاق والتنازع لأن نزالها من أصحاب رسول الله ﷺ قليلون وأهل السابقة والفضل من أهلها، وزعهم سعيد ولاة على كور الكوفة من بلاد فارس، وكان يجلس إلى سعيد كثير من أهل الكوفة للسمر، فكانوا يتذاكرون وقائعهم وحوادثهم وأدى ذلك إلى مشاجرة بعضهم بعضاً، واستخفوا بصاحب الشرطة لما نهاهم عن ذلك التنازع حتى أنهم ضربوه، فطردهم سعيد من السمر عنده، فابتعدوا وأقاموا في مجالس لهم لا هم لهم إلا الوقيعة بسعيد، ومن ولاه، فكتب إلى أمير المؤمنين عثمان بخبرهم، فكتب إليه أن يحمل رؤساءهم إلى معاوية بالشام، وكتب إلى معاوية أن نفراً خلقوا للفتنة، فأقم عليهم، وأنههم فإن آنست منهم رشداً فأقبل وإن أعيوك فارددهم عليَّ، فلما قدموا على معاوية أكرمهم وأحسن وفادتهم وأجرى عليهم أرزاقهم كما كانوا بالعراق، فلم تزدهم النعمة إلا بطراً واستخفوا بمعاوية، واعترضوا على ولايته، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان معصوماً فولاني وأدخلني في أمره ثم استخلف أبو بكر فولاني، ثم استخلف عمر فولاني، ثم استخلف عثمان فولاني، ولم يولني أحد إلا وهو عني راض، وإنما طلب رسول الله ﷺ للأعمال أهل الجزاء من المؤمنين والغناء، وإن الله ذو سطوات ونقمات يمكر بمن مكر به فلا تتعرضن لأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما

تظهرون فإن الله غير تارككم حتى يختبركم ويبدي للناس سرائركم؟ ولما رآهم ممن ضلوا على علم، فلم تفدهم النصيحة كتب إلى عثمان يخبرهم فأرسل إليه أن سيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص، فلما وصلوا إليه دعاهم، فقال: «يا آلة الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً قد رجع الشيطان محسوراً. أأنتم بعد في نشاط خسر، والله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم لا تقولوا لي ما بلغني أنكم قلتم لمعاوية أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من عجمته العاجمات أنا ابن فاقىء عين الردة، والله يا فلان لئن بلغني أن أحداً ممن معي دق عنقك ثم غمصك لأطيرن بكم طيرة بعيدة المهوى، فأقامهم شهراً كلما ركب أمشاهم خلفه حتى قالوا نتوب إلى الله، أقلنا أقالك الله، فما زالوا به حتى قال تاب الله عليكم».

ثم إن سعيد بن العاص أمير الكوفة رحل إلى أمير المؤمنين في أمور تخص ولايته واستخلف على عمله عمرو بن حريث، فقام جماعة من أهل الكوفة كرهوا ولاية سعيد واتفقوا على التوجه إلى عثمان واستعفائه منه، وكاتبوا من عند عبد الرحمن بن خالد فساروا إليهم وخرج الجميع لذلك، فقابلهم سعيد في الطريق راجعاً فأخبروه خبره، فقال: كان يكفيكم أن ترسلوا لعثمان رجلاً وإليّ رجلاً، ثم رجع إلى عثمان وأخبره بذلك، وقال إنهم يريدون البدل بي ويحبون أبا موسى، فولاه عثمان عليهم، وكتب إليهم: «أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد، ووالله لأقرضنكم غرضي ولأبذلن لكم صبري ولأستصلحنكم بجهدي فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى فيه الله إلا استعفيتم منه أنزل فيه عندما أحببتم، حتى لا يكون لكم على الله حجة ولنصبرن كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون» ثم جاء أبو موسى ودخل الكوفة وخطب أهلها وأمرهم بلزوم الجماعة ولم يزل والياً عليها حتى مات عثمان رضي الله عنه.

في البصرة

كان والي البصرة أول خلافة عثمان أبو موسى الأشعري فأقام فيها إلى السنة التاسعة والعشرين، ثم عزله عثمان وولى بدله عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس، وجمع له جند أبي موسى، وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عمان والبحرين.

وفي عهده انتفض أهل فارس بأميرهم عبيد الله بن معمر، فسار إليهم عبيد الله ولاقاهم على باب اصطخر فقتل وانهزم من معه، ولما بلغ ذلك ابن عامر سار إليهم بجيش كثيف فقاتلهم قتالاً شديداً، حتى هزمهم، وفتح اصطخر عنوة وأتى دار ابجرد وقد غدر أهلها ففتحها وبلغه، وهو هناك أن أهل اصطخر عادوا إلى غدرهم، فرجع إليهم وفتحها ثالث مرة وقتل كثيراً من وجوه أهلها، ثم وطىء أهل فارس وطأة لم يزالوا منها في ذل. وفي عهده قتل يزدجرد ملك الفرس وهو آخر ملوكهم والأخبار مضطربة في كيفية قتله إلا أنهم اتفقوا على أنه قتل وحيداً طريداً لم يغن عنه هذا الملك الواسع شيئاً، واتفقوا على أنه قتل بيد أعجمية وكان يتمنى إذا ذاك أن لو كان وقع في يد العرب المسلمين فإنهم كانوا يبقون عليه، فيعيش منعماً في ظل الإسلام الظليل، ولكن أنّى له ذلك، والشقاء متى غلب لا يرد؟

وفي السنة الحادية والثلاثين سار عبد الله بن عامر لفتح خراسان التي انتفض أهلها بعد موت عمر، فلما وصل الطبسين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح، فسار إلى قهستان[1] فلقي أهلها وقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم، ولما أقبل على المدينة طلب أهلها الصلح، فصالحهم على ستمائة ألف درهم، ثم قصد نيسابور، فصالحه أهلها على ألف ألف درهم ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان، ثم إلى مرو الروز فلقيه جمع كثير من جموع المشركين، فهزمهم ووجه الأقرع بن حابس التميمي إلى جمع من الفرس بالجوزجان ووصاه هو وقومه فقال: «يا بني تميم تحابوا وتباذلوا تصلح أموركم وأبدأوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم». فسار القوم حتى لقوا الأعداء فهزموهم، ثم فتح الأحنف الطالقان صلحاً وسار إلى بلخ، فصالحه أهلها على أربعمائة ألف درهم، ثم سار إلى خوارزم، فلم يتمكن من فتحها فعاد عنها.

ثم رجع ابن عامر بعد أن فتح هذه البلاد العظيمة مرة ثانية، فقيل له ما فتح الله على أحد مثل ما فتح عليك فارس وكرمان وسجستان وخراسان فقال لا جرم لأجعلن شكري لله على ذلك أن أخرج معتمراً من موقفي هذا فأحرم بعمرة من نيسابور.

---

(١) قهستان: سماها في معجم البلدان قوهستان ومعناها موضع الجبال، وهي متصلة بنواحي هراة، ثم تمتد في الجبال طولاً حتى تتصل بقرب نهاوند وهمذان وبروجرد (معجم البلدان ٤/ ٤١٦)

وبعد ثلاث سنين من إمارة ابن عامر بالبصرة بلغه أن رجلاً نزل على حكيم بن جبلة العبدي وله آراء غير مقبولة، فطلبه ابن عامر، فسأله من أنت؟ فقال: رجل من أهل الكتاب رغبت في الإسلام، وفي جوارك، فقال: ما يبلغني ذلك. أخرج عني، فخرج حتى أتى الكوفة، فأخرج منها، فأتى الحجاز والشام، فأخرج منهما، فأتى مصر، فعشش فيها، ثم باض وفرّخ وكان هذا الرجل هو عبد الله بن سبأ وابن السوداء وهي أمه كان يهودياً، ثم أظهر إسلامه مع ضمير خبيث، وكانت له آراء فاسدة منها أن كان يقول: عجبت ممن يصدق برجوع المسيح ولا يصدق برجوع محمد، وكان هذا ابتداء القول بالرجعة، وكان يقول إن علياً وصى محمداً، وقد غصبه من ولي قبله حقه، فالواجب على المسلمين أن يقوموا لإعادة الحق إلى أهله. وقد تبع مذهبه كثير ممن طاشت أحلامهم فكان هذا من ضمن الأسباب التي أدت إلى شق عصا الطاعة وافتراق الأمة الإسلامية التي لا ينفعها إلا الاجتماع والاتحاد، ولا يضرها إلا الافتراق والاختلاف.

في الشام

في أول ولاية أمير المؤمنين عثمان بن عفان جمع الشام كله لمعاوية ابن أبي سفيان بن حرب بن أمية. وفي السنة الثانية من ولاية عثمان غزا معاوية الروم، فبلغ عمورية، ووجد الحصون التي بين طرطوس وإنطاكية خالية، فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام، والجزيرة، ثم رجع وأغزى الصائفة يزيد بن الحر العبسي، ففعل مثل معاوية. وفي هذه السنة أمره أمير المؤمنين أن يغزي حبيب بن مسلمة أرمينية، فوجهه إليها فأتى قاليقلا[1] وحاصرها وضيق على أهلها فطلبوا الصلح على الجلاء لمن أراد والجزية على من أقام فأجابهم، وأقام حبيب بها شهراً، ثم بلغه أن بطريق أرمينيا قس قد جاء إلى حربه في ثمانين ألفاً، فأرسل إلى عثمان بالخبر، فبعث إلى الوليد بن عقبة أمير الكوفة أن يمده، فأمده بسليمان بن ربيعة في ثمانية آلاف، كما قدمنا، وأجمع حبيب ومن معه رأيهم على تبييت الروم فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية، فقالت: أين موعدك غداً؟ فقال: سرادق المورياق، ثم بيتهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم أتى السرادق، فوجد

---

(١) قاليقلا: بأرمينية العظمى (معجم البلدان ٤/٤١٦).

امرأته قد سبقته إليه، فكانت أول امرأة عربية ضرب عليها حجاب سرادق، ثم عاد حبيب إلى قاليقلا، ثم سار منها ونزل مربالا[1] فأتاه بطريق خلاط بكتاب الصلح الذي كتبه له عياض بن غنم بالأمان، فأجراه عليه، ثم سار فلقيه صاحب مكس وهي من السفرجان فقاطعه على بلاده، ثم سار إلى ازدشاط فحاصرها، ثم صالح أهلها، ثم أتى إليه بطريق السفرجان، فصالحه على جميع بلاده، ثم سار إلى تفليس ففتحها وسار سليمان بن ربيعة إلى أران ففتح البيلقان صلحاً على أن أمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم واشترط عليهم الجزية على الرؤوس والخراج على الأرض، ثم أتى مدينة برذعة، فعسكر على الثرثور، وهو نهر بينه وبينها فرسخ فقاتله أهلها أياماً، ثم صالحوه وفتح رساتيق البلاد ودعا أكراد البلاشجان إلى الإسلام، فأبوا فقاتلهم وظفر بهم، فأقر بعضهم على الجزية، ودفع بعضهم الزكاة وهم قليل، ثم سار إلى سمكور ففتحها، ثم خربت بعده، ثم عمرت في زمن المتوكل على الله العباسي وسميت المتوكلية، ثم صالح جميع سكان البلاد التي هناك ورجع.

وفي السنة الثامنة والعشرين فتح معاوية جزيرة قبرص وغزا معه كثير من كبار الصحابة فيهم أبو ذر وعبادة بن الصامت، ومعه زوجه أم حرام بنت ملحان التي أخبرها رسول الله ﷺ أنها في أول من يغزو في البحر. روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته، ثم جلست تفلي رأسه، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك. قالت، فقلت ما يضحكك يا رسول الله؟قال: «**ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة** (يشك أيهما قال) قالت، فقلت يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك. قالت، فقلت ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله**، كما قال في الأولى. قالت يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «**أنت من الأولين**»[2]. وكان معهم أبو الدرداء،

(١) مربالا: ناحية قرب خلاط (معجم البلدان ٥/٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والاستئذان والتعبير، ومسلم في الإمارة، والترمذي في فضائل الجهاد، =

وشداد بن أوس، وكان معاوية كثيراً ما يتمنى غزو الروم في البحر زمن عمر بن الخطاب فلا يأذن له لأن فيه غرراً بالمسلمين، ولما كان زمن عثمان أذن، وقال: «لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه» ففعل. وسار من الشام إلى قبرص وأمده والي مصر عبد الله بن سعد بنفسه فاجتمعا عليها فصالحهم أهلها على سبعة آلاف كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك، وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم من ورائهم وعليهم أن يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم، ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم، وفي هذه الغزوة ماتت أم حرام بنت ملحان الأنصارية سابقة الذكر ألقتها بغلتها بجزيرة قبرص فماتت.

واستعمل معاوية على غزو البحر عبد الله بن قيس الجاسي، فغزا خمسين غزوة من بين صائفة وشاتية في البر والبحر ولم يغرق أحد من جيشه ولم ينكب، ثم خرج مرة في قارب طليعة فانتهى لمرفأ من الروم فنذروا به فجاءوا فقتلوه.

وفي السنة الثلاثين شكا معاوية أبا ذر لعثمان، وكان مذهب أبي ذر أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يوم أو ليلة أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده للتكريم، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿والَّذينَ يكنزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنفِقُونها في سبيلِ اللَّهِ فبَشِّرهُمْ بعذابٍ أليم * يومَ يُحمى عليها في نارِ جهنَّمَ فتُكوى بها جِباهُهُمْ وجنوبهُمْ وظهورهُمْ هذا ما كنزتُمْ لأنفسكم فذوقوا ما كنتمْ تكنِزونَ﴾[1] ويميل إلى هذا المذهب مذهب الاشتراكيين الآن، فكان أبو ذر رحمه الله يقوم بالشام ويقول: يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، بشِّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من النار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم حتى أولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، فشكا الأغنياء ما يلقونه إلى معاوية، فكتب في شأنه إلى عثمان، فأرسل إليه أن سيره إليَّ فلما قدم المدينة ورأى المجالس في أصل سلع قال: بشِّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار»، ولما دخل على عثمان قال له: «ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك»،

= والنسائي ومالك في الجهاد، وأحمد ٣/٢٤٠.

(١) سورة التوبة آية ٣٤ ـ ٣٥.

فأخبره، فقال: «يا أبا ذر عليَّ أن أقضي ما عليَّ، وأن أدعو الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد، وما عليَّ أن أجبرهم على الزهد»، فقال أبو ذر: «لا ترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والإخوان ويصلوا القرابات»، ثم طلب من عثمان أن يأذن له بالخروج من المدينة، فإن رسول الله ﷺ أمره بذلك إذا بلغ البناء سلعاً، فسيره إلى الربذه فبنى بها مسجداً، وأقطعه عثمان قطعة من الإبل، وأجرى عليه العطاء فأقام أبو ذر منفرداً حتى أدركه الأجل المحتوم.

في مصر

كان عامل مصر في أول خلافة عثمان فاتحها عمرو بن العاص، وفي السنة الثانية من خلافته كاتب الروم بالقسطنطينية إخوانهم بالإسكندرية، داعين إلى نقض الصلح فأجابوهم إلى ذلك. أما المقوقس فكان رجلاً شريفاً لم يخن عهده، فسار إلى الإسكندرية في جمع عظيم من الروم، فأرسوا بها. ولما بلغ ذلك عمراً سار إليهم وسار الروم إليه، فاقتتل الفريقان بين مصر والإسكندرية حتى انهزم الروم وتبعهم المسلمون حتى أدخلوهم الاسكندرية وقتلوا منهم في البلد مقتلة عظيمة وهدم عمرو سور المدينة.

وفي هذه السنة سير عمرو عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى أطراف أفريقية[1] غازياً بأمر عثمان ففتح وغنم، ولما عاد استأذن عثمان في الغزو ثانية فأذن له، وقال إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس نفلاً، وأمر عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحارث على جند وأمرهما بالاجتماع مع عبد الله ابن سعد فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر ووطئوا أرض أفريقية وكانوا في جيش كثير فيه عشرة آلاف من شجعان المسلمين فصالحهم ملك إفريقية على مال يؤدونه ولم يتوغلوا في أفريقية لكثرة أهلها، فعاد عبد الله بن سعد إلى مصر فولاه عثمان خراجها، وجعل عمرو بن العاص على الجند، فلم يتفقا فجمع لابن سعد الخراج والجند وعزل ابن العاص، وعند ذلك استشار ابن سعد عثمان في غزو أفريقية والاستكثار لها من الجند، فجهز إليه الجيوش من المدينة فسار ابن سعد إلى أفريقية وكان ملكها من قبل الروم واسمه جرجير وملكه من طرابلس إلى طنجة،

(١) سواحلها الشمالية من طرابلس إلى طنجة، «م».

وكان يؤدي أتاوة إلى ملك الروم، فلما بلغه خروج المسلمين تجهز لهم، والتقى بهم بمكان بيته وبين سبيطلة عاصمة الملك يوم واحد بعد أن راسله عبد الله يدعوه إلى الإسلام أو يدفع الجزاء فأبى ودام القتال بينهم أياماً يقتتلون كل يوم إلى الظهر ثم يعودون. وكان خبر المسلمين قد أبطأ على عثمان، فأمدهم بجيش يرأسه عبد الله بن الزبير، فلما وصلهم أشار على ابن سعد أن يقسم الجيش قسمين، قسم يقاتل إلى الظهر، ثم يخلفه الآخر حتى يهن المشركون، فاتبع مشورته، وأخرج القسم الأول فحارب إلى الظهر، وأراد المشركون ترك القتال، فلم يمكنهم بل استمر القتال بالقسم الثاني حتى ضعف المشركون وانهزموا شر هزيمة، وقتل جرجير ملك إفريقية قتله عبد الله بن الزبير وفتحت المدينة.

ثم بث السرايا فبلغت قفصة، ففتحت وغنمت وسير سرية إلى حصن الأجم فحاصرته، ثم فتحها صلحاً، ثم صالح ابن سعد أهل أفريقية على ألفي ألف ألف وخمسمائة ألف دينار وأرسل إلى عثمان بالبشارة والأخماس وعاد هو من أفريقية وكان مقامه فيها سنة وثلاثة أشهر، ولما وصل خمس مغنم أفريقية إلى المدينة اشتراه مروان بن الحكم، ثم حط عنه عثمان ثمنه وولى على أفريقية عبد الله بن نافع بن عبد القيس وجعل ابن سعد على مصر فقط.

القسم الثاني من الكتاب

الخروج على عثمان

كان رسول الله ﷺ يحذر الفتن[1] على أمته، وكثيراً ما كان يحذرهم منها لأن بأس الأمة متى انتقل من أعدائها إلى أنفسها ساءت حالها وفسد نظامها وصارت إلى الفوضى أقرب منها إلى الإصلاح. وقد ورد على المصطفى ﷺ كثير من الأحاديث في التحذير منها، ولكن قدر فكان استكمل الفتح للأمة واستكمل الملك، ونزل العرب بالأمصار على حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصون بصحابة رسول الله ﷺ والمهتدون بهديه وآدابه المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم. وأما سائر العرب من بكر بن وائل، وعبد القيس، وسائر ربيعة والأزد وكندة، وتميم، وقضاعة وغيرهم، فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلا قليلاً منهم، وكان لهم في الفتوحات قدم، فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة من الصحابة ومعرفة حقهم، وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة ونزول الوحي وتنزل الملائكة، فلما انحسر ذلك الباب وتنوسي الحال بعض الشيء وذل العدو واستفحل الملك كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمجاهدين والأنصار من قريش وسواهم فأنفت نفوسهم ووافق ذلك أيام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن على ولاته بالأمصار والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان، وكان رأس هذه الفتنة ذلك الرجل اليهودي الذي قدمنا ذكره المسمى عبد الله بن سبأ. قام بالدعوة لعلي بن أبي طالب زاعماً أنه وصي

---

(١) كقوله ﷺ: «إياكم والفتن فإن اللسان فيها مثل وقع السيوف» أخرجه ابن ماجة.

رسول الله ﷺ، ومن أظلم ممن لم يجز وصيته، فتبع مذهبه كثير من أهل الأهواء الذين لهم قلوب لا يفقهون بها، فقال لهم: انهضوا في هذا الأمر فإن عثمان أخذه بغير حق، فكاتبوا أهل الأمصار، فصادفوا من أهلها كثيراً يرون رأيهم حتى فشت القالة في الطعن على عثمان وولاته، فبلغت هذه الأخبار أهل المدينة، فسألوا عثمان عن ذلك، فقال: ما جاءني عن ولاتي إلا السلامة، وأنتم شركائي وشهود المؤمنين فأشيروا عليَّ فأشاروا عليه أن يبعث رجالاً إلى الأمصار للتحقق من هذه الأخبار، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر فرجع القوم كلهم، وقالوا: ما علمنا من أمرائك إلا خيراً ما عدا عمار بن ياسر فإنه انحاز إليه جماعة من السبئية (أتباع ابن سبأ) وملؤوه كلاماً في حق أمراء عثمان ومنعوه عن الرجوع إلى المدينة، فكتب عبد الله بن سعد إلى عثمان يخبره، فأرسل عثمان إلى سائر الأمصار «إني آخذ عما لي بموافاتي كل موسم، وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواماً يشتمون ويضربون، فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان مني أو من عمالي أو تصدقوا، فإن الله يجزي المتصدقين.

وبعث إلى عماله أن يوافوا الموسم فقدموا عليه: عبد الله بن عامر أمير البصرة، وعبد الله بن سعد أمير مصر، ومعاوية بن أبي سفيان أمير الشام، فجمعهم وأدخل عمرو بن العاص السهمي، وسعيد بن العاص الأموي، وقال لهم: ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة، إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يعصب هذا إلا بي، فقالوا له: ألم تبعث، ألم يرجع إليك الخبر عن العوام، ألم يرجع رسلك، ألم يشافههم أحد بشيء، والله ما صدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً ولا يحل الأخذ بهذه الاشاعة، فاستشارهم في تسكين هذه الفتنة، فقال ابن عامر: أرى أن تشغلهم بالجهاد، وقال ابن سعد: استصلحهم بالمال وقال معاوية: اجعل كفايتهم إلى أمرائهم، وأنا أكفيك الشام. وقال ابن العاص: أرى أنك قد لنت لهم ورضيت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر. فأرى أن تلزم طريق صاحبك، فتشد في موضع الشدة وتلين وفي موضع اللين، وقال سعيد: متى تهلك قادتهم يتفرقوا. فقال عثمان: «قد سمعت كل ما أشرتم به، ولكل أمر باب يؤتى منه إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن، وإن بابه الذي يغلق عليه

ليفتحن فنكفكفه باللين والمواتاة إلا في حدود الله، فإن فتح فلا يكونن لأحد عليّ حجة، وقد علم الله أني لم آل الناس خيراً وإن رحى الفتنة دائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم، فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا»، ثم نفر ونفر الأمراء إلى بلادهم، وصحبه معاوية لأن طريقه على المدينة.

فلما قدماها جمع عثمان كبار الصحابة، فقام معاوية فحمد الله، ثم قال: «أنتم أصحاب رسول الله ﷺ وخيرته من خلقه وولاة أمر هذه الأمة لا يطمع فيه أحد غيركم اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع، وقد كبر وولى عمره ولو انتظرتم به الهرم لكان قريباً مع أني أرجو أن يكون أكرم على الله تعالى من أن يبلغه ذلك، وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبتم فيها من شيء، فهذه يدي ولا تطمعوا الناس في أمركم، فوالله إن طمعوا فيها لا رأيتم منها أبداً إلا إدباراً»، فنهره علي بن أبي طالب، فقال عثمان: «صدق ابن أخي، وأنا أخبركم عني وعما وليت إن صاحبي اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما، ومن كان منهما بسبيل احتساباً، وإن رسول الله ﷺ كان يعطي قرابته، وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش فبسطت يدي في شيء من ذلك لما أقوم به فيه، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه، فأمري لأمركم تبع»، فقالوا قد أصبت وأحسنت. أعطيت خالد بن أسيد خمسين ألفاً ومروان بن الحكم ثمانين ألفاً، فأخذ منهما لك، فرضوا وخرجوا راضين.

ثم خرج معاوية إلى الشام بعد أن عرض على عثمان الخروج معه، فلم يقبل ضناً بجوار رسول الله ﷺ فسار معاوية ومر في سيره على نفر من المهاجرين فيهم: علي، وطلحة، والزبير، فقال: «قد علمتم أن هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه حتى أرسل الله نبيه، وكانوا يتفاضلون بالسابقة، والقدمة الاجتهاد، فإن أخذوا بذلك، فالأمر أمرهم والناس لهم تبع، وإن طلبوا الدنيا بالتغلب سلبوا ذلك ورده الله إلى غيرهم وإن الله على البدل لقادر، وإني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً، وكاتفوه تكونوا أسعد منه بذلك»، ثم مضى.

أما أهل الأمصار المنحرفون عن عثمان فإنهم لم يرتدعوا عن غيهم وجاءتهم كتب من المنحرفين بالمدينة يقولون لهم أقدموا علينا، فإن الجهاد عندنا، فاتعد جميعهم شوال يخرجون فيه مظهرين الحج فخرج المصريون في خمسمائة عليهم

الغافقي بن حرب، وخرج أهل الكوفة في عدد أهل مصر، وكذلك أهل البصرة ولما كانوا على ثلاث ليال من المدينة نزل أهل البصرة خشباً[1]، ونزل أهل الكوفة الأعوص معهم جماعة من أهل مصر، ونزل جميعهم بذي المروة وكانت أهواؤهم مختلفة فيمن يلي الخلافة بعد عثمان، فالكوفيون يريدون طلحة بن عبيد الله، والبصريون الزبير بن العوام، والمصريون علياً، فاجتمع وفد من أهل كل مصر وذهبوا إلى من هواهم فأتى أهل مصر علياً فسلموا عليه، وعرضوا عليه أمرهم، فصاح بهم وطردهم، وقال: «لقد علم الصالحون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ»، وكذلك قال طلحة والزبير لمن جاءهم، فانصرف الجميع مظهرين الرجوع إلى بلادهم حتى تفرق أهل المدينة، ثم لم يشعروا إلا والتكبير في نواحيها، وأحيط بدار عثمان ونودي: «من كف يده فهو آثم» فلزم الناس بيوتهم واستغربوا رجوع الثوار بعد الإذعان بما طلبوه من إعفائهم من العمال الذين يطلبون عزلهم، فأتى محمد بن مسلمة المصريين، وقال لهم: ما الذين أرجعكم بعد ذهابكم؟ فقالوا: أخذنا كتاباً من البريد مع خادم عثمان لعامل مصر يأمره فيه بقتلنا، ثم سأل المصريين عن مجيئهم، فقالوا: لنصر إخواننا، وكذلك قال الكوفيون، فقال: كيف علمتم بما لقي أهل مصر، وكلكم على مراحل من صاحبه حتى رجعتم إلينا جميعاً، هذا أمر أبرم بليل، فقالوا اجعلوا كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا، فأخذوا منهم الكتاب وسألوا عثمان: هل هو كاتبه، فقال عثمان: والله ما كتبت ولا أمرت ولا علمت، فقال علي: ومن معه من كبار الصحابة صدق عثمان، فقال المصريون: إذاً من كتبه؟ فقال عثمان: لا أدري، قالوا: فيجترأ عليك، ويبعث غلامك، وجمل من إبل الصدقة، وينقش على خاتمك، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة، وأنت لا تدري؟ قال: نعم. قالوا: ما أنت إلا صادق أو كاذب، فإن كنت كاذباً، فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا، وإن كنت صادقاً فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الأمر، ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه، فاخلع نفسك. قال: لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله، ولم يلهم الله أحداً أن يحقق أمر هذا الكتاب إذ كيف اتحدوا على الرجوع بعد افتراقهم في طرق مختلفة.

(١) موضع هنالك، «م».

أما تهمة مروان به فلم تثبت بل حينما سألوه حلف أنه لم يكتب، ولم يجعل الله في دينه القويم دليلاً على تبرئة المتهم غير يمينه إن لم تكن هناك بينة، ولكن الفتنة متى كشرت عن نابها ضاع السداد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم قام الثوار بحصر أمير المؤمنين وصاحب رسول الله ﷺ وآله، وسلم المشهود له بالجنة حصاراً شديداً حتى منعوه الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، فأرسل عثمان إلى علي وطلحة والزبير فحضروا، فأشرف عليهم، فقال: «أيها الناس اجلسوا» فجلس المسالم منهم والمحارب، ثم قال: «يا أهل المدينة أستودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي»، ثم قال: «أنشدكم الله هل تعلمون أنكم عند مصاب عمر سألتم الله أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم، أتقولون إن الله لم يستجب لكم وهنتم عليه، وأنتم أهل حقه، أن تقولون هان على الله دينه، فلم يبال من ولي الدين بتفرق أهله يومئذ، أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة، وإنما كان مكابرة، فوكل الله الأمة إذ عصته ولم يشاوروا في الإمارة، أم تقولون إن الله لم يعلم عاقبة أمري، وأنشدكم الله هل تعلمون أن لي من سابقة خير وقدم خير قدم الله لي بحق على كل من جاء من بعدي أن يعرفوا لي فضلها، فمهلاً لا تقتلوني، فإنه لا يحل إلا قتل ثلاث: رجل زنى بعد إحصان، أو كفر بعد إيمان، أو قتل نفساً بغير حق، فإنكم إذا قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم، ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً».

فقال الثوار: «أما ما ذكرت من استخارة الناس بعد عمر، ثم ولوك، فإن كل ما صنع الله خير، ولكن الله جعلك بلية ابتلى بها عباده، وأما ما ذكرت من قدمك وسبقك مع رسول الله ﷺ فقد كنت كذلك وكنت أهلاً للولاية، ولكن أحدثت ما علمت ولا نترك إقامة الحق عليك خوف الفتنة عاماً قابلاً، وأما قولك إنه لا يحل إلا قتل ثلاثة، فإنا نجد في دين الله غير الثلاث الذي سميت قتل من سعى في الأرض فساداً، وقتل من بغى، ثم قاتل على بغيه وقتل من حال دون شيء من الحق ومنعه وقاتل دونه وقد بغيت ومنعت وحلت دونه وكابرت عليه، ولم تقدمن نفسك من ظلمت، وقد تمسكت بالإمارة علينا، فإن زعمت أنك لم تكابرنا عليها، فإن الذين قاموا دونك ومنعوك منه إنما يقاتلون لتمسكك بالإمارة فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك» فلم يجبهم عثمان ولزم داره.

وكان كثير من أهل المدينة أتوا حول داره ليذبوا عنه، فأمرهم بالانصراف، فانصرفوا إلا قليلا منهم: الحسن بن علي، وابن عباس، وابن الزبير، ومحمد بن طلحة. وكان عثمان رضي الله عنه يكره جداً أن يحدث قتال بالمدينة في زمنه، فكان يتباعد عنه بقدر ما أمكنه حتى كان ينهي أهل بيته عن تجريد السلاح، وكان يطاول الثوار، ويكثر لهم من الخطب ويرسل إليهم علي بن أبي طالب المرة بعد المرة يعدهم بالرضوخ إلى مطالبهم وهم لا يزدجرون بل كلما سد عليهم باباً من أبواب الفتن فتحوا غيره، فمنعوا الماء عن خليفة المسلمين، فجاءهم علي بالغلس[1] فقال: «يا أيها الناس إن الذي تفعلون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، فلا تقطعوا عنه الماء، ولا المادة فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي، فقالوا: لا والله ولا نعمة عين. فانصرف وجاءت أم المؤمنين حبيبة بنت أبي سفيان مشتملة على إداوة فضربوا وجه بغلتها، فقالت: إن وصايا بني أمية عند هذا الرجل، فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام والأرامل، فقالوا: كاذبة وقطعوا حبل بغلتها بالسيف فنفرت وكادت أم المؤمنين تسقط عنها، فتلقاها الناس وذهبوا بها إلى بيتها، ثم أشرف عثمان على الناس بعد منع الماء عنه، فقال: أنشدكم الله هل تعلمون أني اشتريت بئر رومة بمالي، ليستعذب بها، فجعلت رشائي فيها كرجل من المسلمين قالوا: نعم. قال: فلِمَ تمنعوني أن أشرب حتى أفطر على ماء البحر؟ ثم قال: أنشدكم الله هل تعلمون أني اشتريت أرض كذا، فزودتها في المسجد؟ قالوا: نعم. قال: فهل علمتم أن أحداً منع فيه الصلاة من قبلي؟ ثم قال: أنشدكم الله أتعلمون أن النبي ﷺ قال عني كذا وكذا الأشياء عددها في مآثره، فأثرت مقالته في كثير منهم حتى قالوا مهلاً عن أمير المؤمنين، فصرخ بهم شيطان هذه الفتنة لعله مكر به وبكم، فازدادوا عتواً. وخرجت أم المؤمنين عائشة حاجة وقد سئمت المقام بالمدينة مع هذه الفتن، وطلبت من ابن أخيها محمد بن أبي بكر أن يتبعها فأبى لأنه كان من المنحرفين عن عثمان، فقال له حنظلة الكاتب: تستتبعك أم المؤمنين ولا تتبعها، ثم تتبع ذؤبان العرب إلى ما لا يحل، وإن هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبك عليه بنو عبد مناف وأمر عثمان عبد الله بن عباس أن يحج بالناس فقال: قتال هؤلاء أحب إليَّ من الحج، فعزم

---

(١) الغلس: الليل، وهي الظلمة إذا اختلطت بضوء الصباح.

عليه إلا ما أطاع، فخرج للحج، وكتب معه كتاباً يعلم المسلمين أمره ونصه عن الطبري:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ «من عبد الله عثمان أمير المؤمنين سلام عليكم، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإني أذكركم بالله جل وعز الذي أنعم علينا وعليكم بالإسلام وهداكم من الضلالة وأنقذكم من الكفر، وأراكم البينات، وأوسع عليكم من الرزق ونصركم على العدو، وأسبغ عليكم نعمته فإن الله عز وجل يقول وقوله الحق: ﴿وإنْ تَعدُّوا نعمةَ اللَّهِ لا تحصوها إنّ الانسان لظلومٌ كفّارٌ﴾(١). وقال عز وجل: ﴿يا أيها الّذينَ آمنوا اتقُوا اللَّهَ حقّ تقاتهِ ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مُسلمونَ * واعتصموا بحبلِ اللَّهِ جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمةَ اللَّهِ عليكمْ إذْ كنتمْ أعداء فألّفَ بينَ قلوبكُم فأصبحتم بنعمتهِ إخواناً وكنتمْ على شَفَا حُفرةٍ منَ النّارِ فأنقذكُمْ منها كذلكَ يبيّن الله لكُمْ آياتهِ لعلّكُمْ تهتدون * ولتكنْ منكم أمةٌ يدعونَ إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عنِ المنكرِ وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذينَ تَفرّقوا واختلفُوا من بعدِ ما جاءهمُ البيّناتِ وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ﴾(٢). وقال عز وجل وقوله الحق: ﴿واذكُروا نِعمةَ الله عليكمْ وميثَاقَهُ الّذي واثقكُمْ بهِ إذْ قلتُمْ سمعنا وأطعنا﴾(٣)، وقال وقوله الحق: ﴿يا أيها الّذينَ آمنوا إنْ جاءكُمْ فاسقٌ بنبإٍ فتبيّنوا أن تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحُوا على ما فعلتمْ نادمينَ * واعلمُوا أنّ فيكُم رسولَ اللَّهِ لَوْ يُطيعكم في كثيرٍ منَ الأمرِ لعنتُّم ولكنّ اللَّهَ حبّبَ إليكم الإيمان وزَينه في قلوبكُمْ وكرّهَ إليكم الكفرَ والفُسُوقَ والعصيانَ أولئك هم الرّاشدون * فضلاً منَ اللَّهِ ونعمةً والله عليمٌ حكيمٌ﴾(٤) وقال عز وجل: ﴿إنَّ الّذينَ يشترون بعهدِ الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئكَ لا خلاقَ لهم في الآخرة ولا يكلمهُم اللَّهُ ولا ينظرُ إليهم يومَ القيامة ولا يزكّيهم ولهُمْ عذابٌ أليمٌ﴾(٥) وقال وقوله الحق: ﴿فاتقوا اللَّهَ ما استطعتمْ واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومَنْ يُوقَ شُحّ نفسه فأولئك هُمُ المفلحونَ﴾(٦) وقال وقوله الحق: ﴿ولا تنقُضوا الأيمانَ بعد توكيدها وقدْ جعلتُمُ اللَّهَ عليكم كفيلاً

(١) سورة إبراهيم آية ٣٤.
(٢) سورة آل عمران الآيات ١٠٢ - ١٠٥.
(٣) سورة النساء آية ٧.
(٤) سورة الحجرات الآيات ٦ - ٨.
(٥) سورة آل عمران آية ٧٧.
(٦) سورة التغابن آية ١٦.

إنَّ اللَّهَ يعلمُ ما تفعلونَ * ولا تكونوا كالَّتي نقضتْ غَزلها من بعدِ قوةٍ أنكاثاً تتَّخذونَ أيمانكم دَخَلاً بينكم أنْ تكونَ أمَّةٌ هي أربى مِنْ أمةٍ إنَّما يبلوكم اللَّهُ بهِ وليبيِّنَن لكم يومَ القيامةِ ما كنتم فيه تختلفونَ * ولو شاء اللَّهُ لجعلَكُمْ أمةً واحدةً ولكن يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء ولتسئلنَّ عمَّا كنتم تعملونَ * ولا تتَّخذوا أيمانكم دَخلاً بينكم فتزلَّ قدمٌ بعد ثُبوتها وتذُوقوا السُّوء بما صددتُّمْ عنْ سبيل الله ولكم عذابٌ عظيمٌ * ولا تشتروا بعهد اللَّهِ ثمناً قليلاً إنَّما عندَ الله هوَ خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمونَ * ما عندكم ينفدُ وما عندَ اللَّهِ باقٍ ولنجزينَّ الَّذينَ صبروا أجرهم بأحسنَ ما كانُوا يعملونَ﴾[١]، وقال وقوله الحق: ﴿أطيعُوا اللَّهَ وأطيعُوا الرَّسُولَ وأولي الأمرِ منكم فإنْ تنازعتُمْ في شيء فردُّوهُ إلى اللَّهِ والرسُولِ إنْ كنتمْ تُؤمنونَ باللَّهِ واليومِ الآخِرِ ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾[٢] وقال وقوله الحق: ﴿وعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمنوا منكم وعملوا الصَّالحاتِ ليستخلفنَّهُمْ في الأرض كما استخلفَ الَّذينَ منْ قبلهم وليمكننَّ لهمْ دينَهُمْ الَّذي ارتضى لهم وليبدلنَّهُمْ مِنْ بعد خَوفهم أمناً يعبدونني لا يشركونَ بي شيئاً ومَنْ كفرَ بعدَ ذلكَ فأولئك هم الفاسقُونَ﴾[٣] وقال وقوله الحق: ﴿إنَّ الَّذينَ يُبايعونكَ إنَّما يُبايعونَ اللَّهَ يدُ اللَّهِ فوقَ أيديهم فمنْ نَكَثَ فإنَّما ينكثُ على نفسهِ ومنْ أوفى بما عاهَدَ عليه اللَّهَ فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾[٤].

أما بعد فإن الله عز وجل رضي لكم السمع والطاعة والجماعة، وحذركم المعصية والفرقة والاختلاف ونبأكم ما قد فعله الذين من قبلكم وتقدم إليكم فيه ليكون له الحجة عليكم إن عصيتموه فاقبلوا نصيحة الله\عز وجل واحذروا عذابه، فإنكم لن تجدوا أمة هلكت إلا من بعد أن تختلف إلا أن يكون لها رأس يجمعها، ومتى ما تفعلوا ذلك لا تقيموا الصلاة جميعاً، وسلط عليكم عدوكم ويستحل بعضكم حرم بعض، ومتى يفعل ذلك لا يقم لله سبحانه وتعالى دين وتكونوا شيعاً، وقد قال الله عز وجل لرسول الله ﷺ: ﴿إنَّ الَّذينَ فَرَّقوا دينَهُمْ وكانوا شِيعاً لستَ منهُمْ في شيء إنَّما أمرهُمْ إلى الله ثمّ ينبئُهُمْ بما كانُوا يفعلونَ﴾[٥] وإني أوصيكم بما أوصاكم الله وأحذركم عذابه، فإن شعيباً ﷺ قال لقومه: ﴿يا قومِ لا يجرمنَّكم

---

(١) سورة النحل آية ٩١ ـ ٩٦.

(٢) سورة النساء آية ٥٩.

(٣) سورة النور آية ٥٥.

(٤) سورة الفتح آية ١٠.

(٥) سورة الأنعام آية ١٥٩.

شقاقي أنْ يصيبكُمْ مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ وما قومُ لوطٍ منكُمْ ببعيدٍ * واستغفروا ربّكم ثمّ توبُوا إليه إنّ ربي رحيمٌ ودودٌ﴾[1].

أما بعد فإن أقواماً ممن كان يقول في هذا الحديث أظهروا للناس إنما يدعون إلى كتاب الله عز وجل والحق ولا يريدون الدنيا ولا منازعة فيها، فلما عرض عليهم الحق إذا الناس في ذلك شتى منهم آخذ للحق ونازع عنه حتى يعطاه، ومنهم تارك للحق ونازل عنه في الأمر يريد أن يبتزه بغير الحق طال عليهم عمري وراث عليهم أملهم الإمرة، فاستعجلوا القدر، وقد كتبوا إليكم أن قد رجعوا بالذي أعطيتهم ولا أعلم أني تركت من الذي عاهدتهم عليه شيئاً، كانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود فقلت أقيموها على من علمتم أنه تعداها. أقيموها على من ظلمكم من قريب أو بعيد. قالوا كتاب الله يتلى، فقلت: فليته من تلاه غير غال فيه بغير ما أنزل الله في الكتاب، وقالوا المحروم يرزق المال يوفى ليستن في السنة الحسنة ولا يعتدي في الخمس، ولا في الصدقة ويؤمر ذو القوة والأمانة، وترد مظالم الناس إلى أهلها، فرضيت بذلك واصطبرت له وجئت نسوة النبي ﷺ وآله حتى كلمتهن، فقلت ما تأمرني، فقلن: تؤمر عمرو بن العاص، وعبد الله بن قيس، ولا تدع معاوية، فإنما أمره أمير قبلك، فإنه مصلح لأرضه راض به جنده واردد عمراً، فإن جنده راضون به، وأمره فليصلح أرضه، فكل ذلك فعلت، وإنه اعتدى عليَّ بعد ذلك، وعدي على الحق. كتبت إليكم وأصحابي الذين زعموا في الأمر واستعجلوا القدر ومنعوا مني الصلاة وحالوا بيني وبين المسجد وابتزوا ما قدروا عليه بالمدينة. كتبت إليكم كتابي هذا وهم يخبرونني بين ثلاث: إما يقيدونني بكل رجل أصبته خطأ أو صواباً غير متروك منه شيء، وإما أعتزل الأمر فيؤمرون آخر غيري، وإما يرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيتبرءون من الذي جعل الله سبحانه وتعالى لي عليهم من السمع والطاعة، فقلت لهم: أما إقادتي من نفسي فقد كان من قبلي خلفاء تخطيء وتصيب، فلم يستقد أحد منهم، وقد علمت إنما يريدون نفسي، وأما أن أتبرأ من الإمارة، فإن يكبلوني أحب إليَّ من أن أتبرأ من عمل الله عز وجل وخلافته. وأما قولهم يرسلون إليَّ الأجناد وأهل المدينة يتبرءون من طاعتي، فلست

---

(1) سورة هود آية ٨٩ ـ ٩٠.

عليهم بوكيل، ولم أكن استكرهتم من قبل على السمع والطاعة، ولكن أتوا طائعين يبتغون مرضاة الله عز وجل وإصلاح ذات البين، ومن يكن منكم إنما يبتغي الدنيا فليس بنائل منها إلا ما كتب الله عز وجل له ومن يكن إنما يريد وجه الله والدار الآخرة، وصلاح الأمة وابتغاء مرضاة الله عز وجل، والسنّة الحسنة التي استن بها رسول الله ﷺ والخليفتان من بعده رضي الله عنهما، فإنما يجزي بذلكم الله وليس بيدي جزاؤكم، ولو أعطيتكم الدنيا كلها لم يكن في ذلك ثمن لدينكم ولم يغن عنكم شيئاً، فاتقوا الله واحتسبوا ما عنده فمن يرضى بالنكث منكم، فإني لا أرضاه له ولا يرضى الله سبحانه وتعالى أن تنكثوا عهده، وأما الذي يخيرونني فإنما كله النزع والتأمير، فملكت نفسي ونظرت حكم الله وتغيير النعمة من الله سبحانه وكرهت سنة السوء، وشقاق الأمة، وسفك الدماء، فإني أنشدكم الله والإسلام ألا تأخذوا إلا الحق وتعطوه مني، وترك البغي على أهله، وخذوا بيننا بالعدل كما أمركم الله عز وجل، فإني أنشدكم الله سبحانه الذي جعل عليكم العدل والمؤازرة في أمر الله فإن الله سبحانه قال وقوله الحق: ﴿**وأوفُوا بالعهدِ إنّ العهدَ كانَ مسؤولاً**﴾[1]، فإن هذه معذرة إلى ربكم ولعلكم تذكرون.

أما بعد. فإني لا أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم، وإن عاقبت أقواماً، فما ابتغي بذلك إلا الخير، وإني أتوب إلى الله عز وجل من كل ما عملته واستغفره إنه لا يغفر الذنوب إلا هو إن رحمة ربي وسعت كل شيء، إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون، وإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون، وأنا أسأل الله عز وجل أن يغفر لي ولكم وأن يؤلف قلوب هذه الأمة على الخير ويكره إليها الفسق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها المؤمنون والمسلمون.

فقرأه عليهم ابن عباس يوم التروية. أما الثوار فمنعوا الناس عن مخالطة عثمان ومكالمته، ولما خافوا أن يطول عليهم الأمر فتأتيهم جنود الأمصار قصدوا الباب، فقاتلهم جمع من أولاد الصحابة، ولكن أنى يعملون وقد جاءهم ما لا قبل لهم به؟ وأشار عثمان على من قاتل أن يكف وهو في حل من نصرته، فأحرق الثوار الباب ودخلوا عليه وهو يقرأ القرآن، فلم يشغله ما رأى عن تلاوته، ثم قال لمن

(١) سورة الإسراء آية ٣٤.

عنده بالدار: «إن رسول الله ﷺ قد عهد إلي عهداً فأنا صابر عليه» ولم يحرقوا الباب إلا وهم يريدون أعظم منه وأمرهم بالانصراف، ثم قال للحسن بن علي: «إن أباك لفي شغل عظيم من أمرك، فأقسمت عليك لما خرجت إليه»، فلم يسمعوا قوله، وقاتلوا دونه، ولكن أنّى لهم ذلك وهم في قلة والعدو كثير؟ فقتل بعضهم وجرح بعض ونجا آخرون، ثم تسور بعض الثوار دار بني حزم المجاورة لدار عثمان، ودخلوا عليه، فقال قائل: اخلعها وندعك، فقال عثمان: «ويحك والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام، ولا تغنيت ولا تمنيت، ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله ﷺ، ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاوة»، فخرج الرجل، ولم يصنع شيئاً، ثم جاء آخر، فقال له كما قال للأول، فرجع، فجاءهم عبد الله بن سلام وقال لهم: «يا قوم لا تسلوا سيف الله فيكم، فوالله إن سللتموه لا تغمدوه، ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة، فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف، ويلكم إن مدينتكم محفوفة بالملائكة، فإن قتلتموه لتتركنها» فشتموه.

ثم دخل على عثمان الذين كتب عليهم الشقاوة، فقتلوا هذه النفس الزكية ظلماً وعدواناً في الشهر الحرام والبلد الحرام لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وهذا هو التاريخ المشؤوم الذي كان فيه فتح الشر والشقاق بين المسلمين، وكان عمره اثنتين وثمانين سنة. وهذا أمر خولف فيه الشرع جهاراً في عاصمة الخلافة الإسلامية، ومهبط الوحي النبوي شقوا عصا طاعة الإمام الذي انتخب انتخاباً شرعياً، وأقر عليه أكابر أصحاب رسول الله ﷺ الذين عهد إليهم بذلك عمر بن الخطاب، ولم يكن ثَمَّ ما يوجب الخروج عليه إذ يوجبه إلا الكفر البواح، كما هو نص حديث عبادة بن الصامت المتقدم، ولم يقل بذلك أحد منهم في حق عثمان ولا حكم به قاض مستنداً إلى كتاب أو سنّة وكل ما نقموه عليه أمور لا حرج على الإمام في فعلها منها تولية أقاربه وليس في هذا أدنى عيب لأن رسول الله ﷺ ولى علياً وهو ابن عمه، وإذا كانت تولية القريب عيباً لنهى عنها عليه السلام، ولم يفعلها، ومع كل ذلك فالإسلام سوى بين الناس لا قريب عنه ولا بعيد، فالأمر موكول لرأي الإمام الذي ألقيت إليه مقاليد الأمة، فإن ولى من حاد عن الذين شكونا إليه، فإن لم يقبل صبرنا كما أمرنا بذلك رسول الله ﷺ لأن شق

عصا الجماعة من مصائب الأمم التي تسرع إليها بالخراب وليس في الشرع مبيح خلع الإمام إلا كفره الصراح.

ومما نقموه على عثمان إخراجه أبا ذر إلى الربذة، وقد قدمنا لك سبب إخراجه لأن مذهبه الذي كان يدعو إليه ليس مقبولاً. ويمكن أن يحدث منه قيام الفقراء ضد الأغنياء فيحدث ما لا يحمد.

ومن ذلك زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة، وهذا إنما فعله لكثرة المسلمين وانتشارهم في أنحاء المدينة مما لم يكن في عهد رسول الله ﷺ. ومن ذلك إتمامه الصلاة في منى وعرفة، وكان الأمر في عهد رسول الله ﷺ والخليفتين من بعده على القصر، ولما سأله عبد الرحمن بن عوف عن ذلك أبدى سبباً واضحاً فقال: بلغني أن بعض حاج اليمن والجفاة جعل صلاة المقيم ركعتين من أجل صلاتي، وقد اتخذت بمكة أهلا ولي بالطائف مال وهو عذر له رضي الله عنه، وإن لم يقبله عبد الرحمن.

ومن ذلك سقوط خاتم النبي ﷺ من يده في بئر أريس وعدم لقيه.

ومن ذلك تنازله لمروان بن الحكم عن ثمن خمس مغانم أفريقية، ولم يمنع الشرع الإمام أن ينفل من شاء من المسلمين ما لم ينفل غيره، فقد روى مسلم أن رسول الله ﷺ وعلى آله قد كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسم عامة الجيش، وكان عليه الصلاة والسلام يسهم أحياناً لبعض من لم يحضر الغزوة كما أسهم لبعض المتخلفين عن بدر ولمن قدموا عليه يوم خيبر من مهاجرة الحبشة والدوسيين.

فإذا نظرت رعاك الله لهذه الأمور التي نقموها على عثمان رضي الله عنه لم تر منها شيئاً يشينه ولم يخرج في شيء منها عن حدود الشرع، ولكن أولئك قوم بطروا فطلبوا لأنفسهم ما ليس لهم، فحق عليهم العذاب. قال تعالى: ﴿واتَّقُوا فِتْنَةً لا تصيبنَّ الَّذينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً واعلَمُوا أنَّ اللَّهَ شديدُ العِقابِ﴾[1] وقد عاقب سبحانه فأبلغ العقوبة. نسأله سبحانه أن يرفع عنا مقته وغضبه ويوفقنا لما فيه رضاه بمنه وكرمه.

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٥.

خلافة علي

ظل المسلمون حيارى بعد قتل الخليفة المظلوم لا يجدون لهم ملجأ كأنهم فوضى ولم يكن أمامهم من يصلح للخلافة بعد عثمان إلاَّ علي بن أبي طالب، فذهب إليه معظمهم يطلبون منه أن يلي الخلافة، فقدر المستقبل حق قدره، وعلم أنه إنما يستقبل فتنة سائرة لا مرد لها، فقال لهم: التمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول فناشدوه الله والدين، فقال: قد أجبتكم واعلموا أني إن أجبتم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم إلا أني من أطوعكم وأسمعكم لمن وليتموه. فأبوا إلا إياه، ثم رأوا أن هذا الأمر لا يتم إلا بمبايعة الزبير وطلحة، فذهب إليهما جماعة وأتوا بهما فبايعاه، قيل كرهاً، وقيل: إن الزبير لم يبايع أصلاً، ثم قال الناس، فبايعوه وتخلف عن بيعته جمع من أكابر الصحابة في المدينة، كسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن سلام، وقدامة بن مظعون، وأبي سعيد الخدري، وكعب بن عجرة، وكعب بن مالك، والنعمان بن بشير، وحسان بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وفضالة بن عبيد وغيرهم من أكابر الصحابة في الأمصار. (مقدمة ابن خالدون).

ولما رأى علي أن بيعته تمت قام فخطب في الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إن الله أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة. إن الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلمين على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل

دم امرىء مسلم إلا بما يجب. بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإنما خلفكم الساعة تحدوكم فخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بالناس أخراهم. اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض» ثم نزل(١).

ترجمة علي

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي القرشي ابن عم رسول الله ﷺ. وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ابن عبد مناف. ولد رضي الله عنه في السنة الثانية والثلاثين من ميلاد رسول الله ﷺ، فلما بعث عليه السلام كان علي دون البلوغ، وكان مقيماً معه في منزله يطعمه ويسقيه لفاقة لحقت بأبيه، فاهتدى بهدي رسول الله ﷺ، ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان وغيرها. ولما هجر عليه السلام من مكة إلى المدينة فداه علي بنفسه ونام على فراشه ليظن المحاصرون أن رسول الله ﷺ لم يزل نائماً فلا يتبعونه، ثم لحقه بعد قليل، وشهد مع رسول الله ﷺ وعلى آله غزواته كلها إلا غزوة تبوك، فإنه خلفه في أهل بيته، وقال له: **«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي»**(٢)، وكان له القدم الثابت في جميع الغزوات، فهو أول المبارزين يوم بدر، وممن ثبت يوم أحد وحنين وعلى يديه فتحت خيبر، وزوجه عليه السلام بنته فاطمة في

---

(١) ولما فرغ من الخطبة وهو على المنبر قالت السبئية:

خذها إليك واحذرن أبا الحسن	إنما غر الأمر إمرار الرسن
صولة أقوام كأشداد السفن	بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلين كالشطن	حتى يمرن على غير عنن

فقال علي رضي الله عنه:

إني عجزت عجزة لا أعتذر	سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلي ما كنت أجر	وأجمع الأمر الشتيت المنتشر
إن لم يشاغبني العجول المنتصر	إن تتركوني والسلاح يبتدر

(انظر الكامل في التاريخ ٣/١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي، والترمذي في المناقب، وابن ماجة في المقدمة، وأحمد ١/١٧٠ - ١٧٧، ١٧٩، ١٨٣، ١٨٤، و٣/٣٢.

السنة الثانية من الهجرة فجاء منها بالحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى، وناب عن رسول الله ﷺ في قراءة أوائل التوبة في موسم الحج إيذاناً ببراءة الله ورسوله من المشركين. ولما توفي رسول الله ﷺ، وبويع أبو بكر بايعه علي مع أنه كان يرى له حقاً في الخلافة لقرابته من رسول الله ﷺ ولكنه كان يكره الخلاف، ولذلك كان محمد بن سيرين التابعي يكذب كل ما نسب لعلي من الأقوال التي فيها حط من مقام الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، كما روي ذلك عن البخاري في صحيحه.

ولما ولي عمر بايعه كذلك وزوجه بنته أم كلثوم وكثيراً ما كان عمر يستخلفه على المدينة إذا غاب عنها. ولما بويع عثمان بايعه كذلك حتى كان آخر خلافته وقام عليه الثوار وشنعوا عليه بتوليه أقاربه، وكان علي كثيراً ما يمحض له النصح ويرشده إلى ما فيه النجاح والفلاح، فلما حل القضاء المبرم واستشهد عثمان أقبل عليه المسلمون وبايعوه بالخلافة لخمس بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين فقام بها رضي الله عنه ما يقارب خمس سنين لم يصف له فيها يوم، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

كان رضي الله عنه آدم شديد الأدمة ثقيل العينين عظيمهما ذا بطن أطلع عظيم اللحية كثير شعر الصدر هو إلى القصر أقرب، وكان ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها، وكان من أحسن الناس وجهاً، ولا يغير شيبه كثير التبسم وله من الأولاد غير من ذكرناهم: العباس، وجعفر، وعبد الله، وعثمان، وعبيد الله، وأبو بكر، ومحمد الأصغر، ويحيى، وعمر، ورقية، ومحمد الأوسط، ومحمد الأكبر الشهير بابن الحنفية، وأم الحسن، ورملة الكبرى، وأم كلثوم الصغرى وأم هانيء، وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الصغرى وفاطمة، وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم سلمة، وأم جعفر، وجمانة، ونفيسة من أمهات شتى، وأعقب من هؤلاء الحسنان، ومحمد الأكبر وعباس وعمر.

أعمال علي

أول إمارته بعث عمالاً على الأمصار غير جميع عمال عثمان، فبعث على

البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري بدل عبد الله بن عامر، وعلى الكوفة عمارة بن شهاب بدل أبي موسى الأشعري، وعلى اليمن عبيد الله بن عباس بدل يعلى بن منبة، وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة بدل عبد الله بن سعد، وعلى الشام سهل بن حنيف بدل معاوية بن أبي سفيان، وأمر كلاً بالتوجه إلى عمله فأما عثمان بن حنيف فتوجه إلى البصرة، ولم يرده عنها أحد، ولم يعارضه ابن عامر، وأما عمارة بن شهاب فقابله وهو قريب من الكوفة طليحة بن خويلد الأسدي، فقال له ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً، فرجع إلى علي، وأما عبيد الله بن عباس، فلما قارب اليمن خرج يعلى بن منبة وأخذ كثيراً من الأموال وذهب إلى مكة، فدخل عبيد الله اليمن غير معارض، وأما قيس بن سعد، فلما وصل مصر افترق أهلها عليه ففرقة دخلت في الجماعة، فرقة اعتزلت بخربتا، وقالوا: لا نكون مع علي إلا إن قتل قتلة عثمان، وفرقة قالوا نحن مع علي إلا إن قاد من إخواننا، فكتب قيس إلى علي بذلك، وأما سهل بن حنيف، فلما وصل تبوك قابلته خيل عليها رجال من أهل الشام فردوه، وامتنع معاوية من بيعة علي، واحتج على خلافته لأنه ظن فيه الهوادة في نصرة عثمان على قاتليه، ومعاوية يرى لنفسه حقاً عظيماً في القصاص من قتلة عثمان لأنه وليه، والله تعالى يقول: ﴿**وَمَنْ قُتِلَ مَظْلوماً فقدْ جعلنا لوليِّهِ سُلطاناً فَلا يُسرفْ في القتل**﴾(١) ولم ير في الامتناع عن البيعة خروجاً على الإمام لأنه رأى أن بيعة علي لم تنعقد حيث لم تكن بإجماع ذوي الحل والعقد كما قدمنا، فأرسل إليه رجلاً بطومار ليس فيه شيء من الكتابة وعنوانه من معاوية إلى علي بن أبي طالب وأمره إذا قدم المدينة أن يرفعه ليعلم الناس أنه مخالف، ففعل الرجل ما أمر به، فلما علم أهل المدينة بذلك أحبوا أن يعلموا رأي علي في هذه المشكلة، أيقاتل معاوية أم يحذر ذلك، فدسوا إليه زياد بن حنظلة وكان منقطعاً إليه، فقال له علي يا زياد تيسر. قال: لأي شيء؟ قال: لغزو الشام، فقال زياد الأناة والرفق أمثل، وأنشد:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وقال علي:

متى تجمع القلب الذكي وصارما   وأنفا حميا تجتنبك المظالم

(١) سورة الإسراء آية ٣٣.

فخرج زياد، فقالوا له: ما وراءك؟ قال: السيف وقد عد علي خلاف معاوية بغياً وخروجاً عن طاعته لأنه رأى أن بيعته انعقدت بمن بايع، فلزمت من لم يبايع وأرسل إلى أهل الأمصار يستنفرهم لقتال معاوية وكان الزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله قد خرجا يريدان العمرة، فبينما علي يتجهز إذ جاءه خبر لم يكن في حسابه، وهو خلاف طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وأنهم قصدوا البصرة، وسبب ذلك أن أم المؤمنين لما قضت حجها بلغها وهي عائدة قتل عثمان وخلافة علي، فقالت قتل عثمان والله مظلوماً والله لأطلبن بدمه، فرجعت إلى مكة وخطبت الناس فقالت:

«أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه، وقد استعمل أمثالهم قبله ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزل لهم عنها، فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام، والله لأصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم، ووالله لو أن الذي اعتدوا به عليه ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه (غسلوه) كما يماص الثوب بالماء» وتبعها في رأيها عبد الله بن الحضرمي عامل مكة، ومن هرب من بني أمية من المدينة، وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة، ويعلى بن منية من الكوفة وتبعها أيضاً الزبير وطلحة.

وكان كثير من الصحابة يرون أن أول الواجبات على المسلمين في هذا الوقت هو تتبع قتلة عثمان والقصاص منهم إقامة لحد الله، ورأوا أنه لا يصلح تأخيره مهما نتج منه، فكأن إقامة هذا الحد في عنق كل مسلم وهو ملزم بالقيام بما يوصل إليه ولم ير الزبير ولا طلحة هذا خروجاً على الإمام لأن بيعة علي لم تنعقد حسبما اجتهدا لأن كثيراً من الصحابة في المدينة وغيرها لم يبايعوا. أما بيعتهما فكانت كرهاً، والسيف على أعناقهما، وهذا على رأيهما لا تجب به طاعة، فاستقام رأيهم على قصد البصرة ودعوا عبد الله بن عمر للخروج معهم، فأبى وسار مع أم المؤمنين جمع كثير، وكان يصلي بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، ولما قاربوا البصرة أرسلت عائشة عبد الله بن عامر ليعرف أهلها بقدومها، ففعل،

أما عثمان بن حنيف أمير البصرة، فإنه بعث إلى أم المؤمنين عمران بن حصين، وأبا الأسود الدؤلي ليسألاها عن سبب قدومها، فلما وصلاها قالا إن أميرنا بعثنا إليك لنسألك عن مسيرك فهل أنت مخبرتنا؟ فقالت: «ما مثلي يعطي لبنيه الخبر. إن الغوغاء وأهل القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ وأحدثوا فيه، وآووا المحدثين، فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسول الله ﷺ مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر، فاستحلوا الدم الحرام، وسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء وما الناس وراءنا وما ينبغي لهم من إصلاح هذه القصة وقرأت: ﴿لا خيرَ في كثيرٍ منْ نجواهم إلاَّ مَنْ أمرَ بصدقةٍ أوْ معروفٍ أوْ إصلاحٍ بينَ النّاسِ﴾[1].

فتركاها وأتيا الزبير، وقال: ما أقدمكما؟ قالا: الطلب بدم عثمان، فقالا: ألم تبايعا علياً؟ قالا: والسيف على أعناقنا، وما نستقبله البيعة إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان، فرجع عمران وأبو الأسود إلى ابن حنيف وأخبراه الخبر، فصمم على منع البصرة حتى يحضر علي، ثم أراد أن يعلم هل أحد في البصرة يمالىء طلحة والزبير، فدس رجلاً إلى الناس، فقال: أيها الناس أنا فلان إن هؤلاء القوم إن كانوا جاءوا خائفين فقد جاءوا من بلد يأمن فيه الطير، وإن كانوا جاءوا يطلبون قتلة عثمان، فما نحن قتلته فأطيعوني وردوهم من حيث جاءوا، فقام إليه أحد زعماء البصرة، وقال: إن زعموا أنّا قتلة عثمان إنما جاءوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا، ومن غيرنا. فعرف ابن حنيف أن لطلحة والزبير أنصاراً بالبصرة، فخرج بمن معه حتى نزل ميسرة المربد، وأقبلت أم المؤمنين، فنزلت ميمنته، وخطبت الناس، وكانت جمهورية الصوت فحمدت الله تعالى، ثم قالت:

«إن الناس يتجنون على عثمان ويزرون على عماله، ويأتوننا بالمدينة، فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم، فننظر في ذلك فنجده بريئاً تقياً وفياً، ونجدهم فجرة غدرة كذبة، وهم يحاولون غير ما يظهرون، فلما قووا كاثروه واقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر إلا أن مما ينبغي لا ينبغي لكم غيره أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله، ثم قرأت: ﴿ألَمْ ترَ إلَى

---

(١) سورة النساء آية ١١٤.

الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُدْعَونَ إِلى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[1]».

فتبعها جمع من أصحاب عثمان أقبل عليها جارية بن قدامة السعدي، وقال: «يا أم المؤمنين، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل عرضة للسلاح، إنه قد كان لك من الله ستره وحرمة، فهتكت سترك وأبحت حرمتك، إنه من رأى قتالك يرى قتلك، إن كنت أتيتنا طائعة فارجعي إلى بيتك، وإن كنت أتيتنا مكرهة، فاستعيني بالناس» ثم أقبل عليها حكيم بن جبلة من فرسان البصرة ومعه جمع فقاتل من معها فأمرتهم بالكف والمدافعة، فلم ينته حكيم فأمرت أن يأتي الجيش مقبرة بني مازن في الجهة اليمنى، وحجز الليل بين الفريقين، فلما كان الصباح خرج حكيم يقدم جيشه، وقاتل إلى قريب المساء، فلما مسهم حر السلاح تنادوا إلى الصلح حتى يرسلوا إلى المدينة من يعلم لهم أكانت بيعة طلحة والزبير طوعاً أم كرهاً، فإن ثبت أنهما أكرها ترك ابن حنيف البصرة، وإن لم يكونا أكرها يرجع الزبير وطلحة، فأرسلوا لذلك كعب ابن سور قاضي البصرة، فلما قدم المدينة قال: يا أهل المدينة أنا رسول أهل البصرة إليكم أسألكم أأكره طلحة والزبير على البيعة، أم أتياها طائعين؟ فأجاب أسامة بن زيد بأنهما أكرها، فلقي أسامة من والي المدينة سهل بن حنيف أخي عثمان بن حنيف إهانة، ويبلغ هذا الخبر علياً، فأرسل عثمان بن حنيف يقول له، والله ما أكرها على فرقة، ولقد أكرها على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا. فقدم كعب بن سور ووافق قدومه وصول كتاب علي، فأخبر كعب باكراه الزبير وطلحة على البيعة، فطلبا من ابن حنيف أن يخرج من البصرة، فامتنع محتجاً بكتاب علي، فبيته القوم ذات ليلة، واستولوا على البصرة وجعلوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر، وحبسوا ابن حنيف، فبلغ ذلك حكيم بن جبلة، فأقبل برجاله يريد نصره وكلم عبد الله بن الزبير طالباً أن يخلي سبيل عثمان، ويجلس في بيت الإمارة حتى يأتي علي فأبى عليه ذلك، فتقدم حكيم وقاتلهم حتى قتل كثير ممن معه وهرب بقيتهم، فجاء الزبير وطلحة

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٣.

بمن غزا المدينة منهم فقتلوا إلا حرقوص بن زهير، فإن عشيرته منعته، وكانت هذه الواقعة لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، وأقامت بعدها أم المؤمنين ومن معها بالبصرة.

أما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فإنه لما بلغه وهو بالمدينة مسير عائشة وقد عبأ جيشه إلى الشام دعا وجوه أهل المدينة وقال لهم: «إن آخر هذا الأمر لا يصلح بما صلح به أوله، فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم»، فانتدب معه ناس، وثقل آخرون، فخرج من المدينة وهو يرجو أن يلحق الزبير وطلحة قبل أن يصلا البصرة، واستخلف على المدينة سهل بن حنيف، فلما وصل الربذة أتاه خبر سبقهم، فأقام بها، وأرسل محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر يستنفران الناس، وكتب معهم كتاباً إلى أهل الكوفة هذه صورته: «إني اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث، فكونوا لدين الله أنصاراً وأعواناً وانهضوا إلينا، فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمة إخواناً». وكان من رأي أبي موسى الأشعري أمير الكوفة قعود الناس عن هذه الفتن، فلما سأله أهل الكوفة عن الخروج إلى علي والقتال معه. قال: إنما هما أمران القعود في سبيل الآخرة والخروج في سبيل الدنيا، فلم يخرج مع ابن أبي بكر، وابن جعفر أحد، فأغلظا لأبي موسى، فقال لهما: والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما، فإن لم يكن بد من القتال فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا، فرجعا إلى علي بالخبر، فلقياه بذي قار، فأرسل بدلهما مالك بن الحارث الأشتر، وعبد الله بن عباس، فلما قدما الكوفة كلما أبا موسى واستعانا عليه بنفر من أهلها، فقام وخطب الناس، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: «أيها الناس إن أصحاب النبي ﷺ الذين صحبوه أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه وإن لم يكن علينا لحقاً، وأنا مؤد إليكم نصيحة كان الرأي أن لا تستخفوا بسلطان الله، وأن لا تجترئوا على الله، وأن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا فهم أعلم بمن تصلح له الإمامة وهذه فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، والراكب خير من الساعي، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب، فاغمدوا السيوف وأنصلوا الأسنة وقطعوا الأوتار، وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة».

فرجع ابن عباس والأشتر إلى علي بالخبر، فأرسل الحسن بن علي وعمار بن ياسر فأقبلا حتى دخلا المسجد، فقال الحسن لأبي موسى: «لِمَ تثبط الناس عنا، فوالله ما أردنا إلا الإصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء»، فقال: «صدقت بأبي أنت وأمي، ولكن المستشار مؤتمن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خير من الراكب**»[1]، وقد جعلنا الله إخواناً، وقد حرم علينا دماءنا وأموالنا، فكثر الجدال بين الناس، فمن محرض على الخروج مع أمير المؤمنين ومن مثبط عنه».

فقام القعقاع ابن عمرو وقال: «يا أهل الكوفة إني لكم ناصح وعليكم شفيق أحب إليكم أن ترشدوا ولأقولن قولاً هو الحق، أما ما قال الأمير (أبو موسى) فهو الحق، ولكن لا سبيل إليه إنه لا بد من إمارة تنظم الناس وتنزع الظالم وتعز المظلوم، وهذا أمير المؤمنين ولي بما ولي وقد أنصف في الدعاء وإنما يدعو إلى الإصلاح، فانفروا وكونوا في هذا الأمر بمرأى ومسمع»، وقال سيحان بن صوحان من زعماء الكوفة: «أيها الناس إنه لا بد لهذا الأمر وهؤلاء الناس من والٍ يدفع الظالم ويعز المظلوم ويجمع الناس، وهذا وليكم يدعوكم لتنظروا فيما بينه وبين صاحبيه، وهو المأمون على الأمة الفقيه في الدين، فمن نهض إليه، فإنا سائرون معه».

وقال الحسن بن علي: «أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يدعيه أولو النهى أمثل في العاجل والآجل، وخير في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به، وابتليتم، وإن أمير المؤمنين يقول قد خرجت مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً، وإني أذكر الله رجلاً رعى حق الله إلا نفر، فمن وجدني مظلوماً أعانني، ومن وجدني ظالماً أخذ مني، والله إن طلحة والزبير لأول من بايعني وأول من غدر، فهل استأثرت بمال أو بدلت حكماً، فانفروا فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر»، فأثر فيهم هذا القول، ورضوا

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن والمناقب، ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة في الفتن، وأحمد ٢٨٢/٢ و ٤٨/٥، ١١٠.

بالخروج، فنفر معه قريب من تسعة آلاف ثلثهم في نهر الفرات والباقون ركباناً معه، فلما التقوا بأمير المؤمنين رحب بهم وقال لهم: «يا أهل الكوفة أنتم قاتلتم ملوك العجم وفضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم، فمنعتم حوزتكم، وأعنتم الناس على عدوهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك الذي نريد، وإن يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدأوا بظلم، ولم ندع أمراً فيه إصلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله».

ثم ندب القعقاع بن عمرو ليكون بينه وبين طلحة والزبير، وقال له: اذهب فادعهما إلى الألفة والجماعة، وعظِّم عليهما الفرقة، ثم قال له كيف تصنع فيما جاءك منهما وليس فيه وصاة؟ قال: نلقاهم بالذي أمرت به إن جاء منهم ما ليس عندنا فيه منك رأي اجتهدنا رأينا وكلمناهم كما نسمع ونرى أنه ينبغي. قال أنت لها، فقدم القعقاع البصرة، وبدأ بأم المؤمنين، فقال لها: أي أمة ما أقدمك هذه البلدة؟ فقالت أي بني: الإصلاح بين الناس. قال: فابعثي إليَّ طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما، فبعثت إليهما فحضرا، فقال القعقاع: «إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها، فقالت: الإصلاح بين الناس، فما تقولان أنتما؟ متابعان أم مخالفان؟ قالا: بل متابعان، قال: فاخبراني ما وجه هذا الإصلاح فوالله لئن عرفناه لنصلحن، ولئن أنكرناه لا يصلح. قالا: قتلة عثمان، فإن هذا الأمر إن ترك كان تركاً للقرآن. قال: قد قتلتم قتلة عثمان من أهل البصرة، وأنتما قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم يوم قتلتم ستمائة رجل، فغضب لهم ستة آلاف، فاعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم وطلبتم حرقوص بن زهير، فمنعه منكم ستة آلاف، فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولان، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم، فالذي حذرتم وقويتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون، وإن أنتم منعتم مضر وربيعة من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير». قالت أم المؤمنين، فماذا تقول أنت؟ قال أقول: «إن هذا الأمر دواؤه التسكين، فإن سكن اختلجوا، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كان علامة شر، فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم، ولا تعرضونا للبلاء، فتعرضوا له، فيصرعنا وإياكم، وأيم الله إني لأقول

هذا القول وأدعوكم إليه، وإني لخائف أن لا يتم حتى يأخذ الله حاجته من هذه الأمة التي قل متاعها، ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي حدث ليس كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل». قالوا: «قد أصبت وأحسنت. فإن رجع علي وهو على مثل رأيك صلح الأمر».

فرجع إلى علي وأخبره الخبر، فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح، وأقبلت وفود أهل البصرة على إخوانهم من أهل الكوفة لينظروا ما رأي إخوانهم، فوجدوا الجميع متفقين على الصلح، ولا يخطر لهم قتال إخوانهم ببال، فرجعوا إلى البصرة وأخبروا من بها بهذا الخبر السار. وقام علي خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وذكر شقاوة الجاهلية وسعادة الإسلام، وإنعام الله على الأمة بالجماعة على الخليفة من بعد رسول الله ﷺ ثم الذي يليه، ثم الذي يليه حدث هذه الحدث الذي جره على الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا، حسدوا من أفاءها الله عليه، وأرادوا رد الاسلام والأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره، ألا وإني راحل غداً فارتحلوا ولا يرتحلن أحد أعان على عثمان بشيء من أمور الناس، وليعن السفهاء على أنفسهم.

فلما سمع السبئية[1] (أصحاب ابن سبأ) مقالة علي سقط في أيديهم، ورأوا أن ضرر هذا الصلح إنما يعود عليهم لأنه إن تم كان على قتلهم، وتشاوروا فيما يفعلون لمنع هذا الصلح، فقال لهم رئيسهم الضال والدخيل في الإسلام: «يا قوم إن عزكم في خلطة الناس، فإذا التقى الناس غداً، فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر، فمن أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ويشغل الله علياً والزبير وطلحة ومن رأى رأيهم عما تكرهون، فأجمعوا على رأيه، ولا يشعر الناس بذلك». فلما أصبحوا سار علي وسار إليه طلحة والزبير فالتقى الجيشان خارج البصرة. فسأل علي بعض أصحابه عما سيفعله، فقال: الإصلاح وإطفاء النائرة لعل الله يجمع شمل هذه الأمة، ويضع حربهم. قال: فإن لم يجيبوا؟ قال: تركناهم ما تركونا. قال: فإن لم يتركونا؟ قال: دفعنا عن أنفسنا. قال: فهل لهم من هذا مثل الذي عليهم؟ قال: نعم، وقام إليه آخر، فقال: أترى لهؤلاء القوم من حجة في

(١) السبئية: أصحاب ابن سبأ «م» مر ذكرهم.

هذا الدم إن كانوا أرادوا الله بذلك؟ قال: نعم. قال: أفترى لك حجة بتأخير ذلك؟ قال: نعم. قال: فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غداً؟ قال: إني لأرجو ألا يقتل منا ومنهم أحد نقي قلبه لله إلا أدخله الجنة، ثم قال: «أيها الناس املكوا عن هؤلاء القوم أيديكم وألسنتكم أن تسبقونا فإن المخصوم غداً من خصم اليوم»، ثم أرسل إلى طلحة والزبير إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع فكفوا حتى ننزل وننظر في هذا الأمر فأجابا.

ثم خرج الزبير على فرسه بين الجيشين، فقيل لعلي هذا الزبير، فقال أما إنه أحرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكر، وخرج طلحة أيضاً، فخرج إليهما علي حتى اختلفت أعناق دوابهما، فقال: «لعمري لقد أعددتما سلاحاً ورجالاً إن كنتما أعددتما عند الله عذراً، فاتقيا الله، ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً. ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دمكما، فهل من حدث أحل لكما دمي؟» فقال طلحة: ألبت على عثمان، فلعن عليّ قتلة عثمان، ثم قال: أما بايعتني؟ قال: بايعتك والسيف على عنقي، ثم ذكر الزبير بأشياء كثيرة يلين بها قلبه، وقال: «أتذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ في بني غانم، فنظر إليّ فضحك وضحكت إليه فقلت له لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال لك رسول الله ﷺ ليس بمزه لتقاتلنه وأنت ظالم له»، فرجع الزبير وهو حالف أنه لا يقاتل علياً وخصوصاً حينما علم أن عمار ابن ياسر مع عليّ. وقد قال له رسول الله ﷺ: «تقتلك الفئة الباغية»(١)، فكأنه قد شعر بأنه أخطأ في اجتهاده لأنه يعمل لله، ومتى كان العمل لله كان الرجوع إلى الحق أقرب والهداية إلى الصواب أسهل، فرجع كل منهم إلى قومه والجميع لا يشكون في الصلح وباتوا بأهنأ ليلة للعاقبة التي أشرفوا عليه. وهنا رأى السبئية قاتلهم الله أن الوقت قد حان لتنفيذ مآربهم، فخرجوا في الغلس من غير أن يشعر بهم أحد، وقصد مضرهم مضر البصرة وربيعتهم ربيعة البصرة، ويمنهم يمن البصرة، ووضعوا فيهم السلاح، فثار كل قوم في وجوه أصحابهم، وسأل طلحة والزبير عن الخبر، فقيل لهما: طرقنا أهل الكوفة

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن، والترمذي في المناقب، وأحمد ١/١٦١، ٢٠٦ و ٣/٥، ٩١ و ٤/١٩٧ و ٥/٢١٥، ٣٠٦ و ٦/٢٨٩.

ليلاً فقال قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء وإنه لن يطاوعنا، وسأل عليّ عن الخبر، وكان السبئية قد وضعوا عنده رجلاً يخبره إذا سأل فقال له: ما شعرنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم فوجدنا القوم على رحل فركبوا وثار الناس، فقال عليّ: لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء وأنهما لن يطاوعانا، ثم نادى في الناس أن كفوا، وكان من رأي الجميع في تلك الفتنة أن لا يبدأوا بقتال يطلبون بذلك الحجة، وألا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح، ولا يستحلوا سلباً، ولا يرزئوا بالبصرة سلاحاً ولا ثياباً ولا متاعاً. فجاء كعب بن سور قاضي البصرة إلى أم المؤمنين، وقال لها: أدركي الناس قد أبى القوم إلا القتال لعل الله أن يصلح بك، فركبت بعد أن ألبسوا هودجها الأدراع، ثم سارت ووقفت بحيث تسمع ضوضاء القتال، أما الزبير فإنه ترك القوم يقتتلون ورجع، فتبعه رجل يعرف بابن جرموز وقتله غدراً وهو يصلي بوادي السباع، ولم يقاتل جيش البصرة إلا قليلاً ثم هزم، فمروا في هزيمتهم على أم المؤمنين راكبة هودجها، فأطافوا بجملها، وقالت لكعب بن سور: تقدم إلى هؤلاء القوم بالمصحف، وادعهم إلى كتاب الله، فرماه بعض السبئية بسهم قتله ورموا هودج أم المؤمنين بالنبل فجعلت تنادي البقية البقية يا بَنِي الله اذكروا الله والحساب، ولا يأبون إلا إقداماً فحرضت جيش البصرة على القتال حينما رأت أهل الكوفة يريدون هودجها، وهنا كانت حميتهم العظمى لحرم رسول الله ﷺ ولم يكن هنا محيص عن القتال، لأنه كالسيل إذا أتى لا يرد. وأمسك بخطام الجمل كثير من أرباب الشجاعة من قريش وغيرهم فقتل دونه نحو السبعين من قريش وعدد عظيم من غيرهم، وممن قتل دونه محمد بن طلحة، وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، واشتد أهل الكوفة على الجمل لأنهم رأوا أن البصريين لا ينهزمون ما دام واقفاً فرماه كثير منهم وكل من رماه قتل، فلما رأى عليّ شدة الأمر وكثرة القتلى من المسلمين قال: اعقروا الجمل، فإنه إن عقر تفرقوا عنه، والذي دعاه إلى هذا الأمر الحذر على أم المؤمنين أن تصاب من كثرة النبل الذي سدد لهودجها، فقطعوا ساق الجمل، ثم اجتمع القعقاع بن عمرو وزفر بن الحارث على قطع بطان الجمل وحمل الهودج، وإنه مثل القنفذ من كثرة السهام، وعند ذلك انهزم أهل البصرة، فنادى علي «ألا لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح، ولا تدخلوا دوراً»، وأمر بحمل الهودج من بين القتلى، وأمر

محمد بن أبي بكر أن يضرب عليه قبة، وقال: أنظر هل وصل إليها شيء من جراحة، فوجدها بحمد الله سليمة لم تصب بشيء، ثم جاءها علي، فقال كيف أنت يا أمه؟ قالت: بخير يغفر الله لك. قال: ولك، وظهرت آثار الكدر على أمير المؤمنين من هذا الحادث الجلل الذي لم يكن فيه مأرب، وكذلك على السيدة أم المؤمنين فإنها كانت تود الصلح ولم يجر ما جرى إلا رغماً عن الجميع وكان علي يتمثل بعد انتهاء الموقعة بقول الشاعر:

إليك أشكو عجري وبجري ومعشر نفسي على بصري
قتلت منهم مضري بمضري شفيت نفسي وقتلت معشري

ثم أمر أن تنزل أم المؤمنين في دار خلف بن عبد الله الخزاعي على صفية بنت الحارث بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار وأذن في دفن القتلى، ثم أطاف عليهم، فلما رأى كعب بن سور قال: زعمتم أنه خرج معهم السفهاء، وهذا قد ترون، ولما أتى على طلحة قال: لهفي عليك أبا محمد أنا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كنت أكره أن أرى قريشاً صرعى وأنت والله كما قال الشاعر:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه إذ ما هو استغنى ويبعده الفقر

وصلى على القتلى من أهل البصرة وأهل الكوفة وبعث ما كان في العسكر من الأسلاب إلى مسجد البصرة، وقال: من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحاً في الخزائن عليه سمة السلطان، ثم دخل على البصرة فبايعه أهلها وولى عليها عبد الله بن عباس، وجعل على الخراج زياد بن أبي سفيان، ثم بلغه أن رجلاً قال: جزيت عنا أمنا عقوقنا، وقال الآخر: يا أمي توبي، فأمر بكل منهما أن يجلد مائة جلدة، ثم جهّز علي أم المؤمنين، وسيرها إلى المدينة واختار معها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات، وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر، فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه اجتمع الناس إليها فقالت: يا بني لا يعتب بعضنا على بعض إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وبين أحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار، فقال علي: صدقت والله ما بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، وخرجت يوم السبت غرة رجب من السنة السادسة

والثلاثين، فتوجهت إلى مكة فحججت ثم رجعت إلى المدينة والحمد لله.

ورجع علي إلى الكوفة التي جعلها مقر خلافته فأرسل جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية بالشام يدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، ويعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته فامتنع معاوية حتى تقتل قتلة عثمان حيث كانوا، ثم يختار المسلمون لأنفسهم إماماً لأنه رأى أن بيعة علي لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد في الآفاق، ولا تتم البيعة إلا باتفاقهم ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم، أو من القليل منهم، فجعل رضي الله عنه القصاص من قتلة عثمان أول واجب على المسلمين، والذي يطالب به وليه، ثم اختيار الإمام أمر ثان، ولم يكن معاوية يتهم علياً رضي الله عنهما بالممالأة على عثمان حاشا لله، بل كان يظن فيه الهوادة عن نصرة عثمان من قاتليه، ولقد كان إذا وجه ملامته إنما كان يوجهها عليه في سكوته فقط، كما ذكر ذلك العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه. أما علي رضي الله عنه، فكان يرى أن بيعته قد تمت، ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي ﷺ وهو موطن الصحابة، وأرجأ الأمر في القصاص من قتلة عثمان إلى اجتماع الناس، واتفاق الكلمة فيتمكن حينئذ مما يجب أن يفعل، وبذلك عد من لم يبايعه خارجاً عليه يحل له قتاله، فخرج، فعسكر بالنخيلة، وقدم عليه ابن عباس من البصرة واستخلف عليها زياداً، ثم قدم طلائعه وعبىء جيوشه قاصداً محاربة أهل الشام لإجبارهم على الدخول فيما دخل فيه الناس. ولما علم بذلك معاوية سار إليه في جيوش الشام، فالتقى الجيشان في سهل صفين على نهر الفرات شرقي حلب، فمكثا يومين ابتدأت بعدهما المراسلة، فأرسل علي بشير بن عمرو الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي، فقال لهم: ائتوا هذه الرجل فادعوه الى الله والطاعة والجماعة، فتوجهوا إليه، فتكلم بشير بن عمرو، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه، وإني أنشدك الله ألا تفرق جماعة هذه الأمة، وألا تسفك دماءها بينها»، فقال معاوية: «هلا أوصيت بذلك صاحبك؟» فقال بشير: «ليس مثلك. إن صاحبي أحق البرية بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة بالرسول ﷺ قال: فماذا يقول؟ قال: «يأمر بتقوى الله، وأن

تجيب ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك». قال معاوية: ونترك دم ابن عفان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً.

فذهب سعيد بن قيس يتكلم فبادره شبث بن ربعي فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا معاوية قد فهمت ما رددت على بشير إنه والله لا يخفى علينا ما تطلب إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك قتل إمامكم مظلوماً، فنحن نطلب بدمه، فاستجاب لك سفهاء طغام، وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت. تطلب ورب متمني أمر وطالبه يحول الله دونه، وربما أوتي المتمني أمنيته، وفوق أمنيته، والله مالك في واحدة منهما خير. والله إن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالاً، ولئن أصبت ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحق من ربك صلي النار. فاتق الله يا معاوية، ودع ما أنت عليه، ولا تنازع الأمر أهله»؛ فأثرت مقالته هذه في معاوية أشد التأثير لأنه حمله فيها ما لم يرده، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد فإن أول ما عرف به سفهك وخفة حلمك أن قطعت على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه، ثم اعترضت بعد فيما لا علم لك به، فقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت. انصرفوا فليس بيني وبينكم إلا السيف».

ومن هنا يفهم أن السفراء بين الأمراء عليهم المدار في الإصلاح، والإفساد، ولقد صدق معاوية فإن شبث بن ربعي كان من أول الخارجين على أمير المؤمنين علي، فرجع الوفد إلى علي، وأخبره، وكانت الحرب إذاً لا محيص عنها إذ معاوية يطلب قتلة ابن عمه عثمان بن عفان، وهو أولى الناس بالمطالبة بذلك لأنه وليه وحدود الله لا تؤخر لأي سبب، وعلي يريد رده إلى الطاعة والجماعة، ثم ينظر في القصاص من قتلة عثمان، ومع ذلك كانوا يحذرون أن يلقى جمع أهل الشام جمع أهل العراق حذراً من الهلاك والاستئصال، فيضيع الإسلام ويطمع فيه أعداؤه، فصار علي يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج ومعه جماعة من أصحابه فيخرج له معاوية مثله وداموا على ذلك إلى أن أهلّ محرم السنة السابعة والثلاثين، فعقد علي ومعاوية هدنة مدتها شهر طمعاً في الصلح، واختلفت بينهم الرسل فأرسل علي عدي بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وشبث بن ربعي، وزياد بن حفصة، فتكلم عدي،

فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد. فإنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا، ونحقن به الدماء، ونصلح ذات البين إن ابن عمك أحسن الأمة سابقة وأحسنها في الإسلام أثراً، وقد استجمع له الناس، ولم يبق أحد غيرك وغير من معك، فاحذر يا معاوية لا يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل»، فقال معاوية: «كأنك إنما جئت مهدداً، ولم تأت مصلحاً. هيهات يا عدي، إني والله لابن حرب لا يقعقع لي بالشنان، وإنك والله من المجلبين على عثمان، وإنك من قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به»، فقال من مع عدي: «أتيناك فيما يصلحنا وإياك، فأقبلت تضرب لنا الأمثال. دع ما لا ينفع وأجبنا فيما يعم نفعه»، فطلب معاوية أن يسلم علي من معه من قتلة عثمان ومن ألّب عليه، فقال شبث بن ربعي: «أيسرك أن تقتل عمار بن ياسر؟» فقال: «وما يمنعني من ذلك، لو تمكنت من ابن سمية لقتلته بمولى عثمان»، فقال شبث: «والله الذي لا إله غيره لا تصل إليه حتى تندر الهام عن الكواهل وتضيق الأرض والفضاء عليك»، فقال معاوية: «لو كان كذلك لكانت عليك أضيق»، ثم تفرق القوم بلا نتيجة.

وكذلك رجع من بعثهم معاوية إلى علي لأنه كان يريد قبل كل شيء مبايعته، ثم ينظر في أمر قتلة عثمان، ولما انقضى شهر الهدنة أمر علي منادياً ينادي يا أهل الشام يقول لكم أمير المؤمنين قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه، فلم تنتهوا عن طغيانكم ولم تجيبوا إلى الحق، وإني قد نبذت إليكم على سواء. إن الله لا يحب الخائنين. ثم أوصى أصحابه فقال: «لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم، فأنتم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حجة أخرى، فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم، ولا تهيجوا النساء بأذى، وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والأنفس».

ثم عبّأ جيشه وأمر أمراءه، وكذلك فعل معاوية وابتدأ القتال يوم الثلاثاء أول يوم من صفر، فخرجت فرقة من أهل العراق ومثلها من أهل الشام واقتتلتا طول النهار، وهكذا في الأيام التالية له، فلما كان مساء الثلاثاء الثامن من صفر خطب علي أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: «الحمد لله الذي لا يبرم ما نقضه وما

أبرم لم ينقضه الناقضون ولو شاء الله ما اختلف اثنان من خلقه ولا اختلفت الأمة في شيء ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار، فنحن بمرأى من ربنا ومسمع، فلو شاء عجل الفتنة، وكان منه التغيير حتى يكذب الظالم ويعلم الحق أين مصيره، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال، والآخرة دار القرار، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ألا وإنكم لاقوا القوم غداً فأطيلوا الليلة القيام وأكثروا تلاوة القرآن واسألوا الله النصر والصبر والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين». وأجمع علي أمره علي ملاقاة جيش معاوية بجيشه كله، فلما أصبحوا التقى الجيشان، فتقاتلوا قتالاً شديداً وانصرفوا عند المساء، وكل غير غالب. أما في يوم الخميس عاشر صفر، فإن رحا الحرب دارت بشدة على الطائفتين وظهرت فصاحة الفصحاء وبلاغة البلغاء، وكل يرى نفسه في طاعة الله، فكان أحدهم إذا رأى فرقة ملت القتال رمى عليها بصواعق من لسانه فتعود إليها حميتها، وكان للأشتر بن الحارث اليد الطولى، فإنه صار يتقدم ممن معه حتى قارب معاوية وكان معاوية بعدها يقول كدت أنهزم، فذكرت قول ابن الاطنابة:

أبت لي عفتي وأبا بلائي ... وإقدامي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

فمنعني ذلك من الفرار وأحاطت به جيوش الشام، وحميت قلوبهم ولم يصدهم عن القتال إقبال الليل، فاستمروا على ما هم عليه ليلة تعد من ليالي الإسلام المظلمة، وأصبحوا وكان الملل والسآمة في جيش الشام أبين ورأى ذلك معاوية وعمرو بن العاص، فقال عمرو ندعوهم لكتاب الله أن يكون حكماً بيننا وبينهم، فأمر معاوية برفع المصاحف على الرماح ومنادياً يقول: «هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام، من لثغور العراق بعد أهل العراق»، فلما رآها أصحاب علي، وقد أشرفوا على الانتصار اختلفوا، ففرقة تقول: نجيب إلى كتاب الله عز وجل، ورئيسهم الأشعث بن قيس الكندي، وفرقة تأبى إلا القتال حتى يتم الأمر لأنهم ظنوا رفع المصاحف خديعة، ورئيسهم

الأشتر. وكان هذا رأي أمير المؤمنين، ولكنه اتبع رأي مخالفيه لكثرتهم، فأرسل الأشعث إلى معاوية يسأله عما يريد، فتوجه إليه وقال: لأي شيء رفعتم المصاحف؟ فقال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه تبعثون رجلا ترضونه ونبعث رجلاً نرضاه ونأخذ عليهما العهد أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه، ثم نتبع ما اتفقا عليه، فعاد إلى علي بالخبر، فقال الناس: رضينا وقبلنا، واختار أهل الشام عمرو بن العاص واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري، فحضر عمرو ليكتب الكتاب بين الفريقين بذلك فكتبوا:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾: «هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين علي، فقال عمرو: ليس لنا بأمير فمحاه علي، وقال: (هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم. أنَّا ننزل على حكم الله وكتابه وألا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله، وهما أبو موسى عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص عملا به، وما لم يجداه في كتاب الله، فالسنَّة العادلة الجامعة غير المفرقة، وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة لا يردانها في حرب، ولا فرقة حتى يقضيا. وأجلا القضاء إلى رمضان، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه وأن مكان قضيتهما مكان عدل من أهل الكوفة وأهل الشام».

وشهد على الكتاب جماعة من جيش علي ومثلهم من جيش معاوية، وتاريخ الكتاب يوم الأربعاء لثلاثة عشرة بقيت من شهر صفر سنة سبع وثلاثين واتفقوا على أن يجتمع الحكمان بدومة الجندل أو بأذرح في رمضان، ثم انفض الناس من هذا المحل المشؤوم الذي اجتمع فيه فئتان عظيمتان من المؤمنين يقاتل بعضهم بعضاً، ولكن الذي يخفف البلية أن الفريقين كانا يريدان الله بعملهما لأن الجميع كانوا يريدون إنفاذ حكمه حسبما اجتهدوا، ورأوا.

ورجع أمير المؤمنين من صفين إلى الكوفة وجيشه في شقاق واختلاف فريق

راض بالتحكيم ظان أنه حاسم للخلاف وجامع لكلمة المسلمين، وفريق كاره له قائل كيف تحكم في دين الله الرجال، وهؤلاء اعتزلوا إخوانهم يقولون ادهنتم في دين الله، وأولئك يقولون فارقتم إمامنا، فلما وصل عليٌّ الكوفة اعتزله جماعة ممن رأوا التحكيم ضلالاً، وأتوا حروراء، فنزلوا بها في اثني عشر ألفا، وأمروا على القتال شبث بن ربعي، وعلى الصلاة عبد الله بن الكوا اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فبعث إليهم علي عبد الله بن عباس وقال له: لا تراجعهم حتى آتيك، فلم يصبر عن مكالمتهم وقال: ما ما نقمتم من أمر الحكمين، وقد أمر الله بهما بين الزوجين: ﴿**وإن خفتُمْ شِقاقَ بينهما فابعثُوا حكماً من أهلِهِ وحكماً من أهلها إنْ يُريدا إصلاحاً يوفق اللَّهُ بينهما**﴾[1] فكيف بأمة محمد ﷺ؟ فقالوا: هذا لا يكون بالرأي والقياس، فإن ذلك قد جعله الله حكماً للعباد، وهذا أمضاه كما أمضى حكم الزاني والسارق فليس للعباد أن ينظروا فيه، فقال ابن عباس قال الله تعالى: ﴿**يحكمُ به ذوا عدلٍ منكمْ**﴾[2] فقالوا: والأخرى كذلك ليس أمر الزوجين، والصيد كدماء المسلمين وقدحوا في عدالة عمرو بن العاص، وقالوا قد حكَّمتم في أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يرجعوا وجعلتم بينكم الموادعة في الكتب، وقد قطعها الله بين المسلمين وأهل الحرب مذ نزلت براءة، فخرج إليهم علي ونزل في فسطاط يزيد بن قيس منهم بعد أن علم أنهم يرجعون إليه في رأيهم فصلى عنده ركعتين وولاه أصبهان والري، ثم خرج إليهم وهم في مجلس ابن عباس، فقال: مَنْ زعيمكم؟ قالوا: ابن الكوا. قال: فما هذا الخروج؟ قالوا: لحكومتكم يوم صفين. قال: قد اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف وإن أبيا فنحن من حكمهما براء. قالوا: فخبرنا أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء، فقال: إنا لسنا حكمنا الرجال، وإنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال. قالوا: فلمَ جعلتم الأجل بينكم؟ ليعلم الجاهل ويثبت العالم، ولعل الله يصلح في هذه الهدنة هذا الأمة، فرجعوا إلى

---

(١) سورة النساء آية ٣٥.

(٢) سورة المائدة آية ٩٥.

رأيه، فقال: ادخلوا مصركم رحمكم الله، فدخلوا عن آخرهم.

اجتماع الحكمين

ولما انقضى الأجل وحل رمضان في السنة السابعة والثلاثين أرسل علي أبا موسى الأشعري في أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانيء الحارثي، ومعهم عبد الله بن عباس يصلي بهم ويلي أمورهم، وأرسل معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام عليهم شرحبيل بن الصمة فاجتمع الفريقان في دومة الجندل، وكان معهم عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام والمغيرة بن شعبة، وسعد بن أبي وقاص، ولما اجتمع الحكمان قام أبو موسى، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر الحدث الذي حل بالإسلام والخلاف الواقع بأهله، ثم قال: «يا عمرو، هلم إلى أمر يجمع الله فيه الألفة ويلم الشعث ويصلح ذات البين»، فجزاه عمرو خيراً. وقال: «إن للكلام أولاً وآخراً ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى تنسى أوله، فاجعل ما كان من كلام نتصادر عليه في كتاب يصير إليه أمرنا» قال: فاكتب فدعا عمرو بصحيفة وكاتب، وقال له: اكتب فإنك شاهد علينا ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا حتى تستأمر فيه الآخر، فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا اكتب:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هذا ما تقاضى عليه أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ثم قال عمرو: نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ عمل بكتاب الله وسنّة رسوله حتى قبضه الله إليه وقد أدى الحق الذي عليه. قال أبو موسى اكتب، ثم قال في عمر مثل ذلك. قال عمرو اكتب. وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضا منهم وأنه كان مؤمناً. قال أبو موسى: ليس هذا مما قعدنا له. قال عمرو: لا بد والله من أن يكون مؤمناً أو كافراً. قال أبو موسى اكتب. قال عمرو: فظالماً قتل عثمان أو مظلوماً؟ قال: أبو موسى بل قتل مظلوماً. قال عمرو: أليس قد جعل الله لولي المظلوم

سلطاناً يطلب بدمه؟ قال أبو موسى نعم. قال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية؟ قال أبو موسى: لا. قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان أو يعجز؟ قال أبو موسى: بلى. قال عمرو للكاتب: اكتب، وأمره أبو موسى، فكتب، ثم قال أبو موسى هذا أمر قد حدث في الإسلام، وإنما اجتمعنا لله، فهلم إلى أمر يصلح الله به أمة محمد. قال عمرو: ما هو؟ قال أبو موسى: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً، وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً، فهل نخلعهما جميعاً، ونستخلف عبد الله بن عمر، قال عمرو: أيفعل ذلك عبد الله بن عمر؟ قال: نعم إذا حمله الناس على ذلك فعل، فقال له عمرو: هل لك في سعد؟ قال: لا». فعدد له جماعة وكلهم يأباه أبو موسى ولا يرضى إلا عبد الله بن عمر، فأخذ عمرو الصحيفة بعد أن ختما عليها جميعاً ولم يتفق الحكمان على من يولياه أمر هذه الأمة لأن أبا موسى رضي بخلع علي ومعاوية ولم يختر للخلافة إلا عبد الله بن عمر، وعمرو بن العاص لم يرضه، فافترقا على ذلك، ولم يحصل بينهما غير ما كتب في الصحيفة كما حكاه السعودي في رواية له، فأما أبو موسى فإنه استحيا أن يقابل علياً بعد أن أقر على خلعه من الخلافة، فلحق بمكة وأما عمرو بن العاص، فرأى أن الأمر صار شورى بين المسلمين حسبما سطر في الصحيفة ورضي به كلاهما، فتوجه هو وأهل الشام إلى معاوية فبايعوه بالخلافة لأنهم رأوه أهلاً لأن يقوم بأعبائها، أما أمير المؤمنين علي فإنه رأى أن الحكمين لم يفيا بما تعهدا به من الحكم بالقرآن بل اتبع كل منهما هواه، فصمم على حرب معاوية مرة أخرى، وخطب أصحابه خطبة قال فيها: «الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجلل، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. أما بعد. فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين، وفي هذه الحكومة أمري ونحلتكم رأيي لو كان لقصير أمر ولكن أبيتم ما أردتم فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

إلا أن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهرهما وأحييا ما أمات القرآن واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله، فحكما بغير حجة بينه ولا سنّة ماضية، واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشد،

فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين، استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام، وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين». ولكن حال بينه وبين ذلك أن خرج عليه جماعة زعموا أن التحكيم نقص في الدين، وهم الذين كانوا اعتزلوه أولاً، فأرسل إليهم عبد الله بن عباس، فلما صار إليهم رحبوا به وأكرموه، فرأى منهم جباهاً قرحة لطول السجود، وأيد كثفنات الإبل، عليهم قمص مرحضة وهم مشمرون، فقالوا: ما جاء بك يا ابن عباس؟ فقال: جئتكم من عند صهر رسول الله وابن عمه، وأعلمنا بربه وسنة نبيه. قالوا: إنّا أتينا عظيماً حين حكمنا الرجال في دين الله، فإن تاب كما تبنا، ونهض لمجاهدة عدونا رجعنا، فجادلوه وجادلهم، ومما احتجوا به أن علياً محا نفسه من إمارة المسلمين وقت كتابة الصحيفة. قال ابن عباس: ليس ذلك بمزيلها عنه، وقد محا رسول الله اسمه من النبوة، وقد أخذ على الحكمين ألا يجورا وأن يحورا، فعلي أولى من معاوية وغيره. قالوا: إن معاوية يدعي مثل دعوى علي. قال: فأيهما رأيتموه أولى، فولوه؟ قالوا: صدقت يا ابن عباس. قال ابن عباس: متى جار الحكمان فلا طاعة لهما ولا قبول لقولهما، فرجع معه ألفان منهما وبقي الباقون، فصلى بهم صلاتهم ابن الكوا وقال: متى كانت حرب فرئيسكم شبث بن ربعي الرباحي، وبقوا على ذلك يومين، ثم أجمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الراسبي، ومضوا إلى النهروان، فأصابوا مسلماً ونصرانياً، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني، فقالوا: احفظوا ذمة نبيكم. ولقيهم عبد الله بن خباب بن الأرت، وفي عنقه مصحف ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا: إن هذا الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك. قال: ما أحيا القرآن فأحيوه وما أماته فأميتوه، فوثب رجل منهم على رطبة فوضعها في فيه فصاحوا به فلفظها تورعاً، وعرض لرجل منهم خنزير فضربه الرجل، فقتله، فقالوا: هذا فساد في الأرض، فقال عبد الله بن خباب: ما على منكم بأس إني لمسلم. قالوا: حدثنا عن أبيك، قال: سمعت أبي يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه يمسي مؤمناً ويصبح كافراً فكن عبد الله المقتول ولا تكن القاتل**». قالوا: فما تقول في أبي بكر وعمر، فأثنى خيراً، فقالوا ما تقول في علي قبل التحكيم، وفي عثمان ست سنين، فأثنى خيراً، فقالوا: فما تقول في الحكومة والتحكيم؟ قال: أقول إن علياً أعلمَ بكتاب الله منكم وأشد توقياً على دينه، وأنفذ

بصيرة. قالوا: إنك لست تتبع الهدى إنك تتبع الرجال على أسمائها، ثم قربوه إلى شاطىء النهر فذبحوه وساوموا رجلاً نصرانياً بنخلة له، فقال: هي لكم، فقالوا ما كنا نأخذها إلا بثمن، فقال: ما أعجب هذا! تقتلون مثل عبد الله بن خباب، ولا تقبلون مني جنى نخلة، فلما بلغ أمير المؤمنين عنهم هذا الفساد صمم على البدء بهم فسار إليهم، وقدم لهم قيس بن سعد، فقال لهم: عباد الله أخرجوا إلينا طلبتنا[1] (قتلة عبد الله بن خباب) ادخلوا في هذا الأمر الذي خرجتم منه وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم، فإنكم ركبتم عظيماً من الأمر تشهدون علينا بالشرك وتسفكون دماء المسلمين.

وقال لهم أبو أيوب الأنصاري: عباد الله إنا وإياكم على الحال الأولى التي كنا عليها ليست بيننا وبينكم فرقة، فعلام تقاتلوننا؟ فأبى الخوارج إلا ما عزموا عليه وامتنعوا عن تسليم من قتل عبد الله بن خباب، فعبأ لهم أمير المؤمنين جيشه ونصب أبو أيوب راية الأمان وناداهم من جاء تحت هذه الراية، فهو آمن ومن لم يقتل ولم يستعرض، فهو آمن، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم، فانصرف فروة بن نوفل بخمسمائة حتى تنزل البندنجين[2] والدسكرة[3]، وانصرف جماعة إلى الكوفة وخرج إلى علي نحو مائة مسالمين، فبقي مع الخوراج ألفان وثمانمائة لم يلبثوا إلا ضحوة نهار حتى قتلوا ولم ينج منهم إلا ثمانية أشخاص، وقتل من أصحاب أمير المؤمنين تسعة، ثم أخذ ما في عسكرهم، فأما السلاح والدواب وما شهر عليه فقسم، وأما الإماء والعبيد والمتاع، فرده على أهله بالكوفة، ثم إن الذين كانوا فارقوهم والذين لجأوا إلى راية أبي أيوب، ومن كان أقام بالكوفة من الخوارج على الجياد تجمعوا وتأسفوا على خذلانهم أصحابهم، فقام فيهم المستورد أحد كبرائهم وخطبهم حاثاً على قتال علي، فخرجوا إلى النخيلة فأرسل إليهم عبد الله بن عباس ناصحاً، فأبوا فسار

---

(١) أي قتلة عبد الله بن خباب، «م».

(٢) البندنجين: ضبطها ياقوت «البندنيجين» وهو موضع بناحية العراق في طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد (انظر معجم البلدان ١/ ٤٩٩).

(٣) الدسكرة: قرية كبيرة ذات منبر بنواحي نهر الملك من غربي بغداد (معجم البلدان ٢/ ٤٥٥).

إليهم أمير المؤمنين وطحنهم جميعاً بالنخيلة، ولم ينج منهم إلا خمسة منهم المستورد، وابن جوين الطائي، وابن شريك الأشجعي.

ولما انتهى أمير المؤمنين من الخوارج أمر أصحابه بالتوجه إلى الشام لقتال معاوية ومن معه فقالوا يا أمير المؤمنين نفذت نبالنا وكلت سيوفنا ونسلت أسنة رماحنا، وعاد أكثرها قصداً، فارجع بنا إلى مصرنا، فلنستعد ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا، فإنه أقوى لنا على عدونا. ومن هذا يفهم أن القوم فلّت[1] عزائمهم، فسئموا القتال، وإذا كانت هذه حال الجيش فلا تستغرب ما آل إليه حال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فإن سلطته سارت إلى الوراء كل يوم في نقصان وهو كل ساعة يحرضهم بما أتاه الله من فصاحة اللسان وبلاغة القول وهم لا يزدادون إلا فتوراً، وقليل منهم الذي أخلص له القول والعمل وكثرت عليه الخوارج بحجتهم التي اتخذوها وهي أنه حكم الرجال في دين الله، ولا حكم إلا لله. وكان فيمن خرج عليه الخريت بن راشد الناجي في ثلاثمائة من بني ناجية جاء إليه فقال يا علي: والله لا أطيع أمرك ولا أصلي خلفك، وإني غداً مفارق لك، فقال له: إذاً تعصي ربك وتنكث عهدك، ولا تضر إلا نفسك أخبرني لِمَ تفعل ذلك؟ فقال: لأنك حكمت وضعفت عن الحق وركنت إلى القوم الذين ظلموا فأنا عليك زار، وعليهم ناقم، ولكم جميعاً مباين، فقال له: هلم أدارسك الكتاب وأناظرك في السنن، وأفاتحك أموراً أنا أعلم بها منك، فلعلك تعرف الآن ما أنت له منكر. قال: فإني عائد إليك. قال: لا يستهوينك الشيطان ولا يستخفنك الجهال والله لئن استرشدتني وقبلت مني لأهدينك سبيل الرشاد، فلم يسمع له قولاً بل سار بمن معه نحو نفر، فأرسل وراءهم زياد بن حفصة البكري وقال له سر حتى تأتي دير أبو موسى، وانتظر أمري، فسار زياد حتى أتى دير أبي موسى، وبعد مسيره أرسل إلى علي قرظة بن كعب الأنصاري يخبره أن أصحاب الخريت قتلوا رجلاً من الدهاقين كان قد أسلم، فبعث إلى زياد أن يتبع آثارهم ويطلب منهم من قتل هذا الدهقان، ثم يرده إليه، فإن أبوا ناجزهم، فسار زياد حتى لحقهم بالمذار، فقال زياد للخريت: ما الذي نقمت على أمير المؤمنين وعلينا حتى فارقتنا؟ فقال:

---

(١) فلت: فترت.

لم أرض صاحبكم إماماً ولا سيرتكم سيرة، فرأيت أن أعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشورى، فقال له زياد: وهل يجتمع الناس على رجل يشبه صاحبك الذي فارقته علماً بالله وسنته وكتابه مع قرابته من رسول الله ﷺ وسابقته بالإسلام؟ فقال الخريت: لا أقول في ذلك لا. قال زياد: ففيم قتلت المسلم الذي قتلته؟ قال: لم أقتله إنما قتله جماعة من أصحابي. قال: فادفعهم إلينا. قال: مالي إلى ذلك سبيل، فقاتلهم زياد إلى الليل، فهرب الخريت ليلاً.

ولما رأى ذلك زياد رجع إلى البصرة لمداواة من معه من الجرحى وأرسل إلى علي بالخبر، فأرسل إلى الخوارج معقل بن قيس الرياحي في ألفين، وكتب إلى ابن عباس بالبصرة أن يمده بألفين من أهلها عليهم رجل ذو نجدة فسار معقل ولحقه مدد أهل البصرة فوافوا الخوارج قرب جبل من جبال رامهرمز[1]، فقاتلوهم حتى قتل من أصحاب معقل نحو السبعين وانهزم الخريت ببعض أصحابه فأمر علي معقلاً أن يتبعه فتبعه حتى أجهز على بقية من معه وقتل الخريت. ثم خرج على أمير المؤمنين بعد ذلك كثير من الخوارج كلما أطفئت فتنة قامت أخرى.

أما معاوية رضي الله عنه فإنه مذ بويع بالخلافة استقام له الأمر بالشام وكانوا أحسن جند في طاعة الأمراء، فأراد أن يجمع كلمة المسلمين على بيعته، كما كان يريد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأرسل إلى مصر عمرو بن العاص.

وكان من خبرها أن علياً لما بويع أرسل إليها قيس بن سعد بن عبادة كما قدمنا فبايعه أهلها إلا جماعة منهم اعتزلوا بخربتا عليهم يزيد بن الحارث الدلجي أعظموا قتل عثمان ودخل معهم مسلمة بن مخلد، فكف عنهم قيس لعلمه أنهم ليسوا ممن يخاف شره، فلما علم بذلك أمير المؤمنين كتب إليه يأمره بقتالهم لأن معظم النار من مستصغر الشرر، فكتب إليه قيس: «أما بعد. فقد عجبت لأمرك تأمرني بقتال قوم كافين عنك مفرغيك لعدوك، ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك، فأطعني يا أمير المؤمنين واكفف عنهم، فإن الرأي تركهم والسلام». فعزله

(١) رامهرمز: هي مدينة مشهورة بنواحي خوزستان تجمع النخل والجوز والاترنج (معجم البلدان ١٧/٣).

أمير المؤمنين عنها وولاها محمد بن أبي بكر الصديق، فلما جاءها قصد المسجد وخطب أهلها، فقال: «الحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق، وبصرنا وإياكم كثيراً مما عمي عنه الجاهلون ألا إن أمير المؤمنين ولاني أمركم وعهد إليَّ ما سمعتم وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، فإن يكن ما ترون من إمارتي وأعمالي طاعة، فاحمدوا الله على ما كان من ذلك فإنه هو الهادي، وإن رأيتم عاملاً لي عمل بغير الحق فارفعوه إليَّ وعاتبوني فيه، فإني بذلك أسعد، وأنتم جديرون وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته». ثم نزل، وبعد شهر من مقدمه أرسل إلى المعتزلين بخربتا يخيرهم بين الطاعة أو الخروج من مصر فأجابوه إنا لا نفعل فدعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمرنا فلا تعجل لحربنا، فأبى عليهم، فامتنعوا وأخذوا حذرهم، وكانت حينذاك وقعة صفين فتمت وهم حذرون من محمد فلما حصل التحكيم طمعوا فيه ونابذوه فأرسل إليهم سرية لقتالهم، فقتلوا رئيسها، فأرسل أخرى فقتلوا رئيسها، ثم خرج معاوية بن خديج السكوني مطالباً بدم عثمان، فلما علم أمير المؤمنين بذلك رأى أن محمداً لا تمكنه المقاومة فولى على مصر الأشتر بن الحارث النخعي، وكتب إليه عهداً جمع فيه سياسة الدنيا وصلاح الآخرة، فتوفي في الطريق، وشق على محمد بن أبي بكر عزله فأرسل إليه علي: «أما بعد.. فقد بلغني موجدتك من تسريحي الأشتر إلى عملك وإني لم أفعل ذلك إلا ازدياداً لك مني في الجد، ولو نزعت ما تحت يدك وليتك ما هو أيسر عليك مؤنة وأعجب إليك ولاية. إن الرجل الذي كنت وليته أمر مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً، وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضي الله عنه، وضاعف له الثواب، أصبر لعدوك وشمر للحرب، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك».

فكتب إليه محمد: «أما بعد.. فقد انتهى إليَّ كتابك وفهمته وليس أحد من الناس أرضى برأي أمير المؤمنين ولا أجهد على عدوه، ولا أرأف بوليه مني، وقد خرجت فعسكرت، وأمنت الناس إلا من نصب لنا حرباً وأشهر لنا خلافاً، وأنا متبع أمر أمير المؤمنين وحافظ له والسلام».

فلما كانت سنة ثمان وثلاثين أرسل معاوية عمرو بن العاص في ستة آلاف

فسار حتى نزل أداني مصر، فجاءه من خالف على محمد بن أبي بكر، وطالب بدم عثمان، فاجتمع بهم، وكتب إلى محمد: «أما بعد. فتنح عني بدمك يا ابن أبي بكر، فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر. إن الناس في هذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلمون، فاخرج منها إني لك من الناصحين». فكتب محمد إلى علي بالخبر واستمده، فأرسل إليه أن يضم شيعته إليه، ويأمره بالصبر ويعده بإنفاذ الجيوش إليه، فقام محمد في الناس وندبهم إلى الخروج معه، فانتدب له ألفان أمّر عليهم كنانة بن بشير فسيرهم أمامه وتوجه وهو بألفين لقتال عمرو، فلما التحم كنانة بجيوش الشام ومعهم معاوية بن خديج من أهل مصر انهزم المصريون وقتل كنانة، فلما سمع بذلك من مع محمد تفرقوا عنه، فاختفى، أما عمرو فإنه سار حتى نزل الفسطاط، وخرج معاوية بن خديج يطلب محمد بن أبي بكر حتى التقى به فقتله.

ولما بلغ قتله أم المؤمنين عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً وضمت إليها أولاده. وبقتل محمد صارت مصر في طاعة معاوية بن أبي سفيان، وبايع له أهلها، أما المدد الذي أرسله أمير المؤمنين لمساعدة محمد بن أبي بكر، فإنه بلغهم وهم في الطريق قتله فرجعوا.

وبعد أن تم لمعاوية أمر مصر سيّر إلى البصرة عبد الله بن الحضرمي، وكان عليها إذ ذاك زياد بن أبي سفيان خليفة لابن عباس، فاجتمع إلى ابن الحضرمي جمع كثير من بني تميم كانوا يطلبون بدم عثمان، فطلب منهم المساعدة، فقام إليه الضحاك بن قيس وكان على شرطة ابن عباس فقال: «قبح الله ما جئتنا به وما تدعون إليه نحن الآن مجتمعون على بيعة علي، وقد أقال العثرة وعفا عن المسيء، أفتأمرنا أن ننتضي أسيافنا، ويضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية أميراً». فقام عبد الله بن خازم السلمي وقال للضحاك «اسكت فلست بأهل لأن تتكلم»، وقال لعبد الله: «نحن أنصارك ويدك والقول قولك»، فلما رأى ذلك زياد استجار بالأزد، فأجاروه هو وبيت ماله، وأرسل إلى علي بالخبر، فبعث إليه أعين بن ضبيعة المجاشعي التميمي ليفرق تميم عن ابن الحضرمي، فقتل غيلة، فلما بلغ ذلك علياً أرسل جارية بن قدامة السعدي، فسار إلى البصرة، وخطب الأزد وجزاهم عن أمير المؤمنين خيراً، وقرأ على أهل البصرة كتاب علي يهددهم

ويتوعدهم فيه بحرب أشد عن وقعة الجمل، فأجابه أكثر أهل البصرة، فسار إلى ابن الحضرمي وقاتله هو ومن معه حتى هزمه، فتبعوه حتى قتل.

ثم صار معاوية يوجه السرايا إلى بلاد أمير المؤمنين ليدخلها في طاعته وسيّر يزيد ابن شجرة إلى مكة ليحج بالناس، ويبايع أهلها على طاعته وكان واليها من قبل علي قثم بن العباس وليس عنده قوة يقاتل بها، فلم يقدم على القتال، فأما ابن شجرة فأمّن الناس إلا من قاتل وأرسل إلى أبي سعيد الخدري يخبره أن يأمر قثم ألا يصلي بالناس ولا يصلي أيضاً ابن شجرة، ويختار الناس من يصلي، فاختاروا شيبة بن عثمان، فصلى بهم وتم الحج بسلام، ولم يحصل إلحاد في الحرم حذراً من وعيده تعالى في قوله: ﴿ومَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإلحادٍ بظلمٍ نُذقهُ من عذابٍ أليمٍ﴾[1] وصارت السرايا بعد ذلك تتردد بين الجهتين وكل يريد جمع الكلمة، فلم يتيسر لأحدهما، ولكن الحجاز واليمن دخل أهلوها في طاعة معاوية حينما سيّر إليهما بسر بن أرطأة العامري، فلم يعد مستمسكاً ببيعة أمير المؤمنين إلا العراق وما والاها من بلاد فارس، وكلها نار تضطرم بالخلاف والشقاق، فريق شيعة علي، وآخرون خوارج لا يريدون علياً ولا معاوية، وفريق منافق يظهر طاعة علي ويخفي عداءه، فملهم أمير المؤمنين وسئم إمارته عليهم حتى خاطبهم بذلك في كثير من خطبه.

وفي السنة الأربعين من الهجرة النبوية أراحه الله من هذا الشقاق المتتابع، والخلاف المستعصى، فضمه إلى أخوانه من الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وسبب ذلك أنه اجتمع ثلاثة من الخوارج وتذاكروا ما حل بإخوانهم من الخوارج وكرهوا المقام بعدهم، فاتفقوا على أن يذهب أحدهم وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي إلى الكوفة، فيقتل علياً، ويذهب الثاني وهو البرك بن عبد الله التميمي إلى الشام فيقتل معاوية، ويذهب ثالثهم وهو عمرو بن بكر التميمي إلى مصر فيقتل عمرو بن العاص، واتعدوا بينهم ليلة ينفذون فيها ما اتفقوا عليه، فأما البرك، فذهب إلى معاوية، وانتظره في صلاة الصبح، فضربه بالسيف فوقع في أليته ولم يمته، فأمر به معاوية فقتل، وأما عمرو بن بكر، فذهب إلى عمرو، ولحسن حظه لم يخرج إلى الصلاة في ذلك اليوم لمرضه، فكان

---

(١) سورة الحج آية ٢٥.

يصلي بالناس خارجة بن حبيب السهمي فضربه الخارجي فقتله ظناً منه أنه عمرو، فخاب ظنه وقبض عليه، فقتل. وأما عبد الرحمن بن ملجم، فقصد الكوفة وانتظر أمير المؤمنين في صبح الليلة التي اتعد فيها الخوارج وهي ليلة الجمعة لسبع خلون من رمضان، فبينما أمير المؤمنين ينادي الناس الصلاة الصلاة إذ ضربه هذا الشقي بسيفه قائلاً: الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك، فقال علي: لا يفوتنكم الرجل، فشد عليه الناس وأخذوه. وقدم جعدة بن هبيرة يصلي بالناس الصبح، ثم قال رضي الله عنه النفس بالنفس إن هلكت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي، يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين. ألا لا يقتلن إلا قاتلي. انظر يا حسن إن أنا مت من ضربتي هذه فاضربه بضربة، ولا تمثل بالرجل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»**[1].

ودخل جندب بن عبد الله فقال يا أمير المؤمنين: إن فقدناك ولا نفقدك، فنبايع الحسن، فقال: ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر، ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما: «أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء أزوى عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأعينا الضائع، واصنعا للأخرى، وكونا للظالم خصيماً، وللمظلوم ناصراً، واعملا بما في كتاب الله، ولا تأخذكما في الله لومة لائم». ثم نظر إلى محمد الأكبر بن الحنفية، فقال له: هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم. قال: فإني أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك، وتزين أمرهما، ولا تقطع أمراً دونهما، ثم قال للحسن والحسين: يوصيكما به، فإنه شقيقكما وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه، وقال للحسن: «أوصيك أي بني بتقوى الله، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء، فإنه لا صلاة إلا بطهور، وأوصيك بغفر الذنب وكظم الغيظ، وصلة الرحم والحلم عن الجاهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش»، ثم لم يزل يذكر الله حتى مات رضي الله عنه، فغسله ولداه

---

(١) انظر في النهي عن المثلة ما جاء في البخاري كتاب المظالم باب رقم ٣٠، وكتاب الذبائح باب رقم ٢٥، وما جاء في أبي داود في كتاب الجهاد باب رقم ١١٠، وفي مسند أحمد ٤/٢٤٦، و٣٠٧.

الحسن والحسين وابن أخيه عبد الله بن جعفر، وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، وكبر عليه الحسن سبع تكبيرات. ومكث رضي الله عنه في الخلافة أربع سنين وسبعة أشهر وأياماً. أراد الله فيها أن يذيق الأمة فيها كأس الضر من الاختلاف عليه لتكون قد ذاقت الأمرين السراء والضراء، والأخوة والشقاق فتختار لنفسها ما يوفقها الله له، وقد كان الله سبحانه وتعالى يعلم الأمة المحمدية في عصر رسول الله ﷺ بعقاب يعجله جزاء على أعمال لتحذير الأمة من العودة لها كما عاقب بالهزيمة في غزوة أحد إذ فشل المسلمون وتنازعوا في الأمر وعصوا الرسول، فلم يعد المسلمون بعد ذلك لشيء من هذه الثلاث لعلمهم بأنه يبعدهم عن الله جل ذكره، وما داموا كذلك فنصره بعيد عنهم، وكذلك في هذه الواقعة أراد الله أن يعاقبهم على ما فعله بعضهم في خليفتهم الذي بايعوه وتعهدوا بطاعته، ثم نكثوا بيعته وقتلوه ظلماً، فعاقبهم الله بهذا العقاب الشديد، وأوقع بأسهم بينهم حتى لا يعودوا لتفريق كلمتهم وشق عصا أئمتهم، نسأل الله التوفيق.

ولما استشهد علي رضي الله عنه بايع أهل الكوفة ابنه الحسن وأول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنّة رسوله وقتال المحلين، فقال الحسن على كتاب الله وسنة نبيه، فإنهما يأتيان على كل شرط فبايعه الناس على ذلك.

الحسن

هو الحسن بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ ولد بالمدينة المنورة في السنة الثالثة من الهجرة، وكان أشبه الناس برسول الله ﷺ، وكان عليه السلام يحبه حباً شديداً هو وأخوه الحسين، وقال في حق الحسن: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحبب من يحبه»[1]، وقال فيه كما رواه البخاري في صحيحه: «**إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين**». ولم يحضر غزوات رسول الله ﷺ لصغر سنه، فقد توفي عليه السلام، وقد جاوز سبع سنين. ولما فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه العطاء أدخل الحسن في أهل بدر لمكانه من رسول الله ﷺ وكان ممن دافع عن عثمان وأبلى في ذلك بلاء حسناً، حتى نهاه عثمان رضي الله عنه، ولما بويع أمير المؤمنين علي كان الحسن معه في جميع مشاهده، ولما قتل علي رضي الله عنه أجمعت شيعة أبيه على بيعته وله كثير من الأولاد من أمهات شتى لم يعقب منهم إلا ابناه الحسن المثنى وزيداً.

اعماله في الخلافة

لما بويع رضي الله عنه وكان أبوه قد جهز جيشاً لحرب أهل الشام أمر الحسن بخروج هذا الجيش لتتميم ما قد عزم عليه أبوه، وسيّر قيس بن سعد طليعة له. وليحقق الله سبحانه للحسن ما أخبر به رسول الله ﷺ ألهمه الرشد،

(١) في الترمذي: «اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما»، وفي البخاري: «اللهم أحبهما فإني أحبهما»، وفي البخاري أيضاً «. . . اللهم أحبه وأحب من يحبه».

فنظر إلى بيعته فرآها ليست كبيعة أبيه، فإنها ليست عامة ولكنها قاصرة على شيعتهم من أهل العراق ورأى من جهة أخرى أن جند العراق لا تقوم به دولة لما هو بينهم دائماً من الشقاق والنزاع والتطلع إلى ما ليس لهم حتى نازعوه بساطاً كان يجلس عليه، فراسل معاوية بن أبي سفيان يبذل له الصلح ويشترط عليه شروطاً، فأرسل له بصك مختوم ليس فيه كتابة، وطلب منه أن يشترط لنفسه ما شاء، فكتب فيها الحسن شروطاً أهمها: تأمين جيشه وشيعة علي كلهم، فقبلها معاوية، وقدم إلى العراق فقابله الحسن بجيشه وبايعه بالخلافة هو وجنده وبهذا صدق رسول الله ﷺ في قوله: «**إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين**»، وبتسليمه رضي الله عنه انقضى الدور الثاني من دولة الخلفاء الراشدين وهو دور الفتن والشقاق وكان مبدؤه من قيام الثوار على عثمان رضي الله عنه ونهايته تسليم الحسن الخلافة لمعاوية.

فِتَنٌ دامت عشر سنين لو كانت في أمة أخرى لهدمت أركانها، وقوضت بنيانها ولكن الله نظر إلى دينه القويم بعين عنايته، فألف كلمة أهله وحفظه كما وعد. وكنت أود أن أجعل خاتمة الكتاب خلافة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، ولكن منعني من ذلك ما منع العلامة عبد الرحمن بن خلدون حيث قال في خاتمة الجزء الثاني من تاريخه: «وقد كان ينبغي أن نلحق دولة معاوية وأخباره بدولة الخلفاء وأخبارهم فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة ولا ينظر في ذلك إلى حديث: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة**»، فإنه لم يصح والحق أن معاوية في عداد الخلفاء، وإنما أخره المؤرخون عنهم لأمرين:

الأول: أن الخلافة لعهده كانت مغالبة لأجل ما قدمناه من العصبية التي حدثت لعصره، وأما قبل ذلك فكانت اختياراً واجتماعاً، فميزوا بين الحالتين، فكان معاوية أول خلفاء المغالبة والعصبية الذين يعبر عنهم أهل الأهواء بالملوك ويشبهون بعضهم ببعض. وحاشا لله أن يشبه معاوية بأحد من بعده، فهو من الخلفاء الراشدين، ومن كان تلوه في الدين والفضل من الخلفاء المراونية ممن تلاه في المرتبة كذلك، وكذلك من بعدهم من خلفاء بني العباس ولا يقال إن الملك أدون مرتبة من الخلافة، فكيف يكون خليفة ملكاً؟.

واعلم أن الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هو الجبروتية المعبر عنها بالكسروية التي أنكرها عمر على معاوية حينما رأى ظواهرها، وأما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة، فلا ينافي الخلافة ولا النبوة فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات الله عليهما نبيين وملكين وكانا على غاية الاستقامة في دنياهما، وعلى طاعة ربهما عز وجل، ومعاوية لم يطلب الملك وأبهته للاستكثار من الدنيا، وإنما ساقه أمر العصبية بطبعها لما استولى المسلمون على الدول كلها، وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم عندما تستفحل العصبية وتدعو لطبيعة الملك، وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده إذا دعتهم ضرورة الملك إلى استفحال أحكامه ودواعيه والقانون في ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار لا الواهي، فمن جرت أفعاله عليها، فهو خليفة النبي ﷺ وآله في المسلمين، ومن خرجت أفعاله عن ذلك فهو من ملوك الدنيا وإنما سمي خليفة بالمجاز.

الأمر الثاني: في ذكر معاوية مع خلفاء بني أمية دون الخلفاء الأربعة أنهم كانوا أهل نسب واحد وعظيمهم معاوية، فجعل مع أهل نسبه، والخلفاء والأولون مختلفو الأنساب، فجعلوا في نمط واحد، وألحق بهم عثمان وإن كان من أهل هذا النسب للحوق بهم قريباً في الفضل، والله يحشرنا في زمرتهم ويرحمنا بالاقتداء بهم. وقد أفردنا نحن لبني أمية وخلفائهم وأخبار دولتهم في الشام والأندلس كتاباً نفيساً سميناه (الفتوحات الإسلامية في عهد الدولة الأموية في الشرق والأندلس).

الخاتمة

لما كنا قد التزمنا أن نتبع كل دور بنتيجة ما حصل فيه رأينا أن نوفي هنا ما وعدنا به من ذلك، فنقول إن لهذا الشقاق الذي حصل والخلاف الذي ألمّ سبباً واحداً به انصدع الحبل وتشتت الشمل، وهو قتل عثمان بن عفان أمير المؤمنين رضي الله عنه. نقم عليه الناس إذ ذاك أموراً فعلها فقاموا عليه وحصروه في داره، ولم يقبلوا منه إلا أن يخلع نفسه ويدعوه مستندين على كتاب افتعل، وادعى أنه من عثمان إلى عامله بمصر يأمره فيه بقتل بعضهم، وجلد آخرين، فلما امتنع من خلع نفسه قتلوه في داره في عاصمة الإسلام ومدينة النبي عليه الصلاة والسلام البلد الذي يأمن فيه الجاني ويلوذ به الآثم، ولم يرعوا لرسول الله ﷺ حرمة ولا لخليفته عهداً.

انقسم الناس فيه على ثلاثة أقسام منهم الناكث لبيعته وهم الزعانف الذين لم تستنر بصائرهم بصحبة رسول الله ﷺ، ومنهم المقيم على ولائه الذاب عنه، وهم أكثر الأمة وغالب أصحاب رسول الله ﷺ في أمصار المسلمين، ومنهم المقيم على الحياد لا ينصره ولا يخذله، فأما الأولون فقد خالفوا سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد قدمنا لك في صدر كتابنا هذا ما قاله عليه السلام في الخروج عن طاعة الإمام ولم يجعل لها سبباً إلى الكفر البواح، وهو الظاهر الصريح الذي لا تأويل فيه ولم يقل بذلك أحد منهم إلا الغلاة الذين صرحوا بذلك، فإن كلامهم مردود عليهم من جميع الأمة حتى الشيعة والذين نقموه عليه هو أمور لا تخرج عن حد الشرع، وقد قدمناه لك. أما الذين أقاموا على ولائه فمنهم المقيم بالمدينة وهؤلاء غلبوا عليها، فلم يتمكنوا من المقاومة، والذين قاوموا أوذوا فقتل بعضهم

وجرح كثير منهم، ومنهم المقيم بالأمصار وهؤلاء خرجوا لنصرته حينما بلغتهم الأخبار، فلم يصلوها إلا وقد قضي الأمر. وأما الذين كانوا على الحياد، فلم يكونوا يظنون أن الأمر يصل إلى القتل لأنهم رأوا أن عثمان قد صار أسيراً في أيديهم وليس من العادة قتل الأسرى ولو كانوا كفاراً وحاشا لله أن نظن أن علياً والزبير وطلحة كانوا يظنون أن قصد الثائرين قتل عثمان ثم لا يدافعون بأنفسهم عنه حتى يهلكوا أو يخلصوه. أراد الله ما أراد ولا راد لقضائه. قتل عثمان، فافترقت الأمة إذ ليس هذا بالأمر الهين حتى يقابل بالغض. فريق ناقم على قتلته ويود قبل كل شيء إقامة حد لله والقصاص من قاتليه، ثم يجتمع رجال الحل والعقد من الأمة، فينتخبون بدله ومن هؤلاء عامة عشيرة عثمان ورأسهم وكبيرهم معاوية بن أبي سفيان أمير الشام وكثير غيره من الصحابة، كطلحة والزبير، وأم المؤمنين عائشة، وعمرو بن العاص وغيرهم رضي الله عنهم. وفريق رأوا أن الأولى بالمسلمين أن يبدأوا بإقامة خليفة لهم، ثم ينفذ حكم الله في القاتلين بعد أن تهدأ الأحوال ولا يتعسر أمر القصاص وتجتمع جنود المسلمين للقدرة على الثائرين. ومن هؤلاء علي بن أبي طالب، وكثير من أصحاب رسول الله ﷺ. والفريق الثالث: قتلة عثمان يرون بالطبع أنهم أصابوا فيما صنعوا ولا يستحقون قصاصاً.

قام المسلمون بالمدينة وفيهم كثير من أصحاب رسول الله ﷺ وبايعوا علياً ليكون خليفة لهم، فامتنع كل من ليس على رأيه، وقاموا يدعون المسلمين للأخذ بناصرهم حتى يقيموا حد الله فيمن قتل عثمان، فتوجه الزبير وطلحة وأم المؤمنين عائشة إلى البصرة للاستعانة بأهلها على القصاص فوافقهم جماعة وخالفهم آخرون، فعدوا من خالفهم عاصياً مانعاً من إقامة حد الله، وأصابوا بعضاً من قتلة عثمان فقتلوهم. أما أمير المؤمنين فعدهم خارجين عن طاعته لأنه رأى أن بيعته تمت بمن حضرها فلزمت من لم يحضرها، فتوجه إليهم وحاربهم حتى دخلوا في طاعته بعد قتل رؤسائهم وأرجع أم المؤمنين إلى بيتها، ثم عزم على حرب معاوية ومن رأى رأيه إن لم يدخلوا في طاعته. كيف يطيعون وقد رزئوا بقتل شيخهم وأمير المؤمنين والقصاص من قتلته أهم الأشياء عندهم، فكيف يتركونه أو يؤجلونه، وعدوا ذلك عصياناً لله سبحانه وتعالى، وتعطيلاً لحدوده ويتهموا علياً بالهوادة في نصر الخليفة وإيواء قتلته في جيشه، فلما حاربهم حاربوه وظل السيف يعمل في

رقاب المسلمين. فلما رأى ذلك معاوية وأصحابه أشاروا على أمير المؤمنين بتحكيم كتاب الله بينهم، فقبل ذلك حينما رأى أكثر جيشه راضين به، فحكم كل فريق رجلاً فهذان الحكمان لم يوفقا للإصلاح بين هاتين الطائفتين العظيمتين ولكنهما اختارا في صحيفتهما خلع علي ومعاوية، ويختار المسلمون لأنفسهم من شاءوا، فعرض كل منهما شخصاً فلم يقبل أحدهما ما عرضه الآخر، فافترقا على ذلك.

أنتج هذا التحكيم عند معاوية بن أبي سفيان أملاً عظيماً في تولي خلافة المسلمين حيث بايعه بها كثير من أصحاب رسول الله ﷺ لاعتقادهم فيه الكفاية وحسن السياسة، وأنتج في جيش علي الافتراق والشطط ففريق عده كفراً وضلالة زاعمين أن لا حكم إلا لله، وهذا تحكيم للرجال في أمر الله، وفريق استحسنه؛ فعادى كل فريق الآخر واعتزل من قبحوا التحكيم علياً، فشغل بهم وحاربهم مراراً، فقتل كثيراً منهم ونجا آخرون. تأصل فيهم مذهب الخروج على خلفائهم زاعمين ألا يصلح إلا رجل يدين بمعتقدهم، فشغلوا الخلفاء حيناً من الدهر وألهوهم في كثير من الأوقات عن جهاد الأعداء.

أما شيعة علي رضي الله عنه، فإنهم رأوا فعل معاوية وطلبه للخلافة أمراً إمرا لأنهم وزنوه بعلي فرأوه مرجوحاً فأرادوا إعادة الكرة على الشام، ولكن الأجل المقدور قضى على حياة أمير المؤمنين فقضى نحبه ولحق بربه: وجاء السيد ابن السيد فأصلح بين المؤمنين ووحد الكلمة وأزال الفرقة. ولكن الصدور لم تزل تكمن ما فيها، فشيعة علي لا تزال ترى هذا الأمر في أولاده يطلبونه متى سنحت لهم الفرصة، وصارت لهم مذاهب ونحل قد يعجز القلم عن استقصائها. والخوارج لا تزال ترى التحكيم ضلالة ولا ترى البيعة إلا شورى ولا ينتخب إلا رجل على مذهبهم ومعتقدهم، وتفرقوا شيعاً كل له مذهب يتبعه، وسنأتي عليها في كتابنا في أخبار الدولة الأموية إن شاء الله، ولا يخفى أن كلا من علي ومعاوية رضي الله عنهما كان يظن في الآخر الخطأ، ومخالفة السنة، وإلا لما جاز له قتاله حتى كان أمير المؤمنين علي يدعو على معاوية في صلاته، وكذلك كان يفعل معاوية.

وأما أخبار اللعن فمن أكاذيب التاريخ لأنه لم يقل أحد المتخاصمين بكفر الآخر حتى يجوز له لعنه بل يعتقد أنه مؤمن ولكن عاص، وناهيك بما قاله أمير المؤمنين علي عن قتلى الفريقين في وقعة صفين والجمل، وقال العلامة ابن كثير في تاريخه: إن خبر اللعن لم يصح.

والعجيب بعد ذلك ممن يأتي بعدهم وهو لا يعرف إلا القليل مما حصل لهم ثم هو يتشيع لأحد الفريقين، ويبغض الآخر. وهذا ليس من الدين في شيء فأولئك قوم اختلفوا في الرأي ولم يتبعوا الهوى بل أرادوا الله بأعمالهم، وهم أصحاب رسول الله ﷺ الذين تلقوا عنه الدين مباشرة ونقلوه إلينا. وقد أجمع المسلمون على توثيقهم وعدالتهم، فالخوض بعد ذلك في تضليل بعضهم مما لا يرضى به الله ولا رسول الله ﷺ والأولى للمسلمين أن يعرفوا أن ما حصل في زمنهم من الخلاف والفرقة أمران لا ينبغي عملهما، فيتجنبوهما ويتخذون ذلك درساً في أحوالهم وسياسة دنياهم بدل أن يشغلوا أنفسهم بما لا طائل تحته من تفضيل أحد الأخوين على الآخر وتضليل الثاني منهما. فالله الله في أصحاب رسول الله ﷺ فلو أنفق أحدكم يا قوم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه بشهادة نبيكم ﷺ، وإياكم ودجالين، وكذابين من المؤرخين قضت عليهم ظروف زمنهم أن يقلبوا الحقائق، ويكذبوا على الله وعلى الأمة الإسلامية، فينسبون القبائح لأصحاب رسول الله ﷺ، وأشغلوا أنفسكم بتحسين حالكم وطاعة ربكم.

وها أنا قد نقلت لكم هذا التاريخ الصغير من أوثق المصادر التي يعتقدون بصحتها، فليس بعد كتاب الله سبحانه وتعالى كتاب أوثق من صحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم اللذين نقلنا عنهما كثيراً من أمهات المسائل، وبعضاً من الأحاديث التي يدخل تحتها معظم الأمور التي منيت الأمة بها. وليس على الله بعزيز أن يؤلف كلمة الأمة ويلم شعثها ويوفقها لما فيه رضاه بمنه وكرمه، أسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وجميع المسلمين إلى ذلك إنه على ما يشاء قدير.

قال مؤلفه: كان الفراغ من تأليفه خامس رمضان من سنة ١٣١٦ هجرية بمدينة المنصورة.

(تم بعون الله تعالى)

المصادر والمراجع

- الأحكام السلطانية، أبو الحسين علي البصري الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.
- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري؛ تحقيق طه محمد الزريني، مؤسسة الحلبي، مصر، لات.
- البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي، دار المعارف، بيروت، لات.
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي، د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط ٦، ١٩٦٥.
- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار القلم، بيروت، لات.
- تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠.
- سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي؛ عناية محمد أحمد دهمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لات.
- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني؛ مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، لات.
- سنن ابن ماجة، الحافظ محمد بن يزيد القزويني؛ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٥.
- سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، لات.

ـ سيرة النبي ﷺ، محمد عبد الملك بن هشام الحميري، مكتبة الجمهورية، مصر، لات.
ـ صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لات.
ـ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري؛ حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨.
ـ القاموس المحيط، الفيروز أبادي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨.
ـ الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨.
ـ اللباب في تهذيب الإنسان، ابن الأثير الجزري، مكتبة المثنى، بغداد، لات.
ـ لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، لات.
ـ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٦٧.
ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨.
ـ معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.
ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، نشره ڤنسنك، مكتبة بريل، ليدن، ١٩٣٦.
ـ المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وغيره، دار الفكر، بيروت، لات.
ـ المغني في ضبط أسماء الرجال ومعرفة كنى الرواة وألقابهم وأنسابهم، محمد طاهر الهندي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٩.
ـ مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لات.
ـ موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، سعدي أبو حبيب، دار العربية، بيروت، لات.
ـ موطأ الإمام مالك، الإمام مالك، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٥١.

الفهرس

القسم الثاني من الكتاب


مطابع يوسف بيضون